سلسلة المناهج الإسلامي في تزكية النفس (٢)

شفاء النفس

وغذاء الروح

العلم النافع والعمل الصالح - المحاسبة والتوبة
مجاهدة النفس - صحبة الصالحين - التفكر في المخلوقات

تأليف
الدكتور أنس أحمد كرزون

دار نور المكتبات
دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار نور المكتبات

جدة - حي السلامة - بجوار جامع الشعيبي - هاتف وفاكس: ٦٨٣٨٠٥١
المملكة العربية السعودية

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

شفاءُ النفس وغذاءُ الروح

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى:

وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ
وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا

سورة الإسراء/ آية ٢٤

مُقدِّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاةُ والسلامُ عَلَى أشرفِ الأنبيـــاءِ والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد:

فقد سبق الحديث في الكتابِ الأول من هَــذِهِ السلســلةِ عــن أمراضِ النفس ومعوقاتِ تزكيَتِها مع إلماحةٍ سريعةٍ لعلاجِ هَذِهِ الأمراض والتغلُّبِ عَلَى تلك المعوقات.

وَلاَ يخفى عَلَى القارئ الكريم أَنَّ الوقايةَ خيرٌ من العــلاج ، وَأَنَّ تحصينَ النفسِ وتهذيبَها وحمايتَها من الآفاتِ واجبٌ عَلَى كل مســلمٍ ، وَأَنَّ غذاءَ الروحِ أهمُّ من غذاءِ الجسد ، والحرص عَلَى لباسِ التقــوى خيرٌ من الانشغالِ والتَّباهي بلباسِ الجسد ، وشتَّان شتَّان بين من يَبْلَــى ويَفْنَى ، ومن يبقى ذُخْراً لك ﴿يوم لا ينفعُ مالٌ وَلاَ بَنونَ إِلاَّ مَن أَتَــى الله بقلبٍ سليم﴾ .

ولهذا رأيتُ أَنْ أستخلصَ من كتابي (منهج الإســلام في تزكيــة النفس) بعض الموضوعات الَّتِي توضِّحُ معالمَ المنهج الإسلامي في وقايــة النفس وشفائها من أمراضها وآفاتها ، والأساليبَ العملية الَّتِي شــرعَها الإسلام لتحقيق تزكيةِ النفس وشفائها من علَلِها ، وانشراح الصــدر

وغذاء الروح ، وذلك بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، والمحاسبة والتوبة ، والمجاهدة ، وصحبةِ الصالحين ، والتفكر في المخلوقات... ونحو ذَلِك من العبادات الجليلةِ الَّتِي تُعَدُّ بحقّ سياجاً واقِياً ودِرعاً حصينةً تحمي المسلم من صنوفِ الفِتَنِ والمُغرِيات ، وأخطارِ طغْيانِ الشهوات.

- فما أعظمَها من سعادةٍ أَنْ يحيا المسلم طاهرَ النفسِ منشرحَ الصدر مستقيمَ السلوك .
- وَمَا أعظمَها من حياةٍ طيِّبةٍ مباركةٍ في رحابِ هَذَا المنهج القَويم ينالُ بِهَا العبد سعادةَ الدُّنْيَا والآخرة.
- فهَلُمَّ أخي القارئ الكريم إِلى ترجمةِ ما تقرؤه من صفحاتٍ إِلى واقعٍ عمَلِيٍّ في حياتك.

سائلاً المولى سُبْحَانَهُ أَنْ يوفِّقَنا جميعاً لِما يحبه ويرضاه ، والحمد لله رب العالمين.

تمهيد :

التزكية بناء شامخ يقوم على أسس وقواعد، كما يحتاج إلى وسائل وأعمال، لكي يحقق أهدافه ويثمر ثمراته ونتائجه.

والعمل بهذا البناء دائم لا يتوقف حتى الموت، لأن تزكية النفس عملية مستمرة، وترقيها في مقامات القرب من الله سبحانه لا حدَّله، وكل ذلك لا يخرج عن مقام العبودية لله سبحانه.

ولذلك كانت العبادة هي الطريق المؤدي إلى تزكية النفس، وبلوغها درجات التقوى، وقد خلق الله الخلق لعبادته، وأرسل الرسل يدعون إلى توحيد الله وعبادته سبحانه، قال تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ (الذاريات / آية ٥٦).

وقال عزوجل : ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ (النحل / من الآية ٣٦).

والعبادة بمعناها العام تشمل جميع أعمال المرء الإرادية، قلبية كانت أو سلوكية، ويمكن تعريفها بأنها : عمل العبد الإرادي الموافق لطلب المعبود [١] .

وقد عرَّفها الإمام ابن تيمية رحمه الله بقوله : (العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة) [٢] .

---

(١) العبادة ـ د . محمد أبو الفتح البيانوني ـ ص/ ١٦ .

(٢) العبودية ـ للإمام ابن تيمية ـ ص/٣٨ .

أما العبادة بمعناها الخاص فهي الأعمال المحددة التي كُلِّف العبد بالقيام بها، وهي ما يعبر عنه بالشعائر التعبدية كالأركان وغيرها من الفرائض، وهي أعمال مقصودة لتحقيق الطاعة للخالق والتقرب إليه وإعلان الخضوع الكامل له سبحانه[1]

ومن هنا كانت العبادة بمعناها الخاص تحمل معنى الغاية والوسيلة في آن واحد، فهي غاية في حد ذاتها لأنها قربة وطاعة لله وخضوع عملي له، وهي وسيلة من جهة أخرى نظراً لما تحتويه من تحقيق الخضوع لله تعالى والإشعار به[2].

وقد ركّز الإمام الشاطبي على هذا المعنى مبيِّناً أنَّ للعبادة مقصداً أصلياً ومقاصد تابعة، فالمقصد الأصلي فيها هو التوجه إلى الواحد المعبود، وإفراده بالقصد إليه في كل حال، ويتبع ذلك قصد التعبد لنيل الدرجات في الآخرة... ومن المقاصد التابعة للعبادة صلاح النفس واكتساب الفضيلة؛ فالصلاة مثلاً أصل مشروعيتها الخضوع لله سبحانه بإخلاص التوجه إليه.. ثم إن لها مقاصد تابعة كالنهي عن الفحشاء والمنكر، والاستراحة إليها من أنكاد الدنيا[3].

وهكذا فإن المقصود بالعبادة أداء حق الله سبحانه، والخضوع بين يديه،

---

(١) العبادة ـ د . محمد أبو الفتح ـ ص/ ١٨ .

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ينظر: الموافقات في أصول الأحكام -للإمام الشاطبي- ١/١٢٦، وما بعدها.

وإظهار الذل والافتقار له، وامتثال أمره سبحانه فيما تعبّد به خلقه، وهذه هي علة العبادات كلها ثم تأتي تزكية النفس واستقامة الأخلاق ثمرة لازمة للعبادة[1] .

وبهذا التوضيح يزول اللبس في مسألة المقاصد والوسائل، فالأمر نسبي، بمعنى أن كل وسيلة هي غاية بالنسبة لغيرها، وكل غاية هي وسيلة لغيرها، فالصلاة هدف وغاية، وهي وسيلة لتزكية النفس وطهارة القلب، والوضوء وسيلة لتحقيق شرط من شروط صحة الصلاة، كما أنه غاية لأنه امتثال لأمر الله في تحقيق الطهارة والنظافة.

والذي يدعونا إلى هذا التفصيل ما يروِّجه بعض الناس من دعاوى باطلة يبررون بها إعراضهم عن الفرائض والتكاسل عن أدائها، بحجة أنها مجرد وسيلة لتهذيب النفس، وإذا تم الوصول إلى تهذيب النفس بدون تلك الفرائض فلا حاجة إليها!!.

ولا شك أن الرد المحكم على دعاوى هؤلاء أن الله سبحانه أمر رسوله ﷺ بالعبادة حتى الموت مع ما كانت عليه نفسه الشريفة من تزكية وبلوغ لدرجات الكمال التي لا يرقى إليها بشر آخر ومع هذا أمره ربه بقوله: ﴿**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾ (الحجر / آية ٩٩)، أي : الموت.

ولو أن هذا المدعي بأن نفسه قد تزكت وتهذبت بدون الفرائض، يدرك

---

(١) ينظر : العبادة في الإسلام ـ د . يوسف القرضاوي ـ ص/١١٥ .

المعنى الحقيقي لتزكية النفس، لعرف أن نفسه مليئة بالأمراض وبعيدة كل البعد عن ما هية التزكية، وأنها نفسٌ أمارة بالسوء تزين المنكر وتصد عن الطاعة.

نعود فنقول: إن للعبادة مقصداً أصلياً، ولها مقاصد أخرى هي في حد ذاتها وسائل لغيرها، والوسيلة العظمى للعبادة: تحقيق تزكية النفس وطهارتها، وشفائها من عللها، واستقامة السلوك وتقويم الأخلاق، مع تفاوت في أحكام هذه العبادات وأثرها في التزكية.

ولعل القارئ لهذا الكتاب يرى الارتباط الوثيق بين ما سنعرض له من عبادات ووسائل شرعية عملية، وبين ما تحققه من تأثير كبير في تزكية النفس وبناء الشخصية الإسلامية المتكاملة.

الفصل الأول

العلم النافع

العلم النافع الذي يحقق التزكية : هو كل علم يقرِّب من الله سبحانه، ويزيد الخشية منه، ويدفع إلى العمل الصالح.

ويدخل في هذا العلم الشرعي أولاً : ثم تأتي بعض العلوم الأخرى التي تدفع الإنسان إلى التفكر في المخلوقات وإدراك قدرة الله تعالى وبديع صنعه[1].

والعلم عبادة عظيمة، وقد أمر الله عباده به وجعله مقدماً على العمل.

فقال تعالى: ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك**﴾ (محمد/ من الآية ١٩) .

وقد استدل الإمام البخاري بهذه الآية الكريمة على أهمية العلم وكونه

---

(١) لا شك أن العلوم النافعة التي تدفع المسلم إلى التفكر في المخلوقات، تعد من الأساليب العملية في تزكية النفس كالطب والفلك، لما فيها من تأمل بديع صنع الله وحكمته في خلقه، وسنعرض لذلك بالتفصيل في الفصل السادس من هذا الكتاب ، أما العلوم التي لا تثمر فضيلة التفكر في المخلوقات بشكل مباشر فلا ترقى أن تكون وسيلة لتزكية النفس وإن كانت علوماً نافعة للأمة ونهضتها وقوتها، ويثاب صاحبها عند الله سبحانه إذا أخلص فيها .

سابقاً للعمل[1] ، لأن الله سبحانه بدأ بالعلم قبل العمل، حيث قال : ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾، ثم قال: ﴿واستغفر لذنبك﴾ .

ولهذا كان العلم النافع القائم على توحيد الله سبحانه الوسيلة الأساسية الأولى لتزكية النفس وبلوغها مقامات الخشية والقرب من الله سبحانه، وتصحيح مسار المسلم، وترسيخ الإيمان في قلبه.

ولا شك أن طلب العلم عبادة جليلة، وهو من أفضل القربات عند الله سبحانه، وأن تعلم ما تصح به العبادة فرض عين على كل مسلم، كما أن الاستزادة من العلم تُعلي قدر صاحبها عند ربه وترفع منزلته.

وقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسُّنّة[2] في بيان فضل العلم ومنزلة العلماء وآداب طلب العلم والثمرات العظيمة التي يحظى بها العلماء العاملون بعلمهم.

- قال تعالى : **﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب﴾** (الزمر / آية ٩).

---

(١) صحيح البخاري - كتاب العلم - باب العلم قبل القول والعمل - ٢٥/١ .

(٢) من أراد التوسع فليرجع لما أورده الإمام ابن القيم في كتابه (مفتاح دار السعادة) ٤٨/١، وما بعدها .

فالقنوت لله واستشعار الخوف من عذابه والتطلع إلى رحمته ثمرة من ثمرات العلم النافع الذي يفتح البصيرة وينوّر القلب.

ـ وقال سبحانه : **﴿يرفع ا لله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾** (المجادلة / من الآية ١١).

ـ كما أن ا لله سبحانه شَرف العلم والعلماء بما وفّقهم إليه من خير عميم، فقال عزوجل : **﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذّكر إلا أولوا الألباب﴾** (البقرة / آية ٢٦٩).

قال مجاهد في تفسير هذه الآية الكريمة : (يؤتي الحكمة: أي العلم والفقه والقرآن) [١].

ـ ومما يدل على شرف العلم وفضله أن ا لله سبحانه أمر نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه فقال تعالى: **﴿وقل رب زدني علماً﴾**(طه/ من الآية ١١٤).

ـ والعلم النافع له ثمرات عظيمة بما يغرس في نفس صاحبه من تقوى ا لله والخشية منه، ولهذا كان العلماء العاملون أكثر الناس خشية من ربهم، بل إن هذه الخشية محصورة في أهل العلم قال تعالى: **﴿إنما يخشى ا لله من عباده العلماء﴾** (فاطر /من الآية ٢٨)، ولفظ **﴿إنما﴾** يدل على الحصر.

وهذه الآية الكريمة دليل صريح على أهمية العلم في التزكية، وكونه وسيلة لابد منها لمن أراد البداية الصحيحة لتزكية النفس

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٢٢/١ .

وطهارتها من أمراضها.

- **أما الأحاديث النبوية** التي تذكر فضل العلم وتبين منزلة العلماء وشرفهم، وما ينبغي لهم أن يتأدبوا به ويحرصوا عليه، فهي كثيرة [1]، ولعل من أبرزها الأحاديث التالية:

١ - عن معاوية ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)** [2].

---

(١) من أراد التوسع في ذلك فليرجع إلى كتب السنة حيث أفردت أبواباً خاصة للأحاديث الواردة في العلم ومنزلته وآداب حملته، كما صنف العلماء كتباً خاصة في ذلك، ومن أبرزها :
أخلاق العلماء لأبي بكر الآجري (ت٣٦٠هـ) - جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر القرطبي (ت٤٦٣هـ) - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) - الفقيه والمتفقه للخطيب أيضاً - اقتضاء العلم العمل للخطيب - أدب الدنيا والدين للماوردي (ت٤٥٠هـ) - تعليم المتعلم طريق التعلم للزرنوجي (ت٦٤٠هـ) - أدب المفتي والمستفتي لابن الصلاح (ت٦٤٣هـ) - تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم لابن جماعة (ت٧٣٣هـ) - مفتاح دار السعادة لابن القيم (ت٧٥١هـ) فضل علم السلف على الخلف لابن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ) وكذلك مقدمة المجموع للإمام النووي (ت٦٧٦هـ) وغيرها من كنوز تصانيف السلف الصالح رحمهم الله .

(٢) رواه البخاري - كتاب العلم باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين - ١/٢٥، ورواه مسلم في كتاب الزكاة - باب النهي عن المسألة - رقم ١٠٣٧.

فالفقه في الدين من أعظم الخير الذي يوفق الله إليه عباده، ويشمل معنى الفقه في هذا الحديث العلوم الشرعية كلها، وهذا دليل على منزلة العلم الشرعي وأثره في سلوك المسلم لحفزه إلى طريق الخير والسعادة.

٢ - وعن أبي الدرداء ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (**من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم لَيستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنّما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**)[١] .

وفي هذا الحديث النبوي بيان للتكريم العظيم والمنزلة الكبيرة التي يحظى بها العالم والمتعلم وإشارة إلى أهمية العلم كوسيلة في تزكية النفس، لأنه الطريق الموصل إلى الجنة، وهو ميراث الأنبياء، وبه حياة القلوب وسعادة النفوس.

ولا شك أن تشبيه العلماء بالقمر ليلة البدر يُعد من البلاغة النبوية، فالقمر يضيء الآفاق ويمتد نوره، أما الكواكب الأخرى فنورها ضئيل، وإذا

---

(١) رواه أبو داود في العلم - رقم /٣٦٤١، والترمذي في العلم - رقم/٢٦٨٢. وإسناده حسن كما قال محقق جامع الأصول ٦/٨ .

كان الجهل كالليل في ظلمته، فإن العلماء بمنزلة القمر ليلة البدر الذي يبدّد الظلام ويزين السماء.

وهناك لطيفة أخرى في هذا التشبيه النبوي، فالقمر يضعف نوره ثم يزداد، وتراه كاملاً ثم يتضاءل وينقص، وكذلك العلماء تتفاوت مراتبهم في العمل الصالح والدعوة إلى دين الله.

وفي قوله ﷺ: (إن العلماء ورثة الأنبياء) تنبيه للعلماء أن يسلكوا هدي الأنبياء وطريقتهم في الدعوة وتزكية النفوس وتربية الأمة، وبذلك يحصل لهم نصيبهم من هذا الميراث العظيم[(١)].

وإذا كان قِوام حياة البدن وأمور المعيشة عن طريق المال، فإن حياة القلب وغذاءه وشفاءه من أسقامه لا يكون إلا بالعلم النافع الذي يورث العمل الصالح، ومن أخذَ به فقد أخذ بحظٍّ وافر.

٣ - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **(مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقيَّة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفعَ الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً. فذلك مثل من فَقُه في دين الله ونَفَعه ما بعثني الله به، فعَلِم وعلَّم، ومثل من لم**

---

(١) ينظر : مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/٦٥ .

يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلتُ به)[1].

وهذا الحديث النبوي دليل آخر على منزلة العلم النافع في تزكية النفس، فقد شبَّه الرسول ﷺ ما جاء به من الدين كالغيث الذي يُمطر الناس وهم في أشد الحاجة إليه، ثم شبه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث، فمنهم العالم العامل بعلمه المعلِّم لغيره، فهو بمنزلة الأرض الطيبة، شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها.

ومنهم الجامع للعلم المستغرق فيه غير أنه لم يتأدب بآدبه و لم يعمل به إلا قليلاً، فلم يثمر علمه الثمرة المطلوبة في تزكية النفس واستقامة السلوك، فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء لينتفع الناس به في السقاية والري، دون أن تستفيد تلك الأرض من مائها المخزون فيها لكي تنبت وتخضرّ، بل بقيت جرداء قاحلة، أو أنبتت نباتاً قليلاً تتفاوت نسبته بحسب استفادة الأرض من مائها.

ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء ولا تنبت الكلأ، وهذه الطائفة أعرضت عن العلم النافع وأصرت على ظلمات الجهل وانحرفت عن طريق الحق الذي يدعو إليه الرسول ﷺ.

ولا شك أن الطائفة الأولى هي المحمودة لكونها تعلمت العلم النافع وأثمر

---

(١) صحيح البخاري - كتاب العلم - باب فضل من عَلِم وعلّم ٢٨/١ .

هذا العلم عندها ثمرات كثيرة في تزكية النفس والدعوة إلى الدين الحق وإرشاد العباد إلى ما فيه سعادتهم.

*** ولكي يؤدي العلم مهمته في تزكية النفس لا بد من أن يتحقق فيه الشرطان التاليان:**

١ ـ أن يصحبه العمل الصالح مع الإخلاص لله سبحانه والتزام الآداب المطلوبة للعالم والمتعلم[١] .

٢ ـ أن يتجنب المسلم المراء والخصام في مسائل العلم ، ولنبدأ بالفقرة الأولى:

العلم والعمل:

العلم النافع هو العلم الذي يتبعه العمل ويلتزم صاحبه بالخلق الفاضل والأدب الكامل والاعتصام بالكتاب والسنة وإخلاص القصد لله سبحانه، وبذلك يثمر ثمراته المرجوّة في تزكية النفس.

ولقد حذرنا الله سبحانه من العلم الذي لا يصاحبه العمل، ومن القول الذي لا يتبعه الفعل، فقال تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون﴾** (الصف / الآيتان ٢/٣).

وقال سبحانه : **﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون لكتاب أفلا تعقلون﴾** (البقرة / آية ٤٤).

كما بين الرسول ﷺ أن العالم سيُسأل يوم القيامة عن علمه ماذا عمل

---

(١) ينظر تفصيل ذَلِكَ في كتاب: آداب طالب العلم – للمؤلف.

فيه وهل أثمر عنده الخشية من الله والتقرب إليه بالعمل الصالح أم اتخذه وسيلة للتظاهر والتباهي أمام الناس ؟

روى الترمذي عن أبي برزة الأسلمي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فَعَل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه) [(١)].

وروى مسلم عن أسامة بن زيد ﷺ أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه) [(٢)].

وهذه عقوبة من لا يعمل بما آتاه الله من علم، ولا ينتفع به، وإنما يكتفي بأمر الناس ونهيهم، ويترك نفسه لتنساق وراء المعاصي في غفلة عن أعين الناس، ولكن الله سبحانه الذي لا تخفى عليه خافية، والذي ستره في الدنيا حتى ظن الناس به الصلاح، يفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد.

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم مع تقواهم وتمسكهم بالكتاب والسنة يخشون هذا الموقف العصيب يوم القيامة.

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة ـ رقم ٢٤١٧، وقال حديث حسن صحيح .

(٢) رواه مسلم في الزهد ـ باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ـ رقم /٢٩٨٩ .

ـ فعن أبي الدرداء ﷺ أنه قال : (إنما أخاف أن يقال لي يوم القيامة أعلمتَ أو جهلت؟، فأقول : علمت، فلا تبقى آية من كتاب الله عزوجل آمرة أو زاجرة إلا جاءتني تسألني فريضتها، فتسألني الآمرة هل ائتمرت، والزاجرة هل ازدجرت، فأعوذ با لله من علم لا ينفع)[1] .

ـ وعنه ﷺ أنه قال : (لا تكون عالماً حتى تكون بالعلم عاملاً)[2] .

ولقد كان الرسول ﷺ يسأل ربه العلم النافع ويتعوذ به من العلم الذي لا ينفع.

روى مسلم عن زيد بن أرقم ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول : (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها)[3] .

قال الإمام ابن رجب الحنبلي : (من فاته هذا العلم النافع وقع في الأربع التي استعاذ منها النبي ﷺ، وصار علمه وبالاً وحجة عليه، فلم ينتفع به لأنه لم يخشع قلبه لربه، و لم تشبع نفسه من الدنيا، بل ازداد عليها حرصاً ولها طلباً، و لم يُسمع دعاؤه لعدم امتثاله لأوامر ربه، وعدم اجتنابه لما يسخطه

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، للإمام ابن عبد البر ـ ٣/٢ .

(٢) أخلاق العلماء ـ للإمام الآجري ـ ص/٥٧ .

(٣) صحيح مسلم ـ كتاب الذكر والدعاء ـ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ـ رقم /٢٧٢٢.

ويكرهه)[1].

ولقد كان الرسول ﷺ يربي أصحابه على العلم النافع الذي يزكي النفس، وبذلك تَخَرَّج في مدرسة النبوة هذا الجيل القرآني الفذ الذي حمل رسالة الإسلام إلى الآفاق، وتسلّم وراثة النبوة ليسلّمها لمن بعده بأمانة وإخلاص، وتعاقبت الأجيال الفاضلة التي تتلقى العلم للعمل وتتأدب بآداب العلم وتتحلى بفضائله.

- روى الخطيب البغدادي عن مالك بن أنس قال : قال ابن سيرين : (كانوا يتعلمون الهديَ كما يتعلمون العلم)[2].

- وعن مالك أيضاً عن ابن شهاب أنه قال : (إن هذا العلم أدبُ الله الذي أدَّب به نبيه ﷺ، وأدَّب النبي ﷺ أمَّتَه، أمانة الله إلى رسوله، ليؤديه على ما أُدي إليه، فمن سمع علماً فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين الله عزوجل)[3].

- وعن إبراهيم بن حبيب قال: قال لي أبي : (يا بني إيتِ الفقهاء والعلماء، وتعلّم منهم وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإن ذاك أحب إليَّ لك من كثير من الحديث)[4].

---

(١) فضل علم السلف على الخلف - للإمام ابن رجب الحنبلي - ص/١٢٢ .

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع - للإمام الخطيب البغدادي - ١/٧٩ .

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع - للإمام الخطيب البغدادي - ١/٧٩ .

(٤) المرجع نفسه ١/٨٠ .

ولذلك كانت العلامة التي يتميز بها أهل العلم النافع أنهم يتواضعون ولا يرون لأنفسهم حالاً ولا مقاماً ويكرهون المدح وثناء الناس عليهم، ولا يتكبرون على أحد، وتراهم زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة، يواظبون على عبادة ربهم، وكلما ازدادوا علماً ازدادوا تواضعاً لله وخشية وانكساراً وذلاً له سبحانه[1].

وقد حدَّد الإمام الشاطبي شروط العالم المتحقق بالعلم، وهي:

١- العلم بما عِلم حَتَّى يكون قوله مطابقاً لفعله.

٢- أن يكون ممن ربَّاه الشيوخ في ذَلِكَ العلم لأخذه عنهم وملازمته.

٣- الاقتداء بمن أخذ عنه والتأدب بآدابه

فلما تُركت هذه الأوصاف رفعت البدع رؤوسها وحلَّ اتباع الهوى محل الاقتداء[2]

المراء والخصام في مسائل العلم يقسي القلب ويحرم من ثمرات العلم:

الشرط الثاني الذي لا بد من تحققه لكي يؤدي العلم دوره في تزكية النفس وترقية حالها هو تجنب الخصام والمراء والجدال في مسائل العلم.

والدليل على ذلك ما رواه أصحاب السنن[3]، عن أبي أمامة ﷺ أن

(١) ينظر: فضل علم السلف على الخلف للإمام ابن رجب الحنبلي ص/١٢٨-١٢٩ .

(٢) ينظر الموافقات للإمام الشاطبي ١/٥٤-٥٥

(٣) رواه الترمذي في التفسير رقم /٣٢٥٠، وقال حسن صحيح، وابن ماجة في المقدمة رقم /٤٨، وأحمد في المسند ٥/٢٥٢و٢٥٦.

الرسول ﷺ قال : (ما ضلَّ قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل، ثم قرأ: **﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾** (الزخرف / الآية ٥٨)).

وقال بعض السلف : (إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل، وأغلق عليه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شرّاً أغلق عنه باب العمل وفتح له باب الجدل) [١].

وقال مالك رحمه الله : (المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم) [٢].

وقال أيضاً : (المراء في العلم يقسّي القلب) [٣].

وسمع الحسن البصري قوماً يتجادلون فقال : (هؤلاء قوم ملّوا العبادة، وخفَّ عليهم القول، وقلَّ ورعهم فتكلموا) [٤].

وقال محمد بن جعفر الصادق : (إياكم والخصومات في الدين فإنها تشغل القلب وتورث النفاق) [٥].

وقد علق الإمام ابن رجب الحنبلي بعد أن أورد هذه الأقوال عن علماء السلف، فقال : (وقد فتن كثير من المتأخرين بهذا، فظنوا أن مَن كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهل

---

(١) فضل علم السلف على الخلف ص/٨٦ .

(٢) المرجع نفسه ص/ ٨٨ .

(٣) المرجع نفسه ص٨٨ .

(٤) نفس المرجع ص/٨٩ .

(٥) المرجع نفسه ص/٩١ .

محض... فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به الحق ويميز به بينه وبين الباطل)[1].

ثم قال : (وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدَّم، فمنهم من يظن في شخص أنه أعلم من كل مَن تقدم من الصحابة ومن بعدهم لكثرة بيانه ومقاله، ومنهم من يقول هو أعلم من الفقهاء المشهورين المتبوعين)[2].

وبعد هذا البيان لضرورة البعد عن الجدال والمراء في مسائل العلم وضع لنا الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله ضوابط للعلم النافع البعيد عن الجدل والخصام فقال : (العلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد والرقائق، والمعارف وغير ذلك، والاجتهاد في تمييز صحيحه من سقيمه أولاً، ثم الاجتهاد في الوقوف على معانيه وتفهمه ثانياً، وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع عُني واشتغل)[3].

ولا شك أن هذا التحديد يشمل كل علم نافع يسير في ركاب الكتاب والسنة ويلتزم بمنهج السلف الصالح ويحذر صاحبه غرور النفس وهواها.

---

(١) نفس المرجع ص /٩٢-٩٤ .

(٢) نفسه ص/٩٧ .

(٣) فضل علم السلف على الخلف ص/١١١ .

ولهذا العلم آثار عظيمة في تزكية النفس، ومن أبرزها:

آثار العلم النافع في مجال التزكية

١ ـ **العلم النافع يعرِّف المسلم بالعقيدة الصحيحة ويرسِّخ إيمانه بها**، ويزيد يقينه بقدرة الله سبحانه وبديع صنعه وحكمته في خلقه وتدبيره، ويقوي دعائم أركان الايمان في نفسه، وهذه الأركان هي الأساس في تزكية النفس[1].

٢ ـ **العلم النافع يعلِّم المسلم أحكام الحلال والحرام**، وكل ما يحتاجه من أحكام العبادات والمعاملات فالعلم إمام العمل وقائد له، ولا بد أن يكون العمل موافقاً للكتاب والسنة لكي يقبل عند الله سبحانه والعامل بغير علم كالسائر بلا دليل في مكان لا يعرفه.

ثم إن العلم يحدد للمسلم منزلة كل عبادة ويبين له الفرائض من النوافل، فلا ينشغل بنافلة على حساب فريضة، فإن من علامة اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات.

٣ ـ **العلم يحفظ صاحبه من موارد الهلكة**، فالإنسان لا يعرض نفسه للتلف والخطر إلا إذا كان جاهلاً بذلك لا علم له به، فهو كمن يأكل طعاماً مسموماً، ولو علم بالسم لامتنع عن أكله فالعلم يحرس صاحبه، ويجنبه

(١) انظر الباب الثاني من كتاب/ منهج الإسلام في تزكية النفس – للمؤلف .

مداخل الشيطان ويحجزه عن المعاصي[1].

٤ ـ العلم يثمر أعظم ثمرة يتمناها كل مسلم وهي الخشية من الله سبحانه ومحبته والقرب منه، وهذه الخشية تنمو في النفس كلما ازداد المسلم طلباً للعلم وعملاً به، والخشية الصحيحة لا يحظى بها إلا العلماء العاملون، كما قال تعالى : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ (فاطر / من الآية ٢٨).

فالعبد يستدل بالعلم على ربه فيعرفه وإذا عرف العبد ربه عرف نفسه وأدرك افتقاره إلى خالقه ولذلك كان الإمام أحمد رحمه الله يقول : (أصل العلم خشية الله)[2].

وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿**وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم**﴾ (الحج / من الآية ٥٤).

والعلم الذي يُبعد الإنسان عن ربه ويوقعه في الضلال ويزيده تكبراً وغروراً، لا يُعد علماً نافعاً مهما تعمق الإنسان فيه، فما هو إلا أخو الجهل، لأن العلم النافع ليس مجرد المعرفة ولكنه الذي يدفع لتحقيق عبودية الإنسان لخالقه.

---

(١) ينظر : مفتاح دار السعادة لابن القيم ـ ١٢٨/١ .

(٢) فضل علم السلف على الخلف ـ ص/١٢١ .

وقد بين لنا الله سبحانه أنَّ ذلك من صفات الكفار وما تعلموه من علم مبتوت لا يرتبط بالدار الآخرة فقال تعالى : ﴿**يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون**﴾ (الروم / آية ٧).

وقال سبحانه : ﴿**فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يُرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم**﴾ (النجم / آية ٢٩، وجزء من الآية ٣٠).

٥ ـ **العلم كفارة للذنوب والخطايا وتطهير للنفس**، وذلك لأن العلم عبادة جليلة يحظى بها المسلم بالأجر العظيم، وهو من الحسنات التي يكفّر الله بها السيئات.

كما قال تعالى: ﴿**إن الحسنات يذهبن السيئات**﴾ (هود/ من الآية ١١٤).

وقال ﷺ: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) [(١)].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال : (إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة، فإذا سمع العلم خاف ورجع وتاب، فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء) [(٢)].

ولذلك قال الإمام الراغب الأصفهاني : (العلم والعبادة هما المطهران

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذي -كتاب البر- باب ماجاء في معاشرة الناس - رقم/١٩٨٨- وقال حديث حسن.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/٧٧ .

للنفس، وأثرهما كأثر الماء في تطهير البدن)[1] .

٦ ـ **العلم منشط للنفس وممتع لها**، وهذه المتعة تنسي طالب العلم ما يلحقه من متاعب، وتخفف عنه ما يبذله من عناء، لأنه يجد في العلم مرتعاً يأوي إليه ويرتاح عنده، وبذلك تقوى همَّته في طلب العلم ولا يشبع منه أبداً.

وهذا ما أشار إليه الحديث النبوي الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: (منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال)[2]

وهذا النهم في طلب العلم هو بلا شك دافع للعمل ومغذٍّ للنفس حتى تتزكى وتشفى من أمراضها وتبتعد عن اللذات المحرمة التي تميل إليها النفس الأمارة.

قال الإمام الماوردي : (العلم عوض من كل لذة، ومغنٍ عن كل شهوة... ومن تفرَّد بالعلم لم توحشه خلوة، ومن تسلى بالكتب لم تفُته سلوة... فلا سمير كالعلم ولا ظهير كالحلم)[3] وما أحسن قول الشاعر :

شربتُ العلم كأساً بعد كأس   فما نفد الشراب ولا رويت[4]

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهاني ـ ص/٢١ .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٩٢/١) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في حاشيته على مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي (٨٦/١).

(٣) أدب الدنيا والدين ـ ص/٩٢ .

(٤) الدين الخالص للشيخ صدّيق حسن خان ـ ٢٢٨/٣ .

وقد أورد **الإمام ابن القيم قصة في هذا المجال** عن شيخه الإمام ابن تيمية فقال: (حدثني شيخنا قال: ابتدأني مرض فقال لي الطبيب: إنَّ مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض فقلت له: لا أصبر على ذَلِكَ وأنا أحاكمك إلى علمك، أليس النفس إذا فرحت وسُرَّت قويت الطبيعة فدفعت المرض؟ فقال: بلى، فقلت له: فَإِنَّ نفسي تُسَرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجد راحةً، فقال: هذا خارج عن علاجنا)[1]



ولعل خير ختام نُجمل به ما سبق في موضوع العلم النافع أن نذكر **القول المأثور عن معاذ بن جبل** ﷺ، قال : (تعلموا العلم، فإن تعلُّمه لله خشية، وطلبه عباده، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقه، وبذله لأهله قُربه، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأُنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة وأئمة، تُقتصُّ آثارهم ويُقتدى بأفعالهم ويُنتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلَّتهم وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الإبصار من الظُّلَم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام،

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين –لابن القيم– ص/٨٧

ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يُعرف الحلال من الحرام، هو إمام العمل، والعمل تابعه، ويلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء)[1] .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله للإمام ابن عبد البر ١/٥٥، ومفتاح طريق السعادة للإمام ابن القيم ١/١٢٠، وقد قال الامام ابن القيم بعد أن أورده : (رُوي حديث معاذ من طرق أخرى مرفوعاً إلى النبي ﷺ لكنه لا يصح مرفوعاً، وحسبه أن يصل إلى معاذ رضي الله عنه).

الفصل الثاني

العمل الصالح

ويتضمن تمهيداً وستة مباحث :

المبحث الأول : **الصلاة.**

المبحث الثاني : **الزكاة والصدقات.**

المبحث الثالث : **الصيام.**

المبحث الرابع : **الحج والعمرة.**

المبحث الخامس : **الجهاد بأنواعه.**

المبحث السادس : **النوافل (تلاوة القرآن الكريم، الذكر والدعاء، قيام الليل).**

تمهيد:

الترابط بين العلم النافع والعمل الصالح وثيق جداً، فالعلم الَّذِي لا يثمر العمل ولا يدل عليه ليس علماً نافعاً، والعمل الَّذِي لا يستند إلى أساس من العلم الشرعي والاتباع للكتاب والسنّة لايحظى صاحبه بالقبول الكامل.

ودائرة العمل الصالح واسعة جدًّا تشمل الحياة وما فيها ولا تختص بالشعائر التعبدية، كما تشمل كيان الإنسان كله ظاهره وباطنه، وهذا ما وضحه الإمام ابن تيمية رحمه الله عندما عرَّف العبادة بقوله: (هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة)[1].

كما بيَّن الإمام ابن القيم رحمه الله الصلة الوثيقة بين العلم النافع والعمل الصالح، فقال: (كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق...

كما قال تعالى: **﴿والعصر إِنَّ الإنسان لفي خسر إِلاَّ الَّذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾** (العصر).

أقسم الله سبحانه أَنَّ كُلَّ أحد خاسر إِلاَّ من كمَّل قوَّته العلمية بالإيمان، وقوَّته العملية بالعمل الصالح، وكمَّل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمَّان إِلاَّ بالصبر عليهما والتواصي بهما)[2].

---

(١) العبودية –للإمام ابن تيمية– ص/٥

(٢) مدارج السالكين ٦/١

وقد حفلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالتأكيد على أهمية العمل الصالح في تزكية النفس والسمو بها إلى المنزلة العالية والمقام العظيم، وتحقيق السعادة في الدارين.

قال تعالى: ﴿**من كان يريد العزَّةَ فلله العزَّةُ جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾ (فاطر من الآية ١٠).

وروى مسلم عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن مابين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كُلُّ الناس يغدو فبائعٌ نفسَهُ فمعتقها أو مُوبقها**)[1].

وقد دلَّ هذا الحديث على أنَّ العمل الصالح يزكي النفس ويطهرها، وأَنَّ كُلَّ إنسان إمَّا أن يسعى في هلاك نفسه أو في نجاتها، فمن سعى في طاعة الله فقد باع نفسه لله وأعتقها من عذابه، ومن سعى في معصية الله فقد باع نفسه بالهوان وأوبقها بالآثام الموجِبةِ لغضب الله وعقابه[2].

(١) رواه مسلم -كتاب الطهارة- باب فضل الوضوء- رقم/٢٢٣

(٢) جامع العلوم والحكم -للإمام ابن رجب الحنبلي - ص/١٩٣

فمن أراد أن يعتق نفسه من أسر شهواتها ويخلصها من آفاتها وأمراضها، ويتحرر من العبودية لها، ويحظى بالعتق من النار يوم القيامة، فليكن غدوُّه ورواحه في جميع شؤونه وأحواله مستنداً إلى دين الله، مسترشداً بهداه.

وسأعرض في هذا الفصل أبرزَ الأعمال الصالحة التي تُعدُّ معالم على طريق التزكية، وهي أركان الإسلام وما يتصل بها من نوافل كالصدقة والذِّكر والدعاء وتلاوة القرآن الكريم، كما سأتحدث عن الجهاد وأثره في تزكية النفس، وأما ما عدا ذَلِكَ من أنواع العمل الصالح ومجالاته فَإِنَّ كثيراً منها له صلة وثيقة بالحديث عن ثمار التزكية وبخاصة أعمال القلوب والأخلاق والآداب، ولذلك آثرت أن أجعلَ الحديثَ عنها في موضوعٍ مستقل.

ولنبدأ الآن بالشعيرة الأولى من شعائر الإسلام وهي الصلاة لنرى آثارها العظيمة في تزكية النفس وترسيخ الإيمان:



المبحث الأول

الصلاة

الصلاة عماد الدين ومفتاح الجنة وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من أعماله، ولها في الإسلام منزلة عظيمة وخصائص كثيرة، فهي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي العبادة الوحيدة التي فرضت في السموات العلى ليلة الإسراء والمعراج، وهي العبادة التي شرع لها الأذان وشيدت لها المساجد، كما أنها العبادة الوحيدة التي لا تسقط عن المكلف في حضر ولا سفر، ولا غنى ولا فقر، ولا صحة ولا مرض، ولا أمن ولا خوف.

ولقد أمر الله سبحانه بهذه الفريضة وحض عليها وبين منزلتها في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى : ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين**﴾ (البقرة / آية ٤٣).

وقوله سبحانه: ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين**﴾ (البقرة /آية ٢٣٨).

وقوله عز وجل: ﴿**فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً**﴾ (النساء / آية ١٠٣).

كما وردت أحاديث كثيرة في بيان مكانة الصلاة في الإسلام وفضلها وأحكامها والتحذير من تركها ومن ذلك :

- ما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ قال : سألت النبي ﷺ : (أي العمل

أفضل ؟ قال: الصلاة على وقتها، قال: ثم أي؟ قال: بر الوالدين ، قال: ثم أي؟ قال : الجهاد في سبيل الله)[1].

- وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : (إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر)[2].

ولكن هناك شروطاً لابد من تحققها لكي تؤدي الصلاة دورها في تزكية النفس. من أهمها شرطان :

الشرط الأول: إتمام الصلاة وإتقانها والمحافظة عليها وعدم التهاون فيها، مع أدائها على الوجه المطلوب في الإخلاص والمتابعة للكتاب والسُّنَّة.

ولذلك لَمّا ذكر الله سبحانه صفات المؤمنين الذين لا يصيبهم الهلع في دنياهم جعل من أولى هذه الصفات المداومة على الصلاة ثم ختم تلك الصفات بذكر المحافظة على الصلاة أيضاً.

قال تعالى : **﴿إن الإنسان خُلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه**

---

(١) رواه البخاري - كتاب مواقيت الصلاة - باب فضل الصلاة لوقتها – ١٣٤/١، ومسلم -كتاب الإيمان- رقم/٨٥

(٢) رواه الترمذي في الصلاة - رقم/ ٤١٣، والنسائي ٢٣٢/١، والحاكم ٢٦٣/١، وانظر صحيح الجامع - للألباني - رقم/ ٢٥٧٠ .

الخـــير منوعـــا إلا المصلـــين الذيـــن هـــم علـــى صلاتهـــم دائمـــون﴾ (المعارج/ الآيات ١٩-٢٣)، ثم قال سبحانه: **﴿والذين هم على صلاتهم يحـافظون أولئك في جنات مكرمون﴾** (المعارج /الآيتان ٣٤-٣٥).

- والمحافظة على الصلاة تشمل أمـوراً كثـيرة منهـا : أداؤهـا علـى الوجـه الشرعي والالتزام بأحكامها، وعدم سبق الإمام.

يقول الإمام أحمد رحمه الله في رسالته القيمة عن الصلاة : (مـن العجـب أن يكون الرجل في منزله، فيسمع الأذان، فيقوم فزعاً يتهيأ، ويخرج مـن منزلـه يريد الصلاة لا يريد غيرها، ثم لعله يخرج في الليلـة المطـيرة المظلمـة يتخبـط في الطين، ويخوض الماء وتبتل ثيابه... ولعله مع هذا أن يكون مريضاً ضعيفاً، فـلا يدع الخروج إلى المسجد فيتحمل هذا كله إيثـاراً للصـلاة، وحبـاً لهـا، وقصـداً إليها.. فإذا دخـل مـع الإمـام في الصـلاة خدعـه الشـيطان، فيسـابق الإمـام في الركوع والسجود والرفع والخفض خدعاً من الشيطان له، لما يريد مـن إبطـال صلاته وإحباط عمله، فيخرج من المسجد ولا صلاة له)[1] !!

- كما تشمل المحافظة علـى الصـلاة أداءهـا في أول وقتهـا دون تأخـير أو تهاون، ولذلك قال الله سبحانه : **﴿فويل للمصلين الذين هـم عـن صلاتهـم ساهون﴾** (الماعون / الآيتان ٤-٥).

---

(١) كتاب الصلاة للإمام أحمد بن حنبل - ص/٤١ ـ ضمـن كتـاب / مجموعـة رسـائل في الصلاة ـ طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء بالرياض .

وهذا الويل والوعيد لمن تهاون في صلاته وأخّرهـا عن وقتها المقدّر لها وتكاسل في أدائها[1].

وكم نرى من أناس ينتسبون إلى الإسلام ولا تجد عندهـم أي همـة لأداء الصلاة، وإنما تراهم متكاسلين في أدائها، متثاقلين عنهـا، وكأنها عـبء ثقيـل يريد أن يتخلص منه.

وقد وصف الإمام ابن القيم هؤلاء المتقاعسين وحالتهم النفسية عند أداء الصلاة فقال : (تأمل كيف قال ﷺ "أرِحنـا بـالصلاة"، ولم يقـل أرحنـا منهـا كما يقول المتكلف الكاره لها الذي لا يصليها إلا على إغماض وتكلف، فهـو في عذاب ما دام فيها، فإذا أخرج منها وجد راحة قلبه ونفسه، وذلك أن قلبـه ممتلئ بغيره -أي بغـير ا لله تعـالى- والصـلاة ناطقـة لـه عـن أشـغاله ومحبوباتـه الدنيوية، فهو معذّب بها حتى يخـرج منهـا، وذلـك ظـاهر في أحوالـه فيهـا في نقرها والتفاف قلبه إلى غير ربه، وترك الطمأنينـة والخشـوع فيهـا، ولكـن قـد علم أنه لا بد له من أدائها فهو يؤديها على أنقص الوجوه)[2].

ولقد وصف ا لله حال المنافقين في أدائهم للصلاة تظاهراً بالإسلام، فقـال سبحانه: ﴿**إن المنافقين يخادعون ا لله وهـو خـادعهم وإذا قـاموا إلى الصـلاة قاموا كسالى، يراؤون الناس ولا يذكرون ا لله إلا قليلاً**﴾ (النساء / آية ١٤٢).

ومما يؤسَف له أن بعض المسلمين اليوم يتكاسلون عن الصـلاة، ولا يبـالي

---

(١) ينظر : تفسير ابن كثير ٤/٥٥٥ .

(٢) الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة ـ لابن القيم ـ ص/٥٨ .

أحدهم إذا ضاعت عليه صلاته فلم يؤدها في وقتها، ولكنه يحزن كثيراً إذا ضاعت عليه فرصة مالية أو عمل دنيوي، وينسى قول الرسول ﷺ : (من فاتته صلاة، فكأنما وُتِر أهله وماله) [(١)] أي: نقص أهله وعدِمهم وضاع ماله.

ولاشك أن هذه الحالة التي وصل إليها بعض المسلمين إنما هي بسبب ضعف الإيمان وغلبة الشهوات والإصغاء لوساوس الشيطان والتدرج في التهاون يوماً بعد يوم، حتى قلَّت المبالاة وضاع الاهتمام بهذه العبادة الجليلة، فكيف يُرجى لهؤلاء بعد ذلك أن تؤتي صلاتهم ثمراتها في تزكية النفس ؟!.

الشرط الثاني : الخشوع في الصلاة :

روح الصلاة الخشوع والتدبُّر وحضور القلب، والصلاة بغير خشوع كجسد بلا روح، ولا فلاح للمؤمن إلا بالخشوع في صلاته، كما قال تعالى : ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ (المؤمنون/ الآيتان ١-٢).

وقد عرَّف الإمام ابن عطية الخشوع بقوله : (هو هيئة في النفس يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع) [(٢)] ، فالخشوع في الصلاة يتضمن معنيين - كما قال الإمام ابن تيمية - : أحدهما : التواضع والذل لله، والثاني : السكون والطمأنينة [(٣)] .

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه . (ينظر : موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للهيثمي - ص/٩٤) . وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (رقم /٥٧٦) .

(٢) تفسير ابن عطية ٢٧٨/١ .

(٣) الإيمان للإمام ابن تيمية - ص/٢٤ .

وقد بيَّن الإمام الغزالي منزلة الخشوع وحضور القلب في الصلاة فقال: (إن حضور القلب هو روح الصلاة، وإن أقل ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التكبير، فالنقصان منه هلاك، وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في أجزاء الصلاة، وكم من حي لا حِراك به قريبٌ من ميت، فصلاة الغافل في جميعها إلا عند التكبير كمثل حي لا حِراك به)[1].

فلا تثمر الصلاة ثمراتها في تزكية النفس إلا إذا وجد الخشوع مع بقية الشروط المطلوبة في الصلاة، قال تعالى: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين**﴾ (البقرة / آية ٤٥).

وإذا كان الخشوع في الصلاة ثمرة من ثمرات تزكية النفس، ولا يحظى بالخشوع الكامل إلا من ذاق حلاوة الإيمان، فإن استجلاب الخشوع، وتدريب النفس عليه، ومجاهدة النفس للوصول إليه ضرورة لا بد منها لكي تحقق الصلاة ثمارها في تزكية النفس وصلاح القلب.

فهناك إذَن سببان لنيل الخشوع في الصلاة: أحدهما يُنال بعلاج تدريبي عملي، وهذا ما سنشير إليه في هذه الأسطر، والثاني يناله العبد كثمرة من ثمرات تزكية النفس، فلا يحتاج معها غالباً لمجاهدة نفسه في كل صلاة على الخشوع، وإنما يصبح الخشوع مَلَكَة وخُلقاً وعادة في معظم أحواله.

ولذلك نشير هنا إلى أبرز الأسباب التي لا بد من اتخاذها لمعالجة

---

(١) إحياء علوم الدين ١/١٦١ .

الغفلة واستجلاب الخشوع، وهي :

١ ـ استشعار أهمية الصلاة وأنها صلة بين العبد وربه ومناجاة لخالقه واستجابة لأمره، وراحة لنفس المؤمن وتكفير للسيئات ورفع للدرجات وحاجز عن المعاصي وتشريف للعبد، وهذا ما ذكرناه قبل صفحات، في الآثار التي ينالها المصلي في مجال تزكية النفس.

٢ ـ دفع الخواطر وعدم الانشغال بالأمور التي تسبب هذه الخواطر وتشتت الذهن، وإبعاد كل ما يشغل عن الصلاة من أصوات ومناظر ونقوش وغيرها، وتركيز البصر في موضع السجود وعدم الالتفات أو رفع البصر إلى أعلى، لأن هذا يؤدي إلى الانشغال عن الخشوع، وهو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد.

ـ فعن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت النبي ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال : (هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد)[1].

---

(١) رواه البخاري في صفة الصلاة ـ باب الالتفات في الصلاة - ١٨٣/١، وأبو داود رقم /٩١٠، والنسائي في السهو ـ باب التشديد في الالتفات في الصلاة - ٨/٣ .

ـ وعن أبي ذر الغفاري ﷺ قال : قال النبي ﷺ : (لا يزال الله عزوجل مقبلاً على العبد وهو في صلاته مالم يلتفت، فإذا التفت انصرف عنه) [1].

ـ وقد كان حال السلف الصالح رحمهم الله أن أحدهم إذا قام إلى الصلاة يهاب الرحمن أن يشرد بصره، أو أن يُحدث نفسه بشيء من أمر الدنيا [2].

ولا شك أن أهم ما يدعو إلى حضور القلب في الصلاة الاهتمام بها وإدراك منزلتها، فإن حضور القلب سببه الهمة، فالقلب لا يحضر إلا في الأمر الذي يهتم به، وإذا لم يحضر القلب في الصلاة فإنه سيجول في أمور أخرى تحوز على اهتمامه وتشغل تفكيره.

فلا بد من إبعاد كل سبب خارجي يشغل عن الصلاة مما يؤثر في السمع أو البصر وكل سبب داخلي كالهموم والمشاغل الدنيوية وما شابه ذلك.

وأصل الخشوع لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء، لأنها تابعه له [3].

وقد ورد في الحديث أن الرسول ﷺ قال: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي

---

(١) رواه أبو داود – في الصلاة ـ باب الالتفات في الصلاة ـ رقم /٩٠٩، وصححه الحاكم في المستدرك –١/٢٣٧، ووافقه الذهبي .

(٢) الإيمان – للإمام ابن تيمية – ص/٢٥ .

(٣) الخشوع في الصلاة ـ للإمام ابن رجب الحنبلي ـ ص/٦ .

القلب)[1].

فإذا خشع القلب خشع السمع والبصر والرأس وسائر الأعضاء، ولم ينشغل المسلم عن صلاته بشيء آخر.

٣ - تدبر الآيات التي يتلوها المسلم في صلاته والتفكر في معانيها، ومما يساعد على التدبر حضور القلب وعدم تشتت الذهن ودفع الخواطر، كما أن اختيار بعض الآيات القرآنية التي تقرع المسامع وتهز القلوب وتصور مشاهد الدار الآخرة وأهوالها، وتذكر الإنسان بمصيره.. كل ذلك يساعد على التدبر ويسيل مدامع العيون.

وقد وصف الله عباده المتقين فقال: ﴿**إذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خرُّوا سُجَّداً وبُكِيّاً**﴾ (مريم / من الآية ٥٨).

ولا شك أن مجاهدة النفس على التفكر والتدبر لآيات القرآن الكريم أصل عظيم في موضوع الخشوع، وهذا ما سنعرض له في مبحث مستقل عند الحديث عن تلاوة القرآن الكريم.

٤ - يقين المسلم بأن هذه الصلاة سيسأل عنها يوم القيامة، واستحضاره مشهد الوقوف للحساب، وأنها قد تكون آخر صلاة يصليها في هذه الدنيا، فيتذكر الموت الذي هو نهاية لامفرَّ منها، والقبر الذي هو مسكن

---

(١) من حديث رواه البخاري في كتاب الإيمان - باب من استبرأ لدينه وعرضه - ١٩/١، ورواه مسلم في البيوع - باب أخذ الحلال وترك الشبهات - رقم/١٥٩٩ .

الإنسان بعد موته، فإمَّا أن يكون روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، ويستحضر مشاهد القيامة وأهوالها.

وقد أشارت إلى هذا المعنى الآية الكريمة التي تحض على الخشوع في الصلاة، وهي قوله تعالى : ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين. الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون**﴾ (البقرة / الآيتان ٤٥-٤٦).

فالصلاة كبيرة وثقيلة إلا على الخاشعين الخاضعين لطاعة الله، المصدقين بوعده ووعيده الذين يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة، وأنهم سيقفون بين يديه سبحانه [(١)]، فهؤلاء لما استشعروا الخشية من الله سبحانه واستحضروا مشاهد القيامة وأهوالها سهل عليهم الخشوع في الصلاة وبادروا إلى العمل الصالح، وكلما وقف أحدهم للصلاة حدَّث نفسه أن هذه قد تكون آخر صلاة قبل موته فازداد خشوعه، ومما يؤكد هذا المعنى قول الرسول ﷺ: **(وصلِّ صلاتك وأنت مودِّع)** [(٢)].

وقد سئل حاتم الأصم رحمه الله عن صلاته فقال : (إذا حانت الصلاة

---

(١) ينظر : تفسير ابن كثير ٨٧/١، تفسير ابن عطية ٢٧٨/١، ومعنى يظنون هنا، أي يوقنون ويعلمون، والعرب تسمي اليقين ظناً والشك ظناً، وهذه من الألفاظ التي يسمَّى بها الشيء وضدُّه .

(٢) رواه ابن ماجه -كتاب الزهد- رقم/ ٤١٧١، والإمام أحمد في المسند - ٤١٢/٥، وانظر: الأحاديث الصحيحة للألباني- رقم/٤٠١

أسبغت الوضوء، وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم إلى صلاتي، وأجعل الكعبة بين حاجبي، والصراط تحت قدمي، والجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وملك الموت ورائي، أظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف، وأكبر تكبيراً بتحقيق، وأقرأ قراءة بترتيل، وأركع ركوعاً بتواضع، وأسجد سجوداً بتخشع) (١).

وبقدر توفر الخشوع في الصلاة ينشرح الصدر وتطمئن النفس، وتحقق تلك الصلاة ثمراتها وينال العبد الأجر ويحظى بالمنزلة العظمى عند الله سبحانه.

ولكن عندما يقسو القلب وينشغل بأمور الدنيا وتذهب خشية الله منه، فإن الصلاة تصبح بلا روح، ولذلك ذمَّ الله سبحانه قسوة القلب في أكثر من موضع من آيات القرآن الكريم. فقال تعالى : ﴿**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة**﴾ (البقرة / من الآية ٧٤).

وقال سبحانه : ﴿**فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين**﴾ (الزمر / من الآية ٢٢).

كما دعا الله سبحانه عباده إلى خشوع القلب، ونهاهم عن أن يكونوا كالذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، قال تعالى: ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا**

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ١٥١/١ .

الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ (الحديد /آية ١٦).

ولنختم حديثنا في موضع الخشوع بهذه **الوصية الجامعة** للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، حيث يقول : (رحم الله من أقبل على صلاته خاشعاً خاضعاً ذليلاً لله عزوجل، خائفاً داعياً راغباً وجلاً، مشفقاً راجياً، وجعل أكبر همه في صلاته لربه تعالى، ومناجاته إياه، وانتصابه قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً، وفرَّغ لذلك قلبه وثمرة فؤاده، فإنه لا يدري هل يصلي صلاة بعد التي هو فيها أو يعاجَل قبل ذلك ؟ فقام بين يدي ربه عزوجل محزوناً مشفقاً، يرجو قبولها ويخاف ردَّها، فإن قَبلها سَعِد وإن ردَّها شقي) [١].

وبذلك تكون الصلاة من أعظم الوسائل في تزكية النفس وترقيتها في مقامات القرب من الله سبحانه، كما أنها في الوقت نفسه ميزان ومقياس للنفس المزكّاة، فالخشوع في الصلاة هو المظهر الأرقى لصحة القلب وتزكية النفس، واستجلاب الخشوع هو الذي يُصلح القلب ويمنح الصلاة ثمراتها في التزكية.

(١) كتاب الصلاة – للإمام أحمد بن حنبل ـ ص/٥٧ .

وهكذا تترابط العبادات الإسلامية في وحدة متكاملة تلتقي فيها الغايات والثمرات مع الأساليب والمقدّمات حتى ينال العبد رضاء الله ويحظى بمحبته ويبلغ المنزلة العظمى في تزكية النفس وصلاح القلب، ولنستعرض أبرز الآثار التي ينالها العبد من صلاته في مجال التزكية:

أهمية الصلاة وآثارها في تزكية النفس:

تأتي الصلاة في مقدمة العبادات التي لها أثر عظيم في تقوية إيمان المسلم وتربيته وتحقيق عبوديته لربه عز وجل، ولعل من أبرز آثارها في مجال تزكية النفس ما يلي:

١ ـ الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه:

فالمسلم عندما يقف بين يدي ربه لأداء الصلاة إنما يستجيب لأمر الله ويتقرب إليه بطاعته، ويعلن الخضوع والتذلل له سبحانه ويتشرف بالعبودية له.

وقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الذين استجابوا لأمره، فقال عزوجل: ﴿**والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون**﴾ (الشورى / آية ٣٨).

ولا تتحقق معاني العبودية الصادقة لله سبحانه إلا إذا اقترنت بصدق التوجه إليه والإخلاص له سبحانه، قال تعالى: ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول**

المسلمين﴾ (الأنعام / الآيتان ١٦٢-١٦٣).

فالعبد في صلاته يقف بين يدي ربه موقف العبودية والتذلل والانكسار، ولا يلتفت يميناً أو يساراً، ويتوجه بكليته إلى ربه، ثم يكبر بالتعظيم والإجلال مستحضراً ألا يكون في قلبه شيء أكبر من الله يشغله عنه، ثم يثني على الله سبحانه بما هو أهله، فإذا شرع في القراءة قدّم أمامها الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، فإنه أحرص ما يكون على الوسوسة للعبد في مثل هذا المقام الذي هو أشرف مقامات العبودية [(١)].

ولكل عمل من أعمال الصلاة عبودية خاصة، وتأثير في النفس، فقراءة سورة الفاتحة مع التدبر تشعر العبد بعبوديته لربه، فهو عندما يتلو: **﴿الحمد لله رب العالمين..﴾** يثبت كل كمال لله سبحانه ويحمده على ما وفقه إليه من الطاعة وما أنعم عليه من النعم، ويثني عليه بصفاته وأسمائه الحسنى.

وكذلك عندما يتلو: **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾** يقر بالتوحيد والاستعانة بالله وحده، فالله هو المعبود وهو المستعان، وكل استعانة لا تكون بالله فهي خذلان وذل.

وعندما يقول: **﴿اهدنا الصراط المستقيم..﴾** فهو إقرار من العبد بأنه مفتقر إلى الهداية والثبات على طريق الحق، وأنه محتاج إلى ثمار الهداية

---

(١) الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة والقرآن / للإمام ابن قيم الجوزية - ص/٣١.

والاستزادة منها، والبعد عن سبل المغضوب عليهم والضالين [1]

وعندما ينحني للركوع يكبّر ربه معظماً له ناطقاً بتسبيحه، فيجتمع في هذا الركن خضوع الجوارح وخضوع القلب، ثم يأتي السجود فيجعل العبد أشرف أعضائه وأعزها متذللاً لله سبحانه، ويتبع هذا انكسار القلب وتواضعه فيسجد القلب لربه كما سجد الجسد [2]، وحري به في هذه الحال أن يكون أقرب ما يكون من ربه، وكلما ازداد تواضعاً وخشوعاً لربه في سجوده ازداد قرباً منه، كما في قوله تعالى: ﴿**واسجد واقترب**﴾ (العلق / من الآية ١٩).

وفي الحديث: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء) [3].

وعندما يعتدل جالساً يتمثل جاثياً بين يدي ربه ملقياً نفسه بين يديه مُعتذراً إليه مما جناه راغباً إليه أن يغفر له ويرحمه.

وهكذا تتجلي في كل أفعال الصلاة العبودية لله سبحانه، وإقبال العبد على ربه، وتوحيده وتقوية الإيمان به الذي هو أساس التزكية، وهذه أعظم ثمرة من ثمرات الصلاة، وهي التي تنير للعبد طريق حياته وتمنحه طهارة القلب وطمأنينة النفس، ثم إن تحديد الصلوات بأوقات معينة لا يجوز تجاوزها يدرب

---

(١) ينظر التفصيل في كتاب / الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة ص/٣٥-٤٠.

(٢) ينظر: الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة - لابن القيم - ص/٤٣-٤٦، والخشوع في الصلاة لابن رجب الحنبلي - ص/٢٠-٢٢.

(٣) رواه مسلم - كتاب الصلاة - باب ما يقال في الركوع والسجود - رقم /٤٨٢.

المسلم عملياً على الطاعة والامتثال لأمر الله، وضبط النفس بميزان الشرع وتعويدها على التقيد بأحكام الإسلام دون تهاون، فالصلاة لها أوقات مفروضة، كما قال تعالى: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ (النساء / من الآية ١٠٣).

٢ ـ مناجاة العبد لربه:

الصلاة صلة بين العبد وربه، يستمد منها القلب القوة وتحس فيها النفس بالثبات والطمأنينة، فهي معراج روحي تسمو به روح المؤمن.

وهذا ماجاء في الحديث الذي رواه أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبيﷺ: (إنَّ المؤمن إذا كان في الصلاة فإنما يناجي ربه)[١].

ولعل هذا سر من أسرار تكرار الصلاة المفروضة في اليوم خمس مرات، ينتزع فيها الإنسان نفسه من دنياه وما فيها من أحقاد وصراعات، ويقف بين يدي مولاه لحظات خاشعة يخفف بها عن نفسه من هموم الحياة ومتاعبها، ويغذي الجانب الروحي من كيانه، ذلك الجانب الذي لا يغذيه إلا معرفة الله سبحانه وحسن الصلة به[٢]، ومناجاته بخشوع والتقرب إليه بالعمل الصالح.

ولنتأمل مشهداً من مشاهد هذه المناجاة فيما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الصلاة ١/١٠٧، ومسلم ـ كتاب المساجد ـ رقم /٥٥١.

(٢) العبادة في الإسلام ـ للقرضاوي ـ ص/٢١٦.

وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي.

وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي.

وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجَّدني عبدي.

فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضآلين قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل) [(1)].

ولذلك قال الإمام ابن القيم: (ينبغي للمصلي أن يقف عند كل آية من الفاتحة وقفة يسيرة ينتظر جواب ربه له وكأنه يسمعه) [(2)].

ولا شك أن هذه المناجاة من أعظم أسباب تزكية النفس وتقوية الإيمان، إذا هيأ العبد نفسه لها، ولم ينشغل في صلاته بالتفكير في أمور الدنيا، وإنما أقبل عليها إقبال المتشوق للوقوف بين يدي ربه الوافد عليه، المستمطر لرحمته وفضله، يستمد العون منه سبحانه في كل أموره وأعماله.

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الصلاة ـ باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ـ رقم /٣٩٥.

(٢) الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة ـ لابن القيم ـ ص/٣١.

٣ ـ طمأنينة النفس وراحتها:

إذا أقبل العبد على صلاته بهمَّة ورغبة واستشعر مناجاته لربه وتضرعه بين يديه، فإن تلك الصلاة تمده بقوة روحية وتمنحه طمأنينة النفس وراحتها، وتعينه على مواجهة متاعب الحياة، ولذلك قال الله تعالى موجهاً عباده إلى أهمية الصلاة في تحقيق الراحة النفسية:

﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾ (البقرة / آية ١٥٣).

فالصلاة أكبر عون على مهمات الحياة ومصائبها، يلجأ فيها العبد المكروب إلى ربه فيجد راحته ويحس بتأييد الله له ورحمته به.

فعن حذيفة ﷺ قال: (كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر صلى) [(١)].

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (وجعلت قرة عيني في الصلاة) [(٢)].

وكان الرسول ﷺ يقول: (قم يا بلال فأرحنا بالصلاة) [(٣)].

---

(١) رواه أبو داود في الصلاة رقم / ١٣١٩، والإمام أحمد في المسند ٣٨٨/٥، وانظر: صحيح الجامع للألباني /٤٥٧٩.

(٢) رواه النسائي ٦٢/٧. ورواه أحمد في مسنده (١٢٨/٨،١٩٩،٢٨٥) والحاكم ١٦٠/٢، وصححه وأقره الذهبي.

(٣) رواه أبو داود رقم /٤٩٦٤ ـ ورواه الامام أحمد ٣٦٤/٤ ـ وغيرهما.

أي أقم الصلاة لنستريح بها من مقاساة الشواغل، كما يستريح المتعب إذا وصل إلى مأمنه ومنزله.

وهكذا يشعر المؤمن في صلاته بالسكينة والطمأنينة ويفزع إليها كما يفزع الخائف إلى ركن ركين ومكان أمين.

ولذلك لم تكن الصلوات مقصورة على الفرائض، وإنما هناك سنن ونوافل متنوعة، تزيد من صلة العبد بربه، وتقر بها عينه، وتأمن بها نفسه، حتى تصبح الصلاة سلاحه الدائم والمفتاح لحلِّ همومه ومشاكله.

ولا شك أن المتأمل للحكم العظيمة من صلاة الاستسقاء والخسوف وصلاة الحاجة وصلاة الاستخارة، يدرك الحكمة الربانية في توجيه انفعال الخوف والفزع عند المسلم، وتحقيق الراحة والسكن النفسي للمؤمن الذي كلما واجهه كرب أو أحاط به خوف فزِع إلى الصلاة والتجأ إليها، ولهذا كان السلف الصالح يكثرون من صلوات النوافل وبخاصة في الليل إذا نام الغافلون ولها اللاهون.

ولعل من المفيد هنا الإشارة إلى بعض أقوال علماء النفس الغربيين في الاعتراف بأهمية الصلاة لبث الطمأنينة في النفس وعلاجها من أمراضها.

يقول (ألكسيس كارليل): (إن الصلاة تُحدث نشاطاً روحياً معيناً يمكن أن يؤدي إلى الشفاء السريع لبعض المرضى)[1].

---

(١) الإنسان ذلك المجهول / الكسيس كارليل - ص/١٧٠.

ويقول: (توماس هايسلوب): (إن الصلاة أهم أداة عُرفت حتى الآن لبثّ الطمأنينة في النفوس وبث الهدوء في الأعصاب)[1].

وكلامهم هذا ـ مع أهميته ـ عن صلاة ليست كصلاتنا نحن المسلمين، فماذا كانوا يقولون لو عرفوا ما هية الصلاة التي جاء بها ديننا الإسلامي، وما فيها من آثار عظيمة وفوائد كبيرة.

٤ ـ الصلاة حاجز عن المعاصي:

عندما يؤدي العبد الصلاة وترتاح بها نفسه فإنها تمده بقوة دافعة لفعل الخيرات والابتعاد عن المنكرات، وتغرس في قلبه مراقبة الله عزوجل ورعاية حدوده والابتعاد عن الانحراف، والتغلب على نوازع الهوى، ومجاهدة النفس الأمارة بالسوء، فهي سياج منيع يقيه من الوقوع في المعاصي، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿**وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾ (العنكبوت/ من الآية ٤٥).

وبهذا الأثر العظيم من آثار الصلاة تتبوأ تلك العبادة المنزلة السامية في علاج النفس من أمراضها ، وتطهيرها من عيوبها وتزكيتها بالعمل الصالح، وغرس الأخلاق الفاضلة وحسن المعاملة مع الناس والمسارعة إلى فعل الخير.

ولكن واقع كثير من المسلمين مع الصلاة اليوم مختلف تماماً لأنها تؤدى بالأجساد دون الأرواح، حتى أصبح البعض يشكك في تأثير الصلاة وثمارها،

---

(١) القرآن وعلم النفس / د. محمد عثمان نجاتي ـ ص/٢٥٦.

لأنه قلّما يرى صورة تطبيقية مثمرة لها[1].

٥ ـ الصلاة تكفير للسيئات ورفع للدرجات:

لا يخلو مؤمن من زلة أو هفوة يعصي بها ربه، وهذه المعاصي يتراكم أثرها على القلب حتى يُظلم، ولا بد لها من استغفار وتوبة دائمين.

ومن رحمة الله سبحانه بعباده أنه جعل الأعمال الصالحة تكفيراً للسيئات ورفعاً للدرجات، وبخاصة الصلاة وما يصاحبها من وضوء ومشي إلى المسجد وذكر وتسبيح.

وقد وردت بذلك أحاديث نبوية كثيرة منها:

ـ عن سلمان ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ غصناً يابساً فهزّه حتى تحاتّ ورقه، فقال: يا سلمان ألا تسألني لم أفعل هذا ؟ قلت: ولم تفعله ؟

قال: "إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس، تحاتت خطاياه كما تحاتّ هذا الورق، وقرأ: ﴿**وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين**﴾"[2] (هود /آية ١١٤)).

ـ وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من تطهر في بيته ثم

---

(١) ينظر ما أورده الدكتور: محمد أبو الفتح البيانوني في كتابه: العبادة ـ ص/١٢٧ وما بعدها.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٤/٧٠، ٥/٤٣٧

مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة) [1].

ولا شك أن هذا التكفير خاص بالصغائر التي لا يصرُّ عليها العبد، أما الذنوب الكبائر فلا بد لها من توبة نصوح.

ولذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغشَ الكبائر) [2].

كما أن للصلاة التي يكفّر الله بها السيئات شروطاً لا بد من تحققها، وهي إكمالها وأداؤها بأركانها وخشوعها، وبذلك تثمر محو الذنوب وتكفير الخطايا.

وهذا ما أكده الحديث النبوي عن عثمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يؤتِ كبيرةً، وذلك الدهرَ كله) [3].

وعندما يكرر المسلم الصلاة خمس مرات يومياً ويزيد عليها ما شاء الله أن يزيد من النوافل، يمنُّ الله عليه بالمغفرة مرة بعد مرة، حتى تغسل أدران

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب المساجد ـ باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا ـ رقم /٦٦٦.

(٢) رواه مسلم ـ كتاب الطهارة ـ باب الصلوات الخمس مكفرات ـ رقم /٢٣٣.

(٣) رواه مسلم ـ كتاب الطهارة ـ باب فضل الوضوء ـ رقم /٢٢٨.

ذنوبه فلا يبقى منها شيء.

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)[1].

ولا شك أن المسلم الذي تطهر من الذنوب وحظي بمضاعفة الأجر وزيادة الدرجات، بما حافظ عليه من الصلوات، فإنه يرتقي في مقامات القرب من الله سبحانه، وبذلك تزكو نفسه ويظفر بالفلاح والسعادة.

٦ ـ الصلاة تدريب عملي على مجاهدة النفس:

إذا أراد العبد أن يعوِّد نفسه على الطاعات ويجاهدها حتى يروِّضها ويكسر من حدَّتها فعليه أن يكثر من الصلوات ويحافظ على النوافل ويحرص على التبكير إلى المساجد وإسباغ الوضوء على المكاره والبرد الشديد الذي يشق على النفس، وغير ذلك من الأعمال المتعلقة بالصلاة التي تكبح جماح النفس، طمعاً في القرب من الله سبحانه وتكفير الذنوب ورفع الدرجات.

روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات ؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال:

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب مواقيت الصلاة ـ باب فضل الصلاة لوقتها ـ ١/١٣٤، ومسلم ـ كتاب المساجد ـ باب المشي إلى الصلاة ـ رقم /٦٦٧.

إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط)[1].

٧ـ الصلاة تطهر النفس من الأنانية والأحقاد:

الصلاة في خصوصيتها ـ إذا أُديت كاملة ـ فإنها تغرس في نفس صاحبها ذل العبودية لله وحده وعزة المؤمن القريب من مولاه، فلا يتكبر على مسلم ولا يحقد على غيره لأنه غني بالله سبحانه.

كما أن الصلاة في المسجد تحقق أهدافاً وحكماً عظيمة، فهي تعارف وتآلف بين أبناء الحي الواحد أو البلد الواحد، يصلي المسلم بجانب أخيه في صفوف متراصة، يقف فيها الغني بجانب الفقير، والشاب بجانب الشيخ الكبير، وهذا بلا شك تدريب عملي على تطهير النفس من أنانيتها ونزع آفة التكبر والعجب منها، فالكل عبد ذليل لإله واحد مستحق وحده للعبادة، يتضرع إليه سبحانه ويناجيه، ويغسل أدران ذنوبه بالوقوف بين يديه.

وهذا اللقاء المتكرر يزيد بلا شك الألفة بين المسلمين ويقوي روابط الأخوة، ويوثق العلاقات الاجتماعية، ويحقق التعاون على البر والتقوى، ويعين على تفقد الأخ لأخيه، ويزيل الفوارق المادية بين المسلمين، فهم جميعاً يستقبلون قبلة واحدة يتجهون إليها في صلاتهم، إلههم واحد ونبيهم واحد ودينهم واحد.

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب الطهارة ـ باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره ـ رقم /٢٥١.

وإذا جاء يوم الجمعة كان اللقاء الأسبوعي الذي يتميز بخصائص كثيرة، ففيه خطبة الجمعة التي تعالج مشكلات المسلم وتربطه بربه وتحثه على الاستقامة وتهذّب سلوكه وتوصيه بتقوى ربه.

ولعظيم فضل خطبة الجمعة وآثارها في تكوين شخصية المسلم فقد أمر الهادي البشير ﷺ بالإصغاء إليها وعدم التكلم أثناءها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لَغَوْت) [1].

ثم يأتي اللقاء الأكبر في عيد الفطر وعيد الأضحى ليُظهر المسلمون مشاركتهم بأفراح العيد وابتهاجهم بما أتم الله عليهم من التوفيق للطاعة في الصيام والحج.

وهكذا تتضافر الآثار التربوية والنفسية التي يغنمها العبد المصلي، وتؤدي الصلاة دورها في تزكية النفس وطهارتها، ويتحقق قول الرسول ﷺ الذي سبقت الإشارة إليه في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، حيث قال ﷺ: (**والصلاة نور**)[2].

فهي نور تضيء لصاحبها طريق الهداية وتحجزه عن المعاصي وتهديه إلى العمل الصالح.

---

(١) رواه البخاري - كتاب الجمعة - باب الانصات يوم الجمعة والإمام يخطب - ٢٢٤/١.

(٢) الحديث رواه مسلم - رقم / ٢٢٣.

وهي نور في قلبه بما يجد من حلاوة الإيمان ولذة المناجاة لربه.

وهي نور بما تمنح النفس من تزكية وطمأنينة وراحة وبما تمدُّها من أمن وسكينة.

وهي نور ظاهر على وجه المقيم لها في الدنيا، تتجلّى بها وضاءة الوجه وبهاؤه بخلاف تارك الصلاة.

وهي نور له يوم القيامة [1]: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ذلك هو الفوز العظيم﴾ (الحديد / آية ١٢).



---

(١) أشار إلى هذه المعاني الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم ٣/١٠٠، والإمام ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ص/١٩٠.

المبحث الثاني

الزكاة والصدقات

الزكاة ركن من أركان الإسلام، وهي اسم لما يجب على المسلم أن يخرجه من ماله إلى الفقراء بالشروط التي حددها الإسلام، وسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات، فاللفظ مأخوذ من الزكاء وهو النماء والطهارة والبركة[1].

قال تعالى: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**﴾ (التوبة / من الآية ١٠٣).

ومن هنا ندرك الصلة الكبيرة بين هذا الركن من أركان الإسلام، وبين ما نتحدث عنه من تزكية النفس، فالزكاة وما يتبعها من الصدقات تُعد وسيلة لهذه التزكية، كما أنها أيضاً وسيلة ينال بها العبد رضا الله سبحانه.

ولأهمية الزكاة فقد ذكرت في آيات القرآن الكريم مقرونة بالصلاة، وذلك في اثنتين وثمانين آية، منها قوله تعالى: ﴿**فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة فإخوانكم في الدين**﴾ (التوبة / من الآية ١٢).

وقوله سبحانه: ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين**﴾ (البقرة / آية ٤٣).

---

(١) ينظر: لسان العرب، ١٤ /٣٥٨.

وقوله عز وجل: ﴿**الذين إن مكنّـاهم في الأرض أقـاموا الصـلاة وآتـوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر و لله عاقبة الأمور**﴾ (الحج / آية ٤١).

والزكاة في الإسلام فريضة لازمة يكفر من جحدهـا ويفسـق مـن منعهـا دون إنكار لها، وهي جزء مهم من نظام الإسـلام الاقتصـادي الـذي عـالج مشـكلة الفقر بل مشكلة المال عموماً، وهي حق الفقـير وليسـت تفضـلاً مـن الغـني أو تبرعاً منه [1]، ولها أحكام شرعية تفصِّل مقاديرهـا ومصارفهـا وتبيِّـن شـروطها وآدابها.

وكما أمر الإسلام بالزكاة وجعلها فرضاً لازماً فقد رغَّـب في الصدقـات التي هي تطوع ونفل يزداد بها العبد تقرباً إلى ربه سـبحانه، وكلمـا أكـثر مـن تلك الصدقات وسارع إلى البذل والإنفـاق كـان ذلـك تطهـيراً لنفسـه ومالـه وتزكية له ومضاعفة لأجره عند ا لله سبحانه.

ولذلك حض الإسلام على هذه الصدقات ودعا إلى التنـافس فيهـا ابتغـاءً للأجر العظيم ومضاعفة للثواب من ا لله ذي الخير العميم.

قال تعالى: ﴿**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل ا لله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سـنبلة مائـة حبـة وا لله يضـاعف لمـن يشـاء وا لله واسـع عليم**﴾ (البقرة / آية ٢٦١).

وفي الحديث عن عدي بن حاتم ﷺ قال: سمعت رسـول ا لله ﷺ يقـول:

---

(١) العبادة في الإسلام للقرضاوي - ص/٢٣٩.

(اتقوا النار ولو بشقِّ تمرة) [1].

وبذلك تتسع دائرة الصدقات فلا يختص بها الأغنياء الموسرون، وإنما تشمل حتى الفقير الذي يسارع إلى التصدق على من هو أفقر منه ولو بشق تمرة يقتطعها من طعامه ويؤثر بها غيره، طلباً لرضاء الله سبحانه وعلاجاً لنفسه من آفاتها، بل إنه إن لم يجد مالاً فليتصدق ببذل العون لإخوانه.

روى البخاري عن أبي بردة عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: (على كل مسلم صدقة، فقالوا: يا نبي الله فمن لم يجد ؟ قال: يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف، قالوا: فإن لم يجد ؟ قال: فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة) [2].

* ولكن الزكاة والصدقات لا تثمر ثمراتها في تزكية النفس إلا إذا تحقق فيها شرطان:

الشرط الأول: البعد عن الرياء والتباهي والمنِّ على الفقير:

فالمتصدق عندما يتباهى بصدقته ويرائي بها أمام الناس ويمُنُّ بها على الفقراء محتقراً لهم ومتعالياً عليهم، ويرى نفسه أنه محسن متفضل، فإن هذا يبطل الصدقة ويضيع أجرها ويُذهب الآثار والثمرات المرجوَّة منها في تزكية النفس، بل يجعل

---

(١) رواه البخاري في الزكاة ـ باب اتقوا النار ولو بشق تمرة ٢ /١١٤، ورواه مسلم في الزكاة ـ باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ـ رقم /١٠١٦.

(٢) رواه البخاري في الزكاة ـ باب صدقة الكسب ـ ١٢١/٢.

صاحبها متعرضاً لسخط ا لله وعقوبته.

قال تعالى: **﴿يـا أيهـا الذين آمنـوا لا تبطلـوا صدقـاتكم بـالمن والأذى كـالذي ينفـق مالـه رئـاء النـاس ولا يؤمـن بـا لله واليـوم الآخـر﴾** (سورة البقرة/ من الآية ٢٦٤).

وقال سبحانه مبيِّناً أن أجر الصدقة وثوابها لا يناله إلا من أخلص فيها وخلَّصها من المنِّ والأذى: **﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل ا لله ثم لا يُتبعون ما أنفقوا منّـاً ولا أذىً لهم أجرهـم عنـد ربهـم ولا خـوف عليهـم ولا هـم يحزنون﴾** (سورة البقرة / آية ٢٦٢).

وأصل المنِّ أن يرى المتصدق نفسه محسناً إلى الفقير ومنعماً عليـه، مـع أن الفقير هو المحسن بقبوله هـذه الصدقـة الـتي هـي سـبب تزكيـة نفـس المتصـدق وتطهير ماله ونجاته من النار، وا لله سبحانه هـو المحسـن الحقيقـي الـذي تكفـل برزق عباده، وأودع هذا المال عند الغني ليؤدي للفقير حقه منه.

فليحذر المتصدق من آفة الرياء ، وليعلم أنه سيقف بين يدي ربـه ليُسـأل عن صدقته هل أخلص فيها ؟ أم تباهى بها لكي ينال ثناء الناس وإعجابهم ؟

روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قـال سمعـت رسـول ا لله ﷺ يقـول: (إنَّ أول الناس يقضى عليه يوم القيامة...) وذكر منهـم: (ورَجُـلٌ وسَّع ا لله عليـه وأعطاه من أصناف المال، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيهـا ؟ قال: ما تركتُ مـن سـبيل تُحـبُّ أن يُنفـق فيهـا إلا أنفقـت فيهـا لـك. قـال: كذبت، ولكنك فعلتَ ليقال جواد، وقد قيل، ثم أُمر به فسُحب علـى وجهـه

ثم أُلقي في النار)[1].

ولذلك حثنا ا لله سبحانه على صدقة السر، وجعلها أعظم أجراً من صدقة العلن لما فيها من البعد عن الرياء فقال تعالى: ﴿**إن تبدوا الصدقات فنِعِمَّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم وا لله بما تعملون خبير**﴾(سورة البقرة / آية ٢٧٠).

كما بين ا لله عز وجل أن من تصدق طلباً لمرضاة ربه، وتثبيتاً لنفسه على الإيمان، ويقيناً بما أعده ا لله له من الجزاء الأوفى، فقد استحق مضاعفة الأجر، ومثل صدقته كمثل بستان عظيم في ربوة من الأرض الخصبة إذا أصابها المطر تضاعف ثمرها، وإن لم يصبها المطر فإن القليل من السقاية يكفيها لتثمر، فصدقة المؤمن لا تضيع أبداً لأن ا لله تعالى يتقبلها وينميها ما دامت خالصة له سبحانه.

قال تعالى: ﴿**ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات ا لله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطَلّ وا لله بما تعملون بصير**﴾ (سورة البقرة / آية ٢٦٥).

والوابل هو المطر الشديد، والطَّل: الرذاذ من المطر[2].

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب الإمارة ـ باب من قاتل للرياء والسمعة ـ رقم/١٩٠٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣١٩/١.

الشرط الثاني: أن ينفق مما يحب وليس مما يكره، وأن تكون نفسه راضية غير كارهة.

ومصداق ذلك قوله تعالى: **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾**(آل عمران / آية ٩٢).

فالبر الذي هو جماع الخير لا يُنال إلا بأن يبذل المسلم ما يحبه من المال سخيَّة بذلك نفسه وبذلك يتحرر من العبودية للمال ومن شح النفس وحب الذات، وهي آفات خطيرة تعوق مسيرة التزكية وتقف في طريقها.

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يسارعون إلى بذل المال في سبيل الله والتصدق بأطيب ما يملكون رجاء ما عند الله من الأجر العظيم.

روى البخاري عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: " كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً... فلما نزلت هذه الآية: **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾** قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: **﴿لن تنالوا البر حتى تنففقوا مما تحبون﴾** وإن أحب أموالي إليَّ بَيْرُ حاء، وإنها صدقة لله أرجو بها برَّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله.

فقال النبي ﷺ: بَخٍ بَخٍ[1]، ذلك مال رابح ذلك مال رابح، وقد سمعت،

---

(١) كلمة تقال عند الرضى بالشيء.

وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين) [1].

وقد أمر الله عباده أن ينفقوا من الكسب الطيب وحذّرهم من التصدق برديء المال وخبيثه فقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تُغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد**﴾ (سورة البقرة / آية ٢٦٧).

ومعنى ﴿**ولا تييموا الخبيث**﴾ أي: تقصدوه بالانفاق وتتركوا غيره.

ومعنى ﴿**ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه**﴾ أي: إنكم لو أُعطيتموه لما قبلتم أخذه إلا بإنقاص قيمته والتهوين من شأنه وإغماض العين عن قبوله فكيف تتقربون إلى ربكم بإنفاق مالا ترضونه لأنفسكم [2]؟ وهو سبحانه غني عنكم ولا يتقبل إلا ما كان طيباً، يبذله المتصدق عن طيب نفس، ويصدر عن رضاً وفرح بالبذل وليس عن كراهية وتأفف.

وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال: (من تصدّق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها

(١) رواه البخاري في الزكاة ـ باب الزكاة على الأقارب ٢/١٢٦ .

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ١/٣٢١.

بيمينه، ثم يربيّها لصاحبها كما يربّي أحدكم فُلُوَّهُ حتى تكون مثل الجبل)[1].

آثار الزكاة والصدقات في تزكية النفس:

الزكاة تزكية وتطهير لنفس الغني وماله، كما أنها تزكي نفس الفقير وتطهرها من آفاتها، وبذلك استحقت هذه العبادة الجليلة أن يشتق لها اسم من التزكية فتسمى زكاة، ولكي تتأكد هذه الصلة الوثيقة بين الزكاة والتزكية نستعرض أبرز آثار الزكاة في تزكية النفس وأهميتها كوسيلة عملية من وسائل التزكية التي ترتقي بالعبد حتى يبلغ منزلة المتقين.

١ ـ الزكاة اختبار عملي لاستجابة المؤمن لأمر ربه:

فالله سبحانه هو الخالق الرازق، وهو المنعم المتفضل، وهو المالك الحقيقي الذي وهب للإنسان هذا المال وجعله وديعة بين يديه ينفقه في مرضاة مولاه، ويؤتي الفقير حقه الواجب منه، قال تعالى: ﴿**وآتوهم من مال الله الذي آتاكم**﴾(النور / من الآية ٣٣). وقال سبحانه: ﴿**وأنفِقوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيه**﴾ (الحديد: من الآية ٧).

وقد جعل الله هذا المال اختباراً لعباده وامتحاناً لاستجابتهم واستقامتهم على أمر ربهم وهذا ما أوضحه قوله سبحانه: ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾ (التغابن / من الآية ١٥) ، أي: اختبار وامتحان.

---

(١) رواه البخاري في الزكاة ـ باب الصدقة من كسب طيب ـ ١١٣/٢، والفلوُّ: المهر =

فـــالغني ممتحـــن بغنـــاه، والفقـــير ممتحـــن بفقـــره، والمـــال مال الله سبحانه، والعبد مستأمَنٌ عليه، ومع ذلك فقد امتنَّ الله على عباده فسمَّى ما ينفقه المسلم ويتصدق به قرضاً يقرضه لربه سبحانه، قال تعالى: **﴿من ذا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾** (التغابن / من الآية ١٧).

وقال سبحانه: **﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾** (التوبة / من الآية ١١١).

وهكذا تحقق الزكاة أهدافها في تقوية الإيمان وتعميق عقيدة التوحيد في النفس التي هي الأساس الأول للتزكية، وتكون الزكاة برهاناً على إيمان صاحبها واستجابته لأمر الله سبحانه، وهذا مصداق قول الرسول ﷺ: (والصدقة برهان) [(١)].

٢ ـ تطهير النفس من آفة الشح:

النفس مجبولة على حب المال والتعلق به والبخل في إنفاقه وطلب الزيادة منه، وقد قال تعالى واصفاً هذه الطبيعة من طبائع النفس الإنسانية: **﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾** (العاديات / آية ٨) والخير هنا بمعنى المال.

فالزكاة طهارة من الشح والبخل، وتدريب عملي على البذل والعطاء

يفصل عن أمه.

(١) رواه مسلم رقم /٢٢٣

وحب الخير للناس، وعدم التعلق بالدنيا والتنافس على حطامها، وإنما يكون ميدان التنافس في بذل المال وإنفاقه ابتغاء رضوان الله، وهذا هو الباقي الذي يجد العبد جزاءه يوم القيامة.

والله سبحانه يحذرنا من آفة البخل والشح، ويجعل الفلاح مرتبطاً بالتخلص من هذه الآفة وتطهير النفس منها.

يقول تعالى: **﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾** (الحشر / الآية ٩).

ويقول سبحانه: **﴿ها أنتم هؤلاء تُدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخلُ ومن يبخلْ فإنما يبخلُ عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾** (محمد / الآية ٣٨).

ويبين الرسول ﷺ خطر الشح في إيقاع العداوة وتأجيج نار الخصومة واستباحة الدماء وظلم العباد، ففي الحديث عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حَملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلُّوا محارمهم)[1].

وعندما يلمس المسلم في نفسه شيئاً من البخل والشح فعليه أن يسارع إلى الصدقات ليعالج بذلك مرض نفسه ويخلّصها من هذه الآفة، وبذلك يحظى

---

(١) رواه مسلم - كتاب البر والصلة والأدب - باب تحريم الظلم - رقم /٢٥٧٨.

بالأجر العظيم.

وقد أشار الرسول ﷺ إلى ذلك في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أيُ الصدقة أعظم أجراً ؟ قال: أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تُمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلتَ لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان)[1].

ومما يزيد من مسارعة العبد إلى الزكاة والصدقات وتنافسه في البذل والعطاء وتخلصه من آفة الشح المهلكة، أن يعلم أنه بهذا الإنفاق ينفع نفسه، وأنه محتاج إلى بذل المال والتصدق به ابتغاء وجه الله سبحانه لكي يطهِّر نفسه ويزكيها ويحظى بثواب الله وإحسانه في الآخرة.

قال تعالى: ﴿**وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون**﴾ (سورة البقرة من الآية /٢٧٢)

٣ـ تطهير نفس الفقير وتزكيتها:

ليست الزكاة تطهيراً وتزكية لنفس الغني فحسب، وإنما هي تطهير لنفس الفقير إذا أُديت بشروطها وآدابها، فكما أن الغني يتطهر من آفة الشح والبخل، فإن الفقير يتطهر من آفة الحسد والضغينة علىالأغنياء، لأن النفس

---

(١) رواه البخاري في الزكاة ـ باب أي الصدقة أفضل ٢/١١٥.

التي تنظر إلى أصحاب الأموال وقد حُرمت من ضروريات الحياة قد تحمل الضغينة والحقد وتتوقد حسداً وكراهية لأولئك الأغنياء الذين يكنزون الأموال ويتقلبون في ألوان النعم وغيرهم يعاني من الحرمان.

فإذا أدى الأغنياء الزكاة، وأكثروا من التصدق، ولم يُشعروا الفقراء بالمنة والتفضل، وتسابقوا إلى تفقد أحوال إخوانهم الفقراء وبذل المال لهم، وانتشرت مظاهر التراحم والتعاطف في المجتمع، فإن هذا يزيد روابط الأخوّة، ومن شأن الإحسان أن يستميل القلب وينزع الضغائن.

وقد بيّن الله سبحانه أثر الزكاة والصدقات في تطهير النفس من الضغائن.

فقال عز وجل: ﴿**إنما الحياة الدنيا لعب ولهوٌ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم، إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم**﴾ (محمد / الآيتان ٣٦،٣٧).

وقد بين ابن كثير رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ولا يسألكم أموالكم**﴾ فقال: (أي: هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء ليعود نفع ذلك عليكم ويرجع ثوابه إليكم)[1].

ومعنى ﴿**فيحفكم**﴾ أي يحرجكم، وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**ويخرج أضغانكم**﴾ أورد ابن كثير قول قتادة: (قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الضغائن).

ثم قال: (وصدق قتادة، فإن المال محبوب، ولا يُصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه) [1].

وبذلك تكون الزكاة والصدقات وسيلة عملية لتطهير القلب من آفات الحسد والحقد والضغينة، وتنمية شخصية الفقير وثقته بنفسه وشعوره بالعزة والكرامة، وإحساسه بأنه ليس ضائعاً في المجتمع ولا متروكاً لضعفه وفقره [2].

والإسلام يحرص كثيراً في عباداته وأحكامه على تقوية روابط الأخوة وتعميق صلات المحبة بين المسلمين، حتى يكون المجتمع كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، وعندما تضاف إلى رابطة الأخوّة رابطة أخرى هي القرابة والرحم فإن نصوص الكتاب والسنة تؤكد على ضرورة تقوية هذه الرابطة، والتحذير من تقطيع أواصرها أو التهاون في شأنها، ولذلك كانت الصدقة على الأقارب والأرحام الفقراء أولى وأعظم أجراً ينال بها العبد أجر الصدقة وأجر صلة الأرحام، كما جاء في الحديث أن الرسول ﷺ قال: (الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان: صدقة وصلة) [3].

(١) تفسير ابن كثير ١٨٣/٤.

(٢) العبادة في الإسلام للقرضاوي ـ ص / ٢٦٠.

(٣) رواه الترمذي في الزكاة ـ باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة ـ رقم /٦٥٨، وقال هذا حديث حسن،ورواه النسائي في الزكاة ـ باب الصدقة على الأقارب – ٩٢/٥، وابن ماجه في الزكاة رقم /١٨٤٤ .

وإذا كانت هناك خصومه بين المسلم وأحد أقربائه الفقراء فلا ينبغي له أن يمتنع عن مساعدته، بل عليه أن يحرص على ذلك أكثر لأن الأجر فيها أعظم، ولعل هذه الصدقة تكون سبباً في ذهاب الخصومة وصفاء النفوس وتآلف القلوب.

وهذا ما أوضحه النبي ﷺ بقوله: (أفضل الصدقة: الصدقة على ذي الرحم الكاشح)[1]، أي المضمر للعداوة.

ولا شك أن الصدقة بهذه الكيفية وسيلة عظيمة لعلاج أمراض النفوس وتطهيرها من آفاتها وأمراضها، وغرس الصفات المحمودة فيها، فهي طهارة لنفس الغني من الشح والبخل والتعالي على الناس، وهي كذلك طهارة لنفس الفقير من العداوة والحسد والأحقاد، وهي ثالثاً طهارة للمال من دنسه وتنمية له[2]، فالزكاة تخلية للنفس من الرذائل وتحلية لها بالفضائل.

وصدق الله العظيم القائل: **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾** (التوبة/ من الآية ١٠٣).

٤ ـ شكر النعمة ومعرفة قدرها:

الزكاة والصدقات مظهر عملي يُشعر بشكر النعمة التي أنعم الله بها على

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٣/٤٠٢، ٥/٤١٦، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢/٣٨).

(٢) العبادة في الإسلام للقرضاوي ـ ص/٢٥٩.

عباده، وبذلك ينمو في النفس الشعور بقيمة النعم وتقديرها، ووجوب الشكر عليها بالقول والعمل، وبخاصة عندما يقارن صاحب المال حاله بما يجده من أحوال الفقراء المعدمين الذين ابتلوا بالفقر والبؤس، ولولا أنه مكلّف شرعاً بتفقد أحوالهم ومساعدتهم لما أدرك عظيم النعمة التي هو فيها، وإنما يبقى مشغولاً بما يحيط به من المال والتجارات حتى يعتاد هذه النعم ويقل شعوره بفضل المنعم، مما يدفعه إلى التراخي في العبادات والتكاسل عن الطاعات.

وكما أن الصحة لا تُدرك قيمتها كاملة إلا بالإصابة بالمرض أو رؤية أحوال المرضى، فكذلك الغنى لا تُدرك قيمته إلا برؤية أحوال الفقراء والنظر في أوضاعهم، وهذا يدفع المسلم الذي وسَّع الله عليه بالمال أن يشعر بالتقصير في حق الله عز وجل وأن يسارع إلى المزيد من الإنفاق شكراً لله على هذه النعمة.

وقد وعد الله عباده الشاكرين بزيادة النعم والبركة فيها.

قال تعالى: **﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾** (إبراهيم/ آية ٧).

والزكاة التي هي في الحساب المادي نقص في المال، هي في الحقيقة نماء وزيادة وبركة، وأما الربا التي يسعى صاحبها إليها طلباً للزيادة في المال فهي في حقيقة الأمر نقص وسحت ومحق وهلاك.

قال تعالى: **﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾** (البقرة / من الآية ٢٧٦).

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ما نقص مال

من صدقة)[1].

وعنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تَلَفاً)[2].

وهكذا يتم علاج آفة الشح والبخل من نفس المسلم، ويسارع إلى الإنفاق موقناً بفضل الله ووعده الذي لا يتخلف بالرزق الواسع، وقد قال سبحانه: ﴿**وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين**﴾ (سبأ / من الآية ٣٩)، وتستقيم النظرة إلى المال في حسِّ المسلم فهو عنده وسيلة ينال به رضى الله سبحانه وليس غاية يتعلق به ويشقى لجمعه وكنزه.

وعندما تتطهر النفس من آفاتها وتتحلى بالفضائل تثمر أعظم الثمرات في سعادة الدنيا والقناعة والرضا بما قسم الله من رزق، والفلاح في الآخرة.

ولنختم الحديث في هذا المبحث بوصية الإمام ابن الجوزي رحمه الله حيث قال: (ينبغي للمتيقظ أن يفهم المراد من الزكاة، وذلك ثلاثة أشياء:

أحدها: الابتلاء بإخراج المحبوب.

والثاني: التنزه عن صفة البخل المهلك.

والثالث: شكر نعمة المال، فليتذكر نعمة الله عليه إذ هو المعطي

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة ـ باب استحباب العفو والتواضع ـ رقم /٢٥٨٨.

(٢) رواه البخاري في الزكاة ـ باب قوله تعالى: ﴿ **فأما من أعطى واتقى** ﴾ ٢/١٢٠.

سبحانه).

ثم قال: (ولا يبطل صدقته بالمنِّ والأذى، وليعط الفقير بانشراحٍ ولُطف حتى كأن الفقير هو الذي يُنعم بما يأخذه)[1].

وهكذا تؤدي الزكاة والصدقات دورها في تزكية النفس واستقامة السلوك وإصلاح الفرد والمجتمع.



---

(١) التبصرة - للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي - ٢/٢٥٠.

المبحث الثالث

الصيام

فَرَض ا لله تعالى الصيام على هذه الأمة وجعله ركناً من أركان الإسلام، كما فرضه على الأمم السابقة، وفي ذلك تأكيد على أهمية هذه العبادة الجليلة ومكانتها.

قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾ (البقرة/ آية ١٨٣).

كما امتدح ا لله سبحانه شهر الصيام، واختصه من بين سائر الشهور لإنزال القرآن العظيم، فقال عز وجل: ﴿**شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾ (البقرة/ من الآية ١٨٥).

والصيام الذي أمر ا لله به هو الإمساك عن الطعام والشراب والجِماع بنية خالصة لله سبحانه [1]، وذلك من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، مع الالتزام بما ورد في الكتاب والسنة من أحكام الصيام والحرص على آدابه واستشعار المعاني العظيمة التي شرع الصيام من أجلها.

وقد وضّحت الآية الكريمة الثمرة العظمى التي يحظى بها الصائمون

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٢١٣.

المخلصون، ألا وهي بلوغ درجة التقوى: ﴿**لعلكم تتقون**﴾، فالصيام مدرسة فريدة، ودورة تدريبية للنفس، حتى تنخلع من آفاتها وتتحلى بالفضائل، وترتقي في مدارج التقوى والصلاح.

قال الإمام الفخر الرازي: (بيّن الله سبحانه أن الصوم يورث التقوى لما فيه من انكسار الشهوة وانقماع الهوى فإنه يردع عن الأشر والبطر والفواحش، ويهوِّن لذات الدنيا) [1].

وإذا كان الطعام والشراب غذاء للجسد فإن الصيام غذاء للروح، حيث يتحرر المسلم من سلطان غرائزه، ويتغلب على نزعات شهواته، ويقوى الجانب الروحي ويسمو، ويعرف الإنسان قيمة نفسه، وأنه ينبغي له ألا يُخضع أشواق روحه لمطالب جسده، لأن الجسد بيت والروح صاحبه وساكنه، وما أعجب حال من يهمل مطالب روحه ويُعنى بجسده، ولا يفكر إلا في إشباع غرائزه فهو كمن يعتني بجدران البيت ويهمل السكان [2].

وقد وصف الداعية الشيخ أبو الحسن الندوي حال هؤلاء الأسارى لشهوات أجسادهم فقال:"إذا ملك الجسد زمام الحكم استرسل الإنسان في لذاته وشهواته، ورتع فيها رتع البهائم السائمة.. فيصبح وهو في أوج مدنيته وحضارته ، وقمة علمه وثقافته، كحمار الطاحون أو كثور الحرث يدور بين المطعم والمرحاض.. لا يعرف سوى ذلك مبدءاً ومعاداً.. ويزول عنه كل همٍّ

---

(١) تفسير الفخر الرزاي ٧٦/٥.

(٢) ينظر: العبادة في الإسلام للقرضاوي – ص/٢٧٣-٢٧٤.

إلا هم الكسب ليأكل، والأكل ليكسب، ولا تصوير أدق وأصدق من تصوير القرآن المعجز: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (محمد / من الآية ١٢)، وما ذاك إلا طبيعة الجسد الذي تحرر من سلطان الروح، وحُرم توجيه النبوة وإرشادها وانقاد للنفس والهوى" [(١)].

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته   أتطلب الربح مما فيه خسران ؟

أقبل على النفس واستكمل فضائلها   فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ولذلك كان الصوم وسيلة عظمى لتزكية النفس وتحريرها من سلطان الغرائز، وإذا كان الامتناع عن الطعام والشراب يبدو في ظاهره عملاً سلبياً فهو في حقيقته عمل إيجابي نفسي إرادي له ثقله في ميزان الحق والقبول عند الله سبحانه [(٢)].

---

(١) الأركان الأربعة – للشيخ أبي الحسن الندوي ـ ص/١٨٢.

(٢) العبادة في الإسلام – للقرضاوي ص/٢٧١.

***ولكي يؤدي الصيام دوره في تزكية النفس لا بـد أن يتحقـق فيـه هذان الشرطان:**

الشرط الأول: أن يكون الصيام إيماناً واحتساباً:

الصوم عبادة وليس عادة، ولذلك لا بد له من النية الخالصة لله سبحانه، والرغبة في نيل الأجر والتقرب إلى الله تعالى، وأن يوطّن الصائم نفسه على استشعار حقيقة الصوم ومراقبة الله تعالى في تلك العبادة حتى ينال الأجر العظيم منه سبحانه.

ولذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَن صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدَّم من ذنبه)[1].

قال الحافظ ابن حجر في معنى هذا الحديث: (المراد بالإيمان: الاعتقاد بحق فرضية صومه، وبالاحتساب: طلب الثواب من الله تعالى، وقال الخطابي: احتساباً أي عزيمة، وهو أن يصومه على معنى الرغبة في ثوابه، طيبةً نفسه بذلك غير مستثقل لصيامه ولا مستطيلٍ لأيامه)[2].

ولذلك لا ينال ثمرة الصوم ويحظى بفضائله إلا من جعل صيامه لله سبحانه وأقبل عليه بمحبة ورغبة، أما من يرى الصيام عبئاً ثقيلاً، ويشغل نهاره

---

(١) رواه البخاري في الصوم ـ باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ٢/٢٢٨، ومسلم في صلاة المسافرين باب الترغيب في قيام رمضان ـ رقم /٧٥٩.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤/١١٥.

بالكسل وتوافه الأمور لكي تنقضي ساعات الصيام، وتراه يحسب الأيام حتى يتخلص من شهر رمضان ليعود إلى إطلاق العنان لشهوته، فليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ولا حظ له فيما وعد الله به عباده الصائمين من مغفرة الذنوب، ولن يكون صومه مدرسة تدريبية لمجاهدة النفس وتزكيتها، لأنه لم يتغير عنده إلا مواعيد الطعام، بل إن شغله الشاغل في أيام رمضان التفكير في ألوان المأكولات وأصناف الأطعمة والحلويات التي يملأ بها مائدة الإفطار ويُتخم بها معدته حتى لا يقوى على القيام، وكأنه كان أسيراً فانفكّ قيده في لحظة الإفطار!!

ولو تأملنا آداب الصيام التي حضّ عليها الرسول ﷺ لوجدنا أنها تهدف إلى إشعار المسلم بمعاني تلك العبادة الجليلة وتعويده على ترويض نفسه وامتثالها لأمر الله سبحانه، ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك:

١ ـ تعجيل الفطر

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا يزال الناس بخير ما عجّلوا الفِطر)[(١)].

ولا شك أن في هذا تعويداً للنفس على الامتثال الدقيق لأمر الله تعالى وخضوعها وانقيادها له سبحانه في حالتي الصيام والإفطار، فإذا دخل وقت

(١) رواه البخاري في الصوم ـ باب تعجيل الفطر ٢/٢٤١، ومسلم في الصيام ـ باب فضل السحور ـ رقم/١٠٩٨.

الإفطار بادر الصائم إلى شيء من الطعام أو الشراب دون تأخير أو تراخٍ، لأنه يطيع أمر الله بإفطاره كما أطاعه بالصيام لينال محبته والقرب منه سبحانه.

ولذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: أحبُّ عبادي إليَّ أعجلهم فطراً» [1].

وقد أشار الإمام ابن رجب الحنبلي إلى ذلك فقال: «الصائم ترك شهواته لله بالنهار تقرباً إلى الله وطاعة له، ويبادر إليها في الليل تقرباً إلى الله وطاعة له، فما تركها إلا بأمر ربه ولا عاد إليها إلا بأمر ربه، فهو مطيع له في الحالين، ولهذا نهى عن الوصال في الصيام» [2].

٢ ـ الإفطار على تمرات:

عن سلمان بن عامر الضَّبِّي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر فإنه بركة فمن لم يجد فليفطر على ماء فإنه طهور» [3].

وبهذا يشعر الصائم أن الإفطار لا يُقصد منه ملء البطن والتعويض عما فقده بالجوع، وإنما هي تمرات وشربة ماء ولقيمات ينتقل بعدها إلى أداء الصلاة، ويكون شغله في تلك الساعة الإقبال على عبادة ربه وشكره على ما

---

(١) رواه الترمذي في الصوم ـ باب ما جاء في تعجيل الافطار ـ رقم ٧٠٠، وقال حديث حسن ورواه ابن حبان ـ رقم ٨٨٦ ـ وصححه.

(٢) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي ـ ص/١٦٥.

(٣) رواه الترمذي في الصوم ـ باب ما يُستحب عليه الإفطار – رقم /٦٩٥ ـ وقال: حديث حسن صحيح. وأبو داود في الصوم ـ باب ما يفطر عليه ـ رقم /٢٣٥٥.

أنعم وفرحه بما وفقه الله إليه من الصيام ولذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (للصائم فرحتان، فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه) [1].

٣ ـ الدعاء عند الإفطار:

الدعاء المأثور عند الفطر وردت فيه أحاديث عدة، ولعل من الحكم في ذلك أن يستشعر الصائم أن لحظات الإفطار ليست لملء البطن وفك جماح الشهوة بعد أن قُيدت طيلة النهار، وإنما هي لحظات عبادة وتضرع وتقرب إلى الله سبحانه وامتثال لأمره في الفطر، فيشكر لله سبحانه الذي أعان على الصيام ورزق عند الإفطار.

ولا يقتصر الصائم عند إفطاره على الدعاء المأثور الوارد عند الفطر، وإنما يدعو بما شاء لدنياه وآخرته اغتناماً لتلك الساعة المباركة.

الشرط الثاني: الابتعاد عن المعاصي:

الصوم الذي أمر الله به هو ما يمنع النفس عن المعاصي ويحجزها عن تسلط الهوى والشهوات، أما إذا كان الصائم لا يتورع عن حرام ولا يبتعد عن منكر، ويقارف المعاصي ويصر عليها ولا يبالي بحرمة شهر رمضان، ولم يغير الصيام شيئاً من سلوكه وأفعاله، فإن هذا الصيام لا يعدو أن يكون تقليداً

---

(١) رواه البخاري في الصوم ـ باب هل يقول: إني صائم إذا شتم ٢٢٨/٢، ورواه مسلم في الصيام ـ باب فضل الصيام رقم /١١٥١، واللفظ لمسلم.

وعادة، ولا يُرجى له أن يثمر أو يحقق فوائده وأهدافه، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) (1).

وقد نقل الحافظ ابن حجر عن ابن بطال قوله في معنى هذا الحديث: (ليس معناه أن يؤمر بأن يدع صيامه، وإنما معناه التحذير من قول الزور وما ذكر معه) (2)، كما نقل عن الإمام البيضاوي قوله: "ليس المراد من شرعية الصوم نفس الجوع والعطش، بل ما يتبعه من كسر الشهوات وتطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة).

ولا شك أن الذي يمنع نفسه عن الطعام والشراب وهي من المباحات في غير أوقات الصيام حريٌّ به أن يمنع نفسه عن المحرمات التي لا ينال منها إلا الأذى والضرر.

وقد وصف الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله حال أقوام يسارعون إلى اغتنام الشهوات قبل دخول رمضان لتأخذ النفوس حظها قبل أن تُمنع من ذلك بالصيام، وربما لا يقتصرون على الشهوات المباحة بل يتعدون إلى المحرمات، ولذلك قال أحدهم:

---

(1) رواه البخاري في الصوم - باب من لم يدع قول الزور والعمل به - ٢/٢٢٨.

(2) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤/١١٧.

إذا العشـرون من شـعبان ولـت فوَاصِـل شُـرب ليلـك بالنـهار
ولا تشـرب بـأقـداح صـغـارٍ فإن الوقت ضاق على الصغار

ومن كانت هذه حاله فالبهائم أعقل منه[1]، وكيف يثمـر صيامـه تزكيـة لنفسه وهو متثاقل من رمضان كاره لقدومه ؟

آثار الصيام في مجال تزكية النفس:

عندما يستشعر الصائم حقيقة الصيام، ويجعـل صيامـه إيمانـاً واحتسـاباً لا تقليداً وعادة، ويبتعد عن المعاصي والآثام كما صام عن الطعام والشراب، فـإن هذا الصيام له ثمرات عظيمة في تزكية النفس، وهو بحقٍ مدرسة تربوية فريـدة، ودورة تدريبية تجدد الإيمان وتقوم السلوك والأفعال.

(١) لطائف المعارف للإمام ابن رجب الحنبلي - ص/١٥٣.

وهذه أبرز آثار الصيام في مجال تزكية النفس وتهذيبها:

١ - تدريب النفس على كمال العبودية لله سبحانه:

الامتثال لأمر الله سبحانه وكمال العبودية له عزوجل هو الهدف الأسمى من كل عبادة، ولكن ذلك يظهر في الصيام أكثر، فالصائم يجوع ويعطش وأسباب الغذاء والريِّ أمامه ميسَّرة، ولولا طاعته لربه وخشيته منه سبحانه وامتثاله لأمره ورغبته في رضاه لما امتنع عن الطعام والشراب وهو يشعر بالجوع ويتلهف أحياناً إلى شربة ماء.

وهكذا يربي الصيام في نفس المؤمن العبودية لربه، وينمِّي فيه خُلق المراقبة والمحاسبة الذاتية ولو ابتعد عن أعين الناس، ولذلك يضاعف الله له الأجر بغير حساب.

روى الشيخان عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله سبحانه: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشهوته من أجلي)[١] .

قال الإمام البغوي في شرحه لهذا الحديث: " معناه أن الصوم عبادة خالصة لي لا يستولي عليه الرياء والسمعة، وليس كسائر الأعمال التي يطّلع

(١) رواه البخاري في الصوم - باب فضل الصوم ٢٢٦/٢، وباب هل يقول إني صائم إذا شُتم ٢٢٨/٢، ورواه مسلم في الصيام - باب فضل الصيام - رقم/ ١١٥١ (١٦٤) واللفظ لمسلم.

عليها الخلق " [1]

وقال الإمام ابن حجر: (إنما خص الصيام لأنـه ليس يظهر من ابن آدم بفعله، وإنما هو شيء في القلب.. وذلك لأن الأعمال لا تكون إلا بالحركات، إلا الصوم فإنما هو بالنية التي تخفى عن الناس) [2].

وأضاف الإمام ابن رجب الحنبلي وجهاً آخر في معنى هذا الحديث فقال: (إنَّ الله خص الصيام بإضافته إلى نفسه دون سائر الأعمال.. لأن الصيام ترك حظوظ النفس وشهواتها الأصلية التي جُبلت على الميل إليها لله عز وجل، ولا يوجد ذلك في عبادة أخرى غير الصيام، لأن الإحرام إنما يُترك فيه الجماع ودواعيه من الطيب دون سائر الشهوات من الأكل والشرب، وكذلك الاعتكاف، وأما الصلاة فإنه وإن ترك المصلي فيها جميع الشهوات إلا أن مدتها لا تطول، فلا يجد المصلي فقد الطعام والشراب في صلاته، بل قد نُهي أن يصلي ونفسه تشوق إلى طعام بحضرته حتى يتناول منه ما يسكن نفسه.. وهذا بخلاف الصيام فإنه يستوعب النهار كله فيجد الصائم فقد هذه الشهوات وتشوق نفسه إليها خصوصاً في نهار الصيف لشدة حرِّه وطوله.. فإذا اشتد توقان النفس إلى ما تشتهيه مع قدرتها عليه، ثم تركته لله عز وجل في موضع لا يطلع عليه إلا الله كان ذلك دليلاً على صحة الإيمان) [3].

---

(١) شرح السنة للإمام البغوي - ٦/٢٢٤.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري - ٤/١٠٧.

(٣) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي - ص/١٦٠-١٦١.

٢ ـ تقوية الإرادة والتدريب على الصبر:

من آثار الصيام وحِكمه أنه يقوي الإرادة ويدرب النفس على الصبر عند المصاعب والشدائد، فالصائم يجوع وأمامه لذيذ الطعام ومع ذلك يمتنع ولا رقيب عليه إلا ربه سبحانه، وبذلك تقوى إرادته ويتحرر من سلطان شهواته، ويتغلب على تحكّمُ العادات التي قد يظنها لقوة هيمنتها طبيعة من طبائعه، وما هي إلا أمور فرضها هو على نفسه أو فرضتها عليه ظروف حياته، وإذا به عندما يأتي رمضان يتسلح بالعزيمة والصبر ويتخلص من قيود تلك العادات ويخفف من أعبائها، وتقوى إرادته فلا تملكه أية عادة من عادات الطعام والشراب والنوم والعمل وغير ذلك.

والصوم مدرسة للتعويد على الصبر والتغلب على ثورة الانفعال أو الغضب ابتغاء مرضاة الله سبحانه، ولذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (والصيام جُنّة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل:إني امرؤٌ صائم)(١).

وقد سمَّى الله سبحانه الصوم صبراً، وذلك على أحد الأقوال في تفسير

---

(١) رواه البخاري في الصوم ـ باب هل يقول إني صائم إذا شتم ٢/٢٢٨.
وقد ثبت طبياً أن الضغط النفسي في حالات الغضب والتوتر يزيد من تكون (الكوليسترول) من الدهن البروتيني، والذي قد يزداد أثناء الصيام، وقد يؤدي ذلك إلى تصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم، انظر كتاب: الصيام معجزة علمية ـ للدكتور عبد الجواد الصاوي ـ ص/١٣٤.

قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾
(سورة البقرة / آية ٤٥).

قال مجاهد: (الصبر في هذه الآية الصوم)، ومنه قيل لرمضان شهر الصبر، فجاء الصوم والصلاة على هذا القول متناسباً في أن الصيام يمنع الشهوات ويزهد في الدنيا، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر " [1].

ولذلك ينبغي للآباء أن يحثوا أبناءهم على الصيام منذ الصغر، تعويداً لهم على هذه العبادة، وتدريباً لهم على تحمل المشاق وتقوية لإراداتهم وصبرهم.

وذلك ما ورد عن الربيع بنت مُعَوِّذ رضي الله عنها أنها قالت عن صيام يوم عاشوراء: (كنا نصومه بعدُ ونُصوِّم صبيانيا، ونجعل لهم اللعبة من العهن فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار) [2].

والصبر ضرورة لا يستغني عنها المسلم، فهو السلاح الذي يقاوم به نفسه الأمارة وشيطانه المخادع وأعداءه الظالمين، وهو ضرورة حياتية لكل عمل نافع في الدنيا يتحمل به أعباء الحياة، لذلك لابد له من هذه الدورة التدريبية السنوية يتدرب فيها على خلق الصبر.

---

(١) تفسير القرطبي ٣٧٢/١، وينظر: تفسير ابن كثير ٨٧/١، وشرح السنة للبغوي ٢١٩/٦.

(٢) رواه البخاري في الصوم - باب صوم الصبيان - ٢٤٢/٢.

٣ ـ التدريب على مجاهدة النفس:

لابد من مجاهدة النفس لتكف عن المعاصي وتسارع إلى الطاعات، وهذه المجاهدة وسيلة المسلم لكي يمسك بزمام نفسه، وهو معها بين موافقة ومعارضة وقبول ورفض، وكثيراً ما يرخي لها الزمام ويعلن أمامها الاستسلام.

فإذا جاء شهر رمضان كان فرصة عظيمة لتدريب المسلم على مجاهدة نفسه وأن يبادر إلى إلزامها بأمر الله عزوجل، والتغلب على نزعاتها المحرمة وأهوائها المفسدة، ولن يجد في ذلك المشقة التي كان يجدها في غير رمضان وذلك لسببين:

١ ـ أن فراغ المعدة والشعور بالجوع يكسر حدة النفس، ويخفف من تسلطها، ويعيدها إلى اتزانها، ويقوّي جانب الروح، فيسارع العبد إلى الطاعات ويبتعد عن المنكرات.

ولذلك أوصى الرسول ﷺ بالصيام لمن لا يجد نفقات الزواج ويخشى على نفسه من الحرام فقال ﷺ: (من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[1]، أي: قاطع للشهوة.

وفي حديث سابق: (الصوم جُنّة) أي: وقاية من المعاصي.

٢ ـ أن من خصائص شهر رمضان التي امتَنَّ الله بها على عباده تصفيد

(١) رواه البخاري في الصوم ـ باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة ٢/٢٢٨.

الشياطين فلا يبقى لها تسلط أو تأثير على المسلم، وبذلك ينطلق سالماً من خطر أكبر عدو كان يترصد له، ليوقعه في الحرام أو ليصده عن طاعة الرحمن.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا دخل رمضان فُتحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم وسُلْسِلَتِ الشياطين)[1].

وفي رواية: (وصُفِّدَت الشياطين)[2].

وعندما تصفد الشياطين فلا يعني هذا أن أسباب المعاصي قد زالت، لأن النفس الأمارة بالسوء والتي لم يقم صاحبها بمجاهدتها قد تكون أشد خطراً من وساوس الشياطين.

ولذلك كان لا بد من اغتنام فرصة شهر رمضان لتدريب المسلم على مجاهدة نفسه حتى تقلع عن المخالفات وتُقبل على الطاعات، فإذا تعودت على ذلك في هذا الشهر الكريم سهل عليها أن تستمر على صلاحها واستقامتها بعد رمضان، حتى يكون العمر كله كشهر رمضان في التزام الأوامر والعبادات واجتناب النواهي والمحرمات.

وقد أشار الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله إلى ذلك فقال: (الدنيا كلها شهر صيام المتقين، يصومون فيه عن الشهوات المحرمات، فإذا جاءهم

---

(١) رواه البخاري في الصوم ـ باب هل يقال رمضان ـ ٢٢٧/٢.

(٢) رواه مسلم في أول كتاب الصيام ـ رقم /١٠٧٩.

الموت فقد انقضى شهر صيامهم واستهلوا عيد فِطرهم)[1].

ولقد اختص الله سبحانه شهر رمضان بأن أودع فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، ووعد بعظيم الثواب لمن أدركها و قامها بالصلاة والدعاء، وجعلها ليلة مباركة تتنزل فيها الرحمات وتحف الملائكة فيها عباد الله فتغشاهم السكينة، وتشرق نفوسهم وتسمو، كما قال تعالى: **﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر﴾** (القدر / الآيتان ٤،٥).

ومن حكمة الله بعباده أن جعل هذه الليلة إحدى ليالي العشر الأواخر من رمضان دون تحديد، لكي يجاهد المسلم نفسه على الاكثار من العبادات في تلك الليالي ويختتم شهره بمضاعفة الجهد والتنافس لإدراكها وتحريها كل ليلة، وهذا أعظم تدريب عملي للنفس وأكبر مجاهدة لها على الطاعة، بل إن من السنن التي كان الرسول ﷺ يحرص عليها اعتكاف العشر الأواخر من رمضان في المسجد والانقطاع عن أعمال الدنيا ومشاغلها والتفرغ للعبادة ليكون ذلك دورة تدريبية مكثفة تغذّي روح المؤمن وتزكي نفسه.

وقد ورد في الاعتكاف أحاديث كثيرة منها ما رواه عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان

(١) لطائف المعارف للإمام ابن رجب الحنبلي ص/١٥٥.

حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده)[1].

وعنها رضي الله عنها أنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر مالا يجتهد في غيره)[2].

٤ ـ التعريفُ بقَدْرِ النِّعَم:

الإنسان إذا تكررت عليه النعم قلّ شعوره بها، ولا بد له لكي يحس بكمال النعمة أن يتذوق ضدها حيناً من الوقت حتى لا يتعود على الترف ويصل به الحال إلى البطر والجحود وينسى المنعم سبحانه، ويفقد شعوره بجوع الجائعين وبؤس البائسين[3].

ولذلك كان الصيام درساً عملياً للتعريف بالنعمة والتذكير بأعمال البر وتفقد المحتاجين والفقراء وعلاج مرض الشح من النفس، وبذلك سمي رمضان شهر الجود والمواساة.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل)[4].

ومن مظاهر الجود التي ينال بها الصائم أجراً عظيماً أن يسارع إلى تفطير

---

(١) رواه البخاري في الاعتكاف ٢/٢٥٥، ومسلم في الاعتكاف ـ باب اعتكاف العشر الأواخر من رمضان رقم /١١٧٢.

(٢) رواه مسلم في الاعتكاف ـ رقم /١١٧٥.

(٣) ينظر: العبادة في الإسلام للقرضاوي ـ ص /٢٧٧ .

(٤) رواه البخاري في الصوم ـ باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان ـ ٢/٢٢٨.

غيره من الصائمين ولا يستأثر بالطعام لنفسه.

وقد جاء في الحديث عن زيد بن خالد الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: (من فطَّر صائماً كان له مثلُ أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئاً)[1].

* يضاف إلى ذلك كله أن الصيام يكفر السيئات ويرفع الدرجات وبذلك يخف عن النفس ثقل المعاصي ويغسل القلب من أدرانه فيصفو، وينطلق المسلم مسارعاً إلى العبادات نشيطاً في الطاعات.

وإذا كان صيام رمضان يغرس في النفس كل هذه المعاني ويسمو بها إلى الأعالي **فإن صيام النفل يزيد على ذلك بأمور عديدة** من أبرزها:

١ ـ أنه صيام اختياري لا يجب على المسلم فإذا بادر إليه فهذا علامة على تقوى القلب والحرص على الأجر من الله سبحانه.

٢ ـ عندما يبادر المسلم لصيام النفل ويرى الآخرين من حوله مفطرين يزداد شعوره بأهمية هذه العبادة ويدرك المعاني العظيمة والآثار والثمرات المستفادة منها في تزكية النفس، وتكون مجاهدته لنفسه لإكمال الصوم أكبر، لأنه يُلزمها بأمر يسعها ألا تُقدم عليه.

٣ ـ وعندما يشعر المسلم بمشقة صيام النفل ويحس بالجوع والعطش فيصبر ابتغاء مرضاة الله سبحانه، فإنه سيتذكر كثيراً من النوافل الأخرى التي ينال

(١) رواه الترمذي في الصيام ـ باب ما جاء في فضل من فطر صائماً ـ رقم /٨٠٧، وقال: حديث حسن صحيح.

بها أجراً عظيماً ولا تتطلب جهداً كبيراً، كصلاة الضحى وقيام جزء من الليل وتلاوة القرآن والصدقة وغيرها من العبادات التي تثمر تزكيةً للنفس، فيبادر إليها دون تردد، ويقوم بها دون أن يُحس بثقلٍ أو ملل.

٤ ـ ولا يخفى أن صيام النفل عبادة متاحة طيلة السنة ولا تختص بشهرٍ من الشهور، وبذلك يمكن للمسلم أن يبادر إليها كلما أحسّ بقسوة في قلبه وحاجة لترويض نفسه ورغبة في المزيد من الأجر والفضل عند الله سبحانه.

وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يصوم عبدٌ مسلم يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً)[1].

---

(١) رواه البخاري في الجهاد ـ باب فضل الصوم في سبيل الله – ٢١٣/٣، ورواه مسلم في الصيام ـ باب فضل الصيام في سبيل الله ـ رقم /١١٥٣، واللفظ لمسلم.

المبحث الرابع

الحج

الحج ركن من أركان الإسلام، ويمتاز عن باقي الأركان بأنه عبادة قلبية وبدنية ومالية، وأنه يجب في العمر مرة واحدة على المستطيع، وأن له مكاناً معيناً لا يؤدى إلا فيه وهو بيت الله الحرام والمشاعر المقدسة.

قال تعالى: ﴿**إن أول بيت وضع للناس للذي ببكةَ مباركاً وهدىً للعالمين، فيه آياتٌ بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين**﴾ (آل عمران / الآيتان ٩٦-٩٧).

وقال سبحانه: ﴿**وأذِّنْ في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍ عميق ليشهدوا منافع لهم**﴾ (الحج / الآية ٢٧، وجزء من الآية ٢٨).

قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسيره لهذه الآية: (ليشهدوا منافع لهم: أي منافع الدنيا والآخرة، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدن والذبائح والتجارات) [١].

فالله سبحانه جعل منافع الحج تحقيق مصالح الدين والدنيا، وقد جاء

---

(١) تفسير ابن كثير ٢١٦/٣.

اللفظ نكرة ليدل على كثرة المنافع وتجددها وتنوعها، ومن أبرزها تزكية النفس وتقويم السلوك وتغذية الروح بتلك الدورة التدريبية الإيمانية التي تقام في أقدس بقعة على وجه الأرض.

<u>* ولكي يحقق الحج دوره في تزكية النفس لابد أن تتوفر فيه شروط، من أهمها:</u>

أولاً: الإخلاص لله وحده وتجنب الرياء والسمعة:

فالحاج يقصد بيت الله الحرام الذي جعله الله سبحانه رمزاً للتوحيد والتوجه إليه تعالى في العبادة، وقد رفع قواعد هذا البيت أبو الأنبياء إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، فليتذكر الحاج نبي الله إبراهيم الخليل داعي التوحيد ومحطم الأصنام، وليعزم على أن ينقي حجه من كل شوائب الشرك الخفي وهو حب السمعة والتباهي والمراءاة أمام الناس، وليتوجه إلى الله بقلب خالص ملبياً داعياً، وليسأل ربه في كل منسك من مناسك الحج قائلاً: اللهم حجاً لا رياء فيه ولا سمعة.

وليتمثل قول الحق سبحانه: ﴿**قل إن صلاتي ونُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رب العالمين لاشريك له**﴾ (الأنعام / آية ١٦٢ وجزء من الآية ١٦٣).

ثانياً: تجنب الرفث والفسوق والجدال:

لابد للحاج أن يوطّن نفسه على تجنب الرفث والفسوق والجدال، وكل ما فيه إيذاء لإخوانه امتثالاً لأمر الله سبحانه، حيث يقول: ﴿**الحج أشهر**

معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب﴾ (البقرة / آية ١٩٧).

وقد ذكر العلماء في تفسير هذه الآية أقوالاً عديدة [١]، نستخلص منها أن (**الرفث**) اسم جامع لكل فحش في الكلام وكل فعل ينافي أعمال الحج، وبخاصة الجماع ودواعيه لأن هذا من محظورات الإحرام.

وأما (**الفسوق**) فهو الخروج عن طاعة الله سبحانه والوقوع في المعاصي.

و (**الجدال**) هو المخاصمة والمنازعة التي تورث الضغائن.

ولا شك أن إقدام الحاج على مثل هذه الأمور يُفقده ثمرة الحج ويُعرِّضه لسخط المولى سبحانه الذي جعل بيته الحرام آمناً وأمر بالتزام حرمته.

فقد قال تعالى: **﴿ومن يُرد فيه بإلحاد بظلمٍ نُذقه من عذابٍ أليم﴾** (الحج/ من الآية ٢٥).

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية تشمل كل من همَّ في الحرم بمعصية عامداً قاصداً عازماً عليها وإن لم يفعلها [٢]، فكيف إذا فعلها ؟ !.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢/٢٦٣-٢٦٧، وتفسير ابن كثير ١/٢٣٦-٢٣٧، وشرح السنة للإمام البغوي ٧/٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٢١٤.

فعلى الحاج أن يلتزم بتقوى الله سبحانه ويجاهد نفسه للإقلاع عن المعاصي ويبادر إلى الأعمال الصالحة اغتناماً لشرف المكان والزمان، ويلتزم بحسن الخلق في صحبة إخوانه المسلمين، وليس حسن الخلق كفُّ الأذى عنهم فحسب بل احتمال الأذى منهم حتى يثمر حجه ثمراته المرجوة في تزكية النفس ويرجع كيوم ولدته أمه.

وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه)[1]، أي: عارياً من الذنوب.

آثار الحج وثمراته في تزكية النفس:

منذ أن يشرع الحاج في السفر وحتى يرجع إلى بيته بعد أدائه الحج، فإنه يخوض غمار دورة تدريبية يجاهد فيها نفسه ويداوي عللها وينهض بها في مقامات التزكية، وهذه العبادة الجليلة تشبه في كثير من آثارها وثمراتها أركان الإسلام الأخرى كالصلاة والصيام والزكاة.

وفي ذلك يقول القاضي الدبوسي رحمه الله:

(أما الحج فله شَبَه بالصوم لما فيه من الكفِ عن محظورات الإحرام.. وله شبه بالصدقة لما فيه من بذل المال.. وله شبه بالصلاة لما فيه من الوقوف

(١) رواه البخاري ـ كتاب المحصر ـ باب قول الله تعالى: ﴿ فلا رفث ﴾ ٢/٢٠٩، ورواه مسلم ـ كتاب الحج ـ باب فضل الحج والعمرة ـ رقم /١٣٥٠، واللفظ للبخاري.

والطواف بالكعبة)[1].

وقد سبق الحديث بالتفصيل عن آثار هذه العبادات في تزكية النفس مما يقتضي عدم الإطالة هنا وبخاصة في الجوانب المشتركة لتلك الآثار.

وبنظرة سريعة إلى أعمال الحج ومناسكه وآدابه **نستخلص الآثار التالية في مجال تزكية النفس:**

١ ـ الحج تدريب عملي على امتثال أمر الله سبحانه:

أول ما يستفيده الحاج من مدرسة الحج تمام العبودية والتسليم والانقياد لله وحده، وفي ذلك يقول الشيخ أبو الحسن الندوي يحفظه الله: (الحج بمناسكه وأركانه وأعماله، كله تمرين وتمثيل للإطاعة المطلقة، وامتثال للأمر المجرد.. وتلبية وإجابة للطلب، فالحاج يتقلب بين مكة ومنى، وعرفات والمزدلفة، ثم منى ومكة، يقيم ويرحل ويمكث وينتقل، ويخيِّم ويقلع، إنما هو طوع إشارة ورهين أمر)[2].

ثم إن كثيراً من أعمال الحج قد لا يُدرك العقل المراد منها كرمي الجمار وتحديد الطواف والسعي بسبعة أشواط وتقبيل الحجر الأسود، ولذلك كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول عندما يقبل الحجر الأسود: (والله إني لأقبلك وإني أعلم أنك حجر، وأنك لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله

---

(١) الأمد الأقصى ـ للقاضي الإمام عبد الله بن عمر الدَّبُوسي (ت ٤٣٠هـ) ـ ص/١٤٥.

(٢) الأركان الأربعة للندوي ص/٢٤٦.

قَبَّلَكَ مَا قَبَّلْتُك)[1].

وما دام العقل لا يدركها فإن الطبع لا يميل إليها إلا امتثالاً لأمر الله سبحانه واقتداء برسوله وبذلك يظهر كمال عبودية المسلم لربه وترويض نفسه لطاعة الله سبحانه.

ولذلك يردد الحاج التلبية ويرفع بها صوته معلناً التزامه بأمر ربه، وتجرده عن شهوات النفس، وإقباله على الله سبحانه، واستجابته ومحبته لله عزوجل وإخلاصه في العبادة[2].

كما أن اجتناب الحاج لمحظورات الإحرام وتجرده من المخيط وامتناعه عن كل ما تشتهيه النفس من الميل للنساء والرغبة في التطيب والتجمل بأنواع الثياب، كل ذلك إعلان عن الخضوع والتذلل لله سبحانه، فالحاج يقف عاري الرأس ليس عليه من عرض الدنيا إلا إزار ورداء، وكأنه يقول: يارب لا أملك لنفسي من الأمر شيئاً فأنت المالك وكل ما في الكون عبيدك.

٢ ـ الحج غذاء للروح:

لابد للروح من غذاء يتزود به المسلم ليزداد إيماناً وخشية، وتُغذى فيه

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الحج ـ باب ما ذكر في الحجر الأسود ٢/١٦٠، ورواه مسلم ـ كتاب الحج ـ باب استحباب تقبيل الحجر الأسود ـ رقم /١٢٧٠ واللفظ لمسلم.

(٢) ذكر الإمام البغوي أربعة أقوال في معنى " لبيك اللهم لبيك " أحدها: أستجيب لك إجابة بعد إجابة، والثاني: إتجاهي لك وقصدي، والثالث: محبتي لك، والرابع: إخلاصي لك.
ينظر : شرح السنة للبغوي ٧/٥٠ .

عاطفة الحب لله ولرسوله، وتمتلئ جوانحه شوقاً إلى لقاء ربه والخشوع بين يديه، حتى يذوق حلاوة الإيمان وينعم بالسكينة والاطمئنان.

وإذا كان العبد يقف بين يدي ربه في صلاته خمس مرات ينال بها غذاء الروح وصفاء النفس، فإن الحج غذاء أكبر بما يمنحه من شحنة إيمانية قوية، وبما يورثه من عاطفة متأججة نحو هذه الأماكن المقدسة التي تحنُّ إليها القلوب وتهوي إليها الأفئدة.

وهذا مصداق لدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام كما ورد في قوله تعالى: **﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾** (إبراهيم / من الآية ٣٧).

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم عليه السلام، وجعل قلوب العباد تهوي إلى البيت وتحّن إليه وتشتاق إلى زيارته والطواف حوله، وتجد في ذلك متعة وغذاء للروح، وهذا بلا شك يزيد الإيمان في القلب ويقوي الصلة بين العبد وخالقه ويرقى بالنفس في مقامات التزكية.

ولذلك يستحب للحاج أن يستحضر الذكريات التي ترتبط بمناسك الحج والأماكن المقدسة، ابتداء من عهد إبراهيم عليه السلام وهو ينقل زوجته هاجر مع ولدها إسماعيل إلى هذا الوادي المقفر، وكيف نبع ماء زمزم ليروي عطش الصغير وأمه وليكون رياً لقاصدي البيت بعد ذلك، ثم يتمثل الحاج مشهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت، ويتذكر عند رمي الجمرات قصة إبراهيم عليه السلام حينما اعترضه إبليس ليثنيه عن تنفيذ

ما أمره الله به في الرؤيا من ذبح ولده إسماعيل، وكيف كان الرد العملي الحاسم الذي أخسأ الشيطان حينما رماه بحصيات عند مكان الجمرات الثلاث.

كما يستحضر الحاج سيرة الرسول ﷺ وأصحابه في هذه الأماكن المقدسة التي شع منها نور الإسلام وتنزّل فيها القرآن، وتخضبت أرضها بدماء الصحابة الكرام والسلف الصالح عند الغزوات وفي المعارك، كما ابتلت بدموعهم عند الصلوات وذكر الله وتلاوة القرآن، وبهذا يجد الحاج نفسه وقد أشرقت بنور الإيمان.

بل إن مما ينبغي للحاج أن يستحضره وهو يعدُّ الزاد للسفر ويودع الأهل أن هناك سفراً لا رجعة بعده ولا بد له من زاد كبير هو التقوى، وأن المسافر للدار الآخرة لا يدري متى يكون سفره وكيف يكون مُقامه هناك !.

ولقد وجَّه الله تعالى عباده إلى الربط بين رحلة الحج والرحلة إلى الدار الآخرة بقوله تعالى: **﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقونِ يا أولي الألباب﴾** (البقرة / آية ١٩٧).

ولذلك يجدر بالحاج وهو يغتسل ثم يلبس لباس الإحرام أن يتذكر خلع ملابسه عند موته، وأنه سيغسَّل ثم يُلَّف بالأكفان البيضاء، ويُحمل على الأكتاف، ويوضع في حفرة مظلمة لا أنيس له إلا عمله الصالح.

فإذا وصل إلى مكة المكرمة وشرع في أعمال الحج فليستحضر مشاهد يوم القيامة عند طوافه وسعيه، وليتذكر عند وقوفه في عرفات الموقف الأكبر يوم الحشر، كما يتذكر عند الإفاضة إلى منى الوفود على الله عزوجل للحساب بعد انقضاء المحشر، ويتأمل وهو يقدم إلى مكة لزيارة البيت وأداء طواف الإفاضة كيف سيقدم إن شاء الله إلى الجنة ويدخلها مع المؤمنين.

فايُّ غذاء للروح أعظم من هذا ؟ وأية دورة تدريبية ينال بها العبد الثمرات ويحظى بها بالخيرات أكبر من هذا الركن الإسلامي وذلك المجمع الإيماني الذي تبقى ذكرياته ماثله في ذهن الحاج سنوات طويلة يهتز لها شوقاً وتدمع عيناه تأثراً كلما جالت بخاطره تلك المشاهد والأماكن.

٣ ـ الحج جهاد للنفس وتدريب لها على تحمل المشاق:

الحج تدريب عملي على الحياة الفاضلة التي يريدها الإسلام، إذ يلتزم الحاج بحسن الخلق وسعة الصدر، ويجاهد نفسه التزاماً بحرمة المكان والزمان للبعد عن كل ما يُسخط الله سبحانه، ويتدرب على خشونة العيش وترك الترفُّه والانتصار على ماديات الحياة وشهوات النفس.

فالحاج يعاني من مشقة السفر والتنقل، وهجر الأوطان والبعد عن الأهل، وترك ما تعوَّده من وسائل الراحة الجسمية وطريقة الحياة اليومية ليجد نفسه في معسكر تدريبي عملي يجد مشقته، ولكنه يُقدم عليه راغباً ويخوض غماره متشوقاً لما عند الله من الأجر العظيم ولما يلمسه من غذاء روحي يُنسيه الأتعاب ويهون عليه الصعاب.

وقد وردت أحاديث كثيرة تبين أن الحج جهاد وبخاصة بالنسبة للمرأة منها ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (يا رسول الله: نَرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد ؟ قال: لا،لكن أفضل الجهاد حج مبرور)[1] .

فالحج جهاد يجتمع فيه جهاد المال والنفس والبدن، ويشارك فيه الرجل والمرأة والقوي والضعيف والصغير والكبير.

ولذلك قال عمر ﷺ: (شدوا الرحال في الحج فإنه أحد الجهادين)[2] .

٤ ـ الحج علاج لأمراض النفس وآفاتها:

من أبرز أمراض النفس التي شاعت بين المسلمين الشح والأنانية والحقد والتكبر، وهذه آفات مهلكة، لابد لها من علاج يطهِّر النفس منها، ويغرس عوضاً عنها صفات البذل والمحبة والتواضع والإيثار حتى ترتقي النفس وتسمو.

ولذلك نجد أن شعائر الإسلام وعباداته تركز على علاج النفس من هذه الآفات، وقد سبق بيان ذلك في المباحث السابقة عند الحديث عن الصلاة والزكاة والصيام وآثارها في التزكية، ثم يأتي الحج ليتضافر مع الأركان الأخرى لتحقيق هذا الهدف.

---

(١) رواه البخاري في الحج ـ باب فضل الحج المبرور ١٤١/٢، وفي الجهاد ـ باب فضل الجهاد ٢٠٠/٣.

(٢) أورده البخاري تعليقاً في صحيحه ـ كتاب الحج ـ باب الحج على الرحل ـ ١٤١/٢.

ويتجلى ذلك في عدة أمور من أبرزها:

١ ـ ما يبذله الحاج من مال ينفقه على سفره وتنقله، وما يتقرب به من هَدْي وذبائح ابتغاء مرضاة الله، وقد أشار الحق سبحانه إلى أن القصد من هذا الهدي تطهير النفس من الشح وتزكيتها حتى تتحقق بالتقوى، فقال تعالى: ﴿**لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن ينالهُ التقوى منكم**﴾ (الحج/ من الآية ٣٧).

٢ ـ اجتماع الحجاج في صعيد واحد لباسهم واحد ونداؤهم واحد يدعون رباً واحداً، تجمعهم أخوّة الإسلام وتلتقي قلوبهم على طاعة ربهم والتضرع إليه، فتصفو نفوسهم وتتطهر من الأحقاد، وتتحقق بينهم المساواة فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، إنها وحدةفي المشاعر ووحدة في الشعائر، ووحدة في الهدف [1]، وبذلك تزول من النفوس صفاتها الذميمة وتتخلى عن أمراض الحقد والأنانية والتكبر، ويقوى في النفس الشعور برابطة الإيمان، ويلتقي الجميع على طاعة الرحمن، ويحل بينهم التعارف والتآلف، وتُشحذ الهمم وتُوقِظ الآمال.

٣ ـ إن الله سبحانه يُكرم عباده الحجيج يوم عرفة بالمغفرة والرضوان ويُنزل عليهم الرحمات، فتُغسل قلوبهم من أدران المعاصي، وتصفو نفوسهم من أكدار الذنوب، ويندحر الشيطان خائباً، فتتحرر النفس من وساوسه، وقد وردت

---

(١) ينظر: العبادة في الإسلام للقرضاوي ـ ص/٢٩٠.

في ذلك أحاديث كثيرة منها ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (ما من يوم أكثر من أن يعتقَ الله فيه عبيداً من النار مِن يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء ؟)[١].

* **ويلحق بالحج العمرةُ**، وهي عبادة لها آثار عظيمة في تزكية النفس، وتتميز عن الحج بأنها وسيلة متاحة طيلة أشهر السنة ولا تختص بوقت محدد، وهي سهلة الأداء لا تستغرق وقتاً طويلاً، لأنها تقتصر على الطواف والسعي، فكلما لاحظ المسلم من نفْسِهِ بُعداً عن الله تعالى أو قسوة في القلب فليسارع لأداء العمرة يُغَذّي بها روحه ويُزَكّي نفسه ويجدد عزمه، وبخاصة إن كان وصوله إلى بيت الله الحرام متيسِّراً ولا تبعده عنه مسافات طويلة.

وبذلك يحقق الحج والعمرة دورهما في تزكية النفس، ويظفر المسلم ببشرى الرسول ﷺ كما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)[٢].

---

(١) رواه مسلم في الحج ـ باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة ـ رقم /١٣٤٨.

(٢) رواه البخاري في العمرة ـ باب وجوب العمرة وفضلها ١٩٨/٢، ومسلم في الحج ـ باب فضل الحج والعمرة ـ رقم /١٣٤٩.

المبحث الخامس

الجهاد بأنواعه

لازال الاعتقاد السائد عند كثير من الناس أن طريق الجهاد بأنواعه بما في ذلك الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يغاير طريق تزكية النفس ويعارضها، وأن تزكية النفس لا بد لها من خلوة وعزلة وبُعد عن الناس، وأن ينشغل الإنسان بنفسه لا بغيره، وأن ينظر في عيوبه ولا يلتفت لعيوب الآخرين، وأن يهجر المسلم دُنياه ومَن فيها ليَسلم له دينُه ويتفرغ لعلاج نفسه وترويضها.

ولخطورة هذه المفاهيم المنحرفة، وآثارها السيئة على الفرد والمجتمع، وتشويهها للصورة النقية التي رسمها الإسلام لتزكية النفس، فإني سأعرض لمناقشتها والرد عليها في الباب الخامس من هذا البحث، ولكن المقصود هنا إبراز دور الجهاد في تزكية النفس وبيان أهمية هذه العبادة الجليلة بأنواعها في تطهير النفس وترقيتها وصلاحها.

والجهاد مشتق من الجهد وهو الطاقة والمشقة، والاجتهاد: أخذ النفس ببذل الطاقة، وتحمل المشقة في العبادة[1]، وقد ورد الجهاد في القرآن الكريم

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن ــ للإمام الراغب الأصفهاني ــ ص/١٠١. وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ـ للإمام الفيروز آبادي ـ ٢/٤٠١.

على عدة معانٍ[1]:

الأول: مجاهدة الكفار والمنافقين بالبرهان والحجة، ومنه قوله تعالى: ﴿وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ (الفرقان/ من الآية ٥٢) أي: جاهدهم بهذا القرآن حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله ويدينوا به[2].

الثاني: جهاد القتال، وقد ورد فيه آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾ (النساء / من الآية ٩٥).

الثالث: مجاهدة النفس والشيطان، وهو أحد الأقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُم سبلنا وإن الله لَمَعَ المحسنين﴾ (العنكبوت / آية ٦٩).

وقد قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: "الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون "[3]، وقال الإمام الفخر الرازي: "من جاهد بالطاعة هداه الله سبل الجنة"[4].

وهناك آيات كريمة أخرى تشمل المعاني الثلاثة. منها قوله تعالى: ﴿وجاهِدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من

---

(١) بصائر ذوي التمييز ٢/٤٠٢-٤٠٣.

(٢) تفسير الطبري ١٩/٢٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٤٢٢ .

(٤) تفسير الفخر الرازي ٢٥/٩٥.

حرج﴾ (الحج / الآية ٧٨).

قال الإمام ابن كثير: " وجاهدوا في الله.. أي بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم... فالله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم.. وما كلفكم مالا تطيقون وما ألزمكم بشيء يشق عليكم" [١].

وقد بين الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله أنواع الجهاد وأقسامه فقال: (الجهاد شرعاً بذل الجهد في قتال الكفار، ويطلق أيضاً على مجاهدة النفس والشيطان والفسّاق)، ثم قال: (أما مجاهدة الكفار فتقع باليد والمال واللسان والقلب) [٢].

وهكذا نجد أن الجهاد يشمل مجاهدة العدو الداخلي والخارجي، وأن مجالاته كثيرة من أبرزها:

١ ـ المجاهدة باللسان والبيان عن طريق الحجة والنصح والدعوة والتعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢ ـ المجاهدة بقتال الأعداء وبذل النفس والمال في سبيل الله.

٣ ـ مجاهدة النفس والشيطان وقمع تسلطهما، وهذا الجانب سأتحدث عنه بالتفصيل في فصل مستقل إن شاء الله

وسيكون الحديث هنا على نوعي الجهاد البياني والقتالي، وماهما من آثار

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٢٣٦.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦/٢ .

عظيمة في تزكية النفس، ولعل أول ما تنبغي ملاحظته أن الله سبحانه جعل الفلاح متعلقاً بتزكية النفس فقال تعالى: ﴿**قد أفلح من زكاها**﴾ (الشمس/ آية٩)، كما جعله متعلقاً بالجهاد، فقال سبحانه: ﴿**وجاهِدوا في سبيله لعلكم تفلحون**﴾ (المائدة / من الآية ٣٥)، وجعله أيضاً متعلقاً بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال عزوجل: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾ (آل عمران / آية ١٠٤).

فطريق الفلاح هو طريق الدعوة والجهاد، وهو نفسه طريق تزكية النفس لا يختلفان، ومن هنا كان الجهاد بأنواعه وسيلة عظمى للتزكية في المنهج الإسلامي[(١)].

وقد أمر الله عباده بالجهاد وجعله ذروة سنام الإسلام، وهو فرض كفاية لا يجوز للمسلمين أن يتخلوا عنه أبداً، وقد يتعين على بعضهم بحسب الأشخاص والأحوال.

ولقد وردت آيات قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة في الأمر بالجهاد وبيان فضله ومنزلته وما أعده الله للمجاهد من أجر عظيم، والتأكيد على أهمية الجهاد في تقوية الإيمان والتحقق بالصدق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم**

---

(١) ينظر: المستخلص في تزكية الأنفس ـ للشيخ سعيد حوى ـ ص/١٥٣.

وأنفسهم في سبيل ا لله أولئك هم الصادقون﴾ (الحجرات/ آية ١٥).

وقوله سبحانه: **﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرُ أولي الضرر، والمجاهدون في سبيل ا لله بأموالهم وأنفسهم فضَّل ا لله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد ا لله الحسنى وفضَّل ا لله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان ا لله غفوراً رحيماً﴾** (النساء / الآيتان ٩٥-٩٦).

وهناك عشرات الأحاديث النبوية الواردة في الجهاد وبيان منزلته بين العبادات الإسلامية، منها:

- ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: ﷺ سئل النبي ﷺ: أيُّ العمل أفضل ؟ قال: إيمان با لله ورسوله، قيل: ثم ماذا ؟ قال: الجهاد في سبيل ا لله، قيل: ثم ماذا ؟ قال: حج مبرور)[1].

- وعن أنس ﷺ أن رسول ا لله ﷺ قال: (لَغَدْوَةٌ في سبيل ا لله أو رَوْحة خيرٌ من الدنيا وما فيها)[2].

فإذا كانت الغَدوة الواحدة في سبيل ا لله، وهي السير أول النهار، والروحة وهي السير آخره، خير من نعيم الدنيا كلها، فكيف بمن يُمضي أيامه

---

(١) رواه البخاري في الحج - باب فضل الحج المبرور ٢/١٤١. ومسلم في الإيمان - رقم/٨٣

(٢) رواه البخاري في الجهاد - باب الغدوة والروحة في سبيل ا لله ٣/٢٠٢، ومسلم في الإمارة - باب فضل الغدوة والروحة في سبيل ا لله - رقم /١٨٨٠.

ولياليه مجاهداً في سبيل الله داعياً إلى دينه ؟ !.

- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قيل للنبي ﷺ: (ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قال: لا تستطيعونه، قال فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول لا تستطيعونه، وقال في الثالثة: مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتُر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى) [1]، وفي رواية: (قال:هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر؟ فقال: ومن يستطيع ذلك؟) [2].

قال الإمام النووي رحمه الله: (في هذا الحديث عظيمُ فضل الجهاد، لأن الصلاة والصيام والقيام بآيات الله أفضل الأعمال، وقد جعل المجاهدَ مثل مَن لا يفتُر عن ذلك لحظة من اللحظات، ومعلوم أن هذا لا يتأتى لأحد، ولهذا قال النبي ﷺ لا تستطيعونه) [3].

ولكي يثمر الجهاد ثمراته المرجوة في تزكية النفس ويحظى المجاهد بالمنزلة الكبيرة عند ربه فلا بد من أن يتحقق في جهاده شرطان:

الشرط الأول: الإخلاص لله سبحانه في كل أنواع الجهاد.

الشرط الثاني: التطبيق لما يدعو إليه ويأمر الناس به، وذلك في

---

(١) رواه مسلم في الإمارة - باب فضل الشهادة في سبيل الله - رقم /١٨٧٨.

(٢) رواه البخاري في الجهاد - باب فضل الجهاد والسير ٣/ ٢٠٠.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٣/ ٢٥.

ولنبدأ بالشرط الأول:

الإخلاص في الجهاد:

تكرر الحديث عن الإخلاص في مواضع عدة، ومع ذلك لابد من الإشارة إليه هنا، إذ أن المسلم الذي يبذل جهده ويضحي بماله ونفسه ويعرِّض حياته للخطر ثم يقصد بذلك عَرَضاً من أعراض الدنيا كالشهرة والسمعة ولا يريد بذلك وجه الله عزوجل، فهو في غاية البعد عن ربه، ولا يُرجى لعمله وتضحياته أن تؤدي ثمراتها في تزكية النفس، بل إنه يعرِّض نفسه لسخط الله وعقوبته ويرمي بها في نار جهنم.

والدليل على ذلك ما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استُشهد، فأُتيَ به فعرَّفه نعمُه، فعرفها قال: فما عملتَ فيها ؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأُتي به، فعرَّفه نِعَمهُ فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: تعلمت العلم وعلمتُه، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلّمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي به في النار.

ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرَّفه

نعمهُ، فعرفها، قال: فما عملتَ فيها ؟ قال: ما تركتُ من سبيل تُحب أن يُنفَق فيها إلا أُنفقتُ فيها لك. قال: كذبت، ولكن فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه ثم أُلقي في النار)[1].

ويشمل هذا الحديث النبوي ثلاثة أنواع من الجهاد، وهي القتال، والجهاد الدعوي بالعلم والتعليم، والجهاد بالمال، فمن فعل شيئاً من ذلك بقصد الرياء والمباهاة فقد استوجب العقوبة، لأن الله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له.

ولذلك لا بد للمجاهد أن يصحح نيته، ويجعل جهاده لإعلاء كلمة الله والدعوة إلى دينه، لا من أجل المغانم والمنافع والمكاسب الدنيوية.

روى البخاري عن أبي موسى ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: (الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانُه، فمن في سبيل الله ؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[2].

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب الإمارة ـ باب من قاتل للرياء والسمعة ـ رقم/١٩٠٥.

(٢) رواه البخاري ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ـ ٢٠٦/٣.

الشرط الثاني: العمل بما يدعو إليه ويأمر الناس به في جهاد الدعوة:

لكي يؤدي النصح والارشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دوره في تزكية نفس الداعية ونفوس المدعوين، وينال صاحبه به الأجر والقربى من الله سبحانه، لابد أن يكون ملتزماً بما يدعو إليه متحققاً بما يُرشد الناس إليه.

وقد سبق الحديث بالتفصيل عن هذا الجانب في موضوع العلم النافع الذي يتبعه العمل، مع بيان ما ورد في الكتاب والسنة من التحذير والوعيد لمن يأمر الناس وينسى نفسه.

فالواجب على الداعية الذي يجعل الدعوة إلى الله ميدان جهاده أن يدعو نفسه ويجاهدها وأن يخوض المعركة معها، لكي يثمر جهاده النفع للآخرين والتأثير فيهم.

وقد أوضح ابن القيم رحمه الله هذه المسألة بجلاء [1]، وبيَّن أن الواعظ إذا عمي عن عيوبه حُرم الانتفاع بموعظته، لأن النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه، ولذلك قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿**وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه**﴾ (هود/ من الآية ٨٨).

فالموعظة لا تنفع إلا إذا خرجت من القلب، فهي عندئذ تصل إلى القلوب، أما إذا خرجت من اللسان و لم يكن صاحبها متحققاً بها فإنها لا

---

(١) ينظر: مدارج السالكين ٤٤٦/١.

تجاوز الآذان.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب من أبواب الجهاد، ولا بد فيه من الالتزام والتطبيق لما يأمر به أو ينهى عنه، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (التحقيق أن المؤمن إذا نهى عن المنكر، فلا بد أن لا يقربه، ويعزم على تركه، ويكره فعله)[1].

ولكن ينبغي أن لا يتخذ المسلم هذا الشرط ذريعة للتخلي عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلية، فكل ابن آدم خطاء، والعبد مأمور بأن يتقي ربه بقدر الاستطاعة، وأن يبادر إلى التوبة عند الذنب ولا يصر عليه،

وقد نبَّه على ذلك الإمام ابن رجب الحنبلي، فقال: (ومع هذا كله فلا بد للإنسان من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ والتذكير، ولو لم يعظ إلا معصومٌ من الزلل لم يعظ الناس بعد رسول الله ﷺ أحد، لأنه لا عصمة لأحد بعده)[2].

كما نقل عن الحسن البصري رحمه الله أنه قيل له: (إن فلاناً لا يعظ ويقول أخاف أن أقول مالا أفعل، فقال الحسن: وأينا يفعل ما يقول ـ أي بتمامه ـ ودَّ الشيطان أنه ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروف و لم ينه عن منكر "[3].

ولاشك أن الداعية عندما يُخلص في دعوته ونصحه يكون أول المتأثرين بها

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٦٣١.

(٢) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي - ص/١٦.

المستجيبين لها فالكلمة الصادقة تؤثر في قائلها مثلما تؤثر في سامعيها ، وكثيراً ما يقف الداعية واعظاً للناس وخطيباً فيلاحظ تأثر المستعين وانفعالاتهم وإذا به يهتز من أعماق نفسه **وكأن المستمعين من شدة تأثرهم هم الذين يعظونه بدموعهم وخشوعهم موعظة صامته أبلغ من موعظته الناطقة**، ولا شك أن هذه المجالس تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة وتنزل على قلوب أهلها السكينة فتلين وتخشع، وبهذا يجد الداعية أن نفسه قد غمرتها السكينة وأصبحت طوع أمره تبصّره بعيوبه وتلومه على هفواته وغفلاته، **وهذا كله من بركة الاخلاص في الدعوة** والتفاني في الجهاد بمختلف أنواعه.

آثار الجهاد في مجال تزكية النفس:

عندما يجاهد المسلم في سبيل الله سبحانه بلسانه وماله ونفسه، ويبذل جهده في إعلاء كلمة الله تعالى بكل ما أوتي من قوة، وبجميع المجالات الممكنة بما فيها الدعوة والنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن لهذا الجهاد آثاره العظيمة في تزكية النفس، والتي تتجلى في الجوانب التالية:

١ ـ **الجهاد تحرير للنفس من حب الحياة والتعلق بها**، وبيع لها في سبيل الله، وتدريب عملي على الزهد في الدنيا والتطلع إلى الآخرة والتشوق لما أعده الله لعباده في الجنة، وهذا من أعظم ما يهدف إليه المنهج الإسلامي في تزكية النفس.

فالمجاهد يبيع نفسه لله تعالى ابتغاء مرضاته، والله سبحانه واهب الأنفس والأموال ومالكها يكرم عباده المجاهدين بأن يشتري منهم ما وهبهم

إذا بذلوها في سبيله.

قال تعالى: ﴿**إن ا لله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة يقاتلون في سبيل ا لله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من ا لله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود ا لله وبشر المؤمنين**﴾ (التوبة/ الآيتان ١١١-١١٢).

وهكذا يتضح أن الجهاد في سبيل ا لله بيعة معقودة، وا لله سبحانه قد عقد الصفقة واشترى هذه الأنفس والأموال وهو مالكها سبحانه، وجعل الثمن في تلك التجارة الرابحة جنة عرضها السموات والأرض، ولكن هذا الجهاد ليس مجرد اندفاع للقتال إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان والعمل الصالح، فا لله سبحانه وصف المجاهدين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بصفات جليلة: ﴿**التائبون العابدون...**﴾ إلى آخر الأية.

ومجمل هذه الصفات يبين أن الجهاد في سبيل ا لله يشمل جهاد الأعداء وجهاد النفس وجهاد الشر والفساد [١]، وبذلك ينطلق المجاهد من قيود التعلق بالدنيا والتثاقل إلى الأرض وينفر باذلاً نفسه وماله في سبيل ا لله.

قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل**

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ٢/٣٩١، وفي ظلال القرآن ٣/١٧١٩.

ا لله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ (التوبة / الآية ٣٨).

وقال سبحانه: **﴿فليقاتل في سبيل ا لله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتل في سبيل ا لله فيُقتل أو يَغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾** (النساء / الآية ٧٤).

٢ ـ الجهاد تمحيص للنفس وتدريب لها على الصبر والفداء:

طريق الجنة محفوف بالمكاره ولا يُنال براحة البدن، ولا بد من تعويد النفس على المشاق والصعاب ليقوى بنيانها وتصمد في وجه الشدائد والأهوال، وتدع الخمول والكسل والتواني

كما أن حكمة ا لله سبحانه اقتضت أن تتعرض النفوس للتمحيص ليظهر ثباتها ويستقيم حالها، ولا شك أن أكبر ميدان لهذا التمحيص هو ميدان الجهاد.

قال تعالى: **﴿إن يمسسكم قَرح فقد مسَّ القوم قرحٌ مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم ا لله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء وا لله لا يحب الظالمين وليمحص ا لله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم ا للهُ الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ولقد كنتم تمّنون الموت مِن قبل أن تلقَوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾** (آل عمران / الآيات ١٤٠-١٤٣).

فالشدائد والمِحَن تُربي النفوس، كما تكشف عن معادنها وتُظهِر درجة

ثباتها، ولذلك كان ميدان الجهاد المقياس الحقيقي الذي يعرف به المؤمن درجة التزكية التي ارتقت إليها نفسه، فإن لاحظ فتوراً أو إحجاماً عن البذل والفداء، وصدَّته نفسه عن كل جهاد يخدم به دينه فهو في بداية الطريق، ولابد له من ترويض النفس ومجاهدتها وتدريبها على الصبر والثبات، وتقوية إيمانها با لله واليوم الآخر، وإنْ لمس فيها هِمَّة وقوة فهذا مؤشر على ترقي النفس في مقامات التزكية، كما أنه دليل على صحة المنهج الذي يسلكه في تزكية النفس.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن بعض السائرين في طريق التزكية يلمس من نفسه إقبالاً على الطاعات وإحجاماً عن المعاصي، فيظن أنه ارتقى بنفسه إلى المقام المطلوب في تزكية النفس، مع أن هذا المقياس لا يكفي، إذ أن حقيقة النفس تظهر في الشدة لا في الرخاء، ولذلك كان الجهاد هو المحك الذي يكشف عن معدن النفس ليسارع صاحبها إلى تدارك مافيها من نقص.

فينبغي للمسلم أن يشد أزر نفسه ويقويها لتكون أهلاً لتحمل أعباء الجهاد، وهذا ما كان يفعله الصحابة الكرام والسلف الصالح رضي ا لله عنهم.

- ولعل أبرز مثال على ذلك قصة عبد ا لله بن رواحة ﷺ في غزوة مؤتة لما استشهد أمير جيش المسلمين جعفر بن أبي طالب ﷺ، فأخذ ابن رواحة الراية وتقدم بها وهو على فرسه، وجعل يخاطب نفسه ويستحثها على القتال ويذكرها بالأجل المحتوم وهو يردد هذه الأبيات:

أقسمت يانفسُ لتنزِلنّه | لتنزلنّ أو لتُكرَهِنّهْ
قد أجلب الناس وشدوا الرَّنّهْ [1] | مالي أراكِ تكرهين الجنة ؟
قد طالما قد كنتِ مطمئنةْ | هل أنتِ إلا نطفة في شَنّه [2] ؟
يا نفسُ إن لا تقتلي تموتي | هذا حِمام الموتِ قد صُليت
وما تمنيتِ فقد أُعطيتِ | إن تفعلي فعلهما هُديتِ

ثم قاتل حتى قُتل ﷺ [3] .

ـ ومثال آخر لأحد علماء السلف وصلحائهم وهو الأسود بن كلثوم، رحمه الله تعالى، فقد روى عبد الله بن المبارك عن حميد بن هلال قال: " كان الأسود بن كلثوم إذا مشى نظر إلى قدميه أو أطراف أصابعه لا يلتفت، وجُدُر الناس إذ ذاك فيها تواضع ـ أي منخفضة قد يُرى ما وراءها ـ فعسى أن يفجأ النسوة.. فلما قدم غازياً قال: اللهم إن هذه نفسي تزعم في الرخاء أنها تحب لقاءك، فإن كانت صادقة، فارزقها ذاك، وإن كانت كاذبة فاحملها عليه وإن كرهت، فاجعله قتلاً في سبيلك.. فقاتلهم حتى قُتل" [4] .

---

(١) الرَّنّه: صوت يشبه البكاء.

(٢) الشَّن: السِقاء البالي، فيوشك أن ينخرق السقاء وتهراق النطفة، يقصد بذلك الموت.

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ١٢٠، والطبراني ورجاله ثقات كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٦٠، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية ٤/ ٢٤٥.

(٤) ينظر: كتاب الجهاد للإمام عبد الله بن المبارك ص/١٤٩، ومحاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص/٤٤، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٣/ ١٦٨.

وهكذا أدرك الأسود رحمه الله أن الإحجام عن المعاصي عند الرخاء ليس مقياساً كافياً لمعرفة حقيقة النفس، وأن نفسه التي تعودت البعد عن محارم الله قد لا تطاوعه في الجهاد فكان لا بد لها من هذا الدرس الجهادي.

٣ ـ الجهاد عزة النفس وقوة لها:

الجهاد أعظم وسيلة لتنمية العزة في نفس المسلم وتقوية كيانها وتطهيرها من الذلة والمهانة والخمول وغيره من الصفات المهلكة للفرد والمجتمع.

ولقد بيّن الله سبحانه أن المؤمن عزيز الجانب لأنه يستمد العزة من إيمانه بربه وتمسكه بدينه، فقال تعالى: ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون**﴾ (المنافقون / من الآية ٨).

فإذا تخلى المسلم عن الجهاد وشُغل بالدنيا عن الآخرة، تعودت نفسه الذلة والهوان والاستكانة والخنوع.

ولهذا جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا تبايعتم بالعِينة [١]، وأخذتم أذناب البقر [٢]، ورضيتم بالزرع،

(١) أي وجهتم همكم للبيع والشراء وكسب المال، والعينة أن يبيع الرجل لغيره سلعة ثم يشتريها منه بثمن أقل.

(٢) معناه: اتخذتم الماشية للحرث والري وعكفتم على ذلك فلم تنشغلوا إلا به.

وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[1] .

والنفس الذليلة لا تصلح لعمل، ولا يُرجى منها خير، إلا إذا تخلت عن أسباب هذه الذلة وعرفت أن الحياة الكريمة لا تكون إلا بالإقبال على الآخرة وبذل النفس لإعلاء كلمة الله سبحانه.

وبهذا يتضح أن الجهاد وإن كان شاقاً على النفس إلا أنه وسيلة عظمى لصلاحها وتزكيتها، ومن جاهد فإنما يعود نفع ذلك على نفسه والله غني عن عمله، ولذلك قال سبحانه: **﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين﴾** (العنكبوت / آية ٦).

ولذلك كان الفرق كبيراً عند الله سبحانه بين من جعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه لا يعمل إلا لها ولا يفكر إلا من أجلها، وبين من جعل همَّه الأكبر الدعوة لهذا الدين والبذل من أجله والتضحية في سبيله.

ـ فالفريق الأول بعيد عن الله وقريب من أهل الكفر والنفاق لأنه يسلك مسلكهم ويتصف ببعض صفاتهم، وهذا ما أوضحته الآية الكريمة،وهي قوله تعالى: **﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾** (يونس / الآيتان ٧ ـ ٨).

---

(١) رواه أبو داود في البيوع ـ باب في النهي عن العينة ـ رقم /٣٤٦٢، وهو حديث صحيح كما قال محقق جامع الأصول ١١/٧٦٥.

وما أشار إليه الحديث النبوي عن أبي هريـرة ﷺ قـال: قـال رسـول ا الله ﷺ: (من مات و لم يَغْزُ و لم يُحدِّث به نفسه، مات على شعبة من نفاق) [1].

قال الإمام النووي: (المراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلفـين عـن الجهاد في هذا الوصف، فـإن تـرك الجهـاد أحـد شـعب النفـاق) [2]، وذلـك لأنـه مشغول بدنياه لا يفكر إلا فيها.

- والفريق الثاني هو الذي سلك سبيل الهداية مـع السـالكين، وعـرف أن أعظم ما ينبغي للمسلم أن يهتم به ويسلك طريقه لتزكو نفسه ويُرضي ربه هو الجهاد بأنواعه، وبذلك يحظى بالبشارة العظمـى وهـي قولـه تعـالى: ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن ا لله لَمَعَ المحسنين**﴾ (العنكبوت / آية ٦٩).

---

(١) رواه مسلم - كتاب الإمارة - باب ذم من مات و لم يغزُ - رقم / ١٩١٠.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٥٦/١٣.

المبحث السادس

النوافل

تلاوة القرآن الكريم، الذكر والدعاء، قيام الليل

النوافل باب عظيم من أبواب الخير، وميدان كبير للمسابقة في الطاعات، ونعمة عظمى أكرم الله بها عباده ليزدادوا منه تقرباً ويحظوا بالرحمة والرضوان، ويزكّوا بها أنفسهم ويحيوا قلوبهم.

ولقد جاء في الحديث القدسي الذي رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: **(إن الله عز وجل قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنّه)**[1].

ولقد سبق الحديث في المباحث الماضية عن بعض النوافل المتصلة بالفرائض، كنوافل الصلاة والصدقة، وصيام التطوع، مع بيان مالها من آثار عظيمة في تزكية النفس، ولذلك سنقتصر في هذا المبحث على أربع من النوافل

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب التواضع – ١٩٠/٧.

التي تُعد من أعظم روافد التزكية وأجلِّ وسائلها وهـي: تـلاوة القـرآن الكريـم والذكر والدعاء وقيام الليل.

فإذا أراد العبد أن يتقرب من مولاه وأن يغـذِّي شـجرة الإيمـان في قلبـه فليسارع إلى هذه النوافل، وليكثر منها ما استطاع، وليجاهد نفسه على ذلك، حتى تترقى تلك النفس وتصل إلى مقـام تـذوق معـه حـلاوة الإيمـان، ويصبـح إقبالها على هذه النوافل طبيعة وملكة، تجد فيها الأُنس والراحة ولا تصـبر علـى فراقها في حضر ولا سفر.

وقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة على عظيم فضـل هـذه النوافـل، والمنزلة السامية التي يحظى بها أهلها وما يمنحهم الله تعالى من مضاعفـة الأجـر ورفع الدرجات، وأنها من أعظم التجـارة الرابحـة الـتي يكـرم الله بهـا بـالأجر الجزيل على العمل اليسير.

- ففي فضل تلاوة القرآن الكريم قال تعالى: **﴿إن الذين يتلـون كتـاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبـور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور﴾** (فاطر / الآيتان ٢٩-٣٠).

وعن ابن مسـعود ﷺ قـال: قـال رسـول الله ﷺ: (مـن قـرأ حرفـاً مـن كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالهـا، لا أقـول ﴿الم﴾ حـرف، ولكـن ألفٌ حرف ولامٌ حرف، وميمٌ حرف) [١].

(١) رواه الترمذي في فضائل القرآن - رقم /٢٩١٠، وقال حسن صحيح.

ـ **وفي فضائل الذكر والحث عليه** قال تعالى: ﴿**فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون**﴾ (البقرة / آية ١٥٢)، وقال سبحانه: ﴿**والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدَّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً**﴾ (الأحزاب/ من الآية ٣٥).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (كلمتان خفيفتان عن اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)[(١)].

ـ **وفي فضائل الدعاء ومنزلته** قال تعالى: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دَعَانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾ (البقرة / آية ١٨٦).

وقال سبحانه: ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم**﴾ (غافر/ من الآية ٦٠).

وعن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوةٍ إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم

---

(١) رواه البخاري في الدعوات ـ باب فضل التسبيح – ١٦٨/٧، ومسلم في الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح – رقم /٢٦٩٤.

يدع بإثم أو قطيعة رحم، فقال رجل من القوم: إذاً نُكثر قال: الله أكثر)[1].

أي: أكثر إحساناً مما تسألون، وفي رواية للحاكم: (أو يدخر له من الأجر مثلها).

- **وفي فضائل قيام الليل** والثناء على أهله قال تعالى: ﴿**إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون**﴾ (الذاريات/ الآيات ١٥-١٨).

وقال سبحانه: ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً**﴾ (السجدة/ من الآية ١٦).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل)[2].

كما بيّن الرسول ﷺ أهمية قيام الليل في استكمال شخصية المسلم وبلوغه مقامات القرب من ربه، وذلك حينما أرشد عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال: (نِعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل، " قال سالم بن عبد الله: " فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً)[3].

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات - باب انتظار الفرج - رقم / ٣٥٧٣، وقال حديث حسن صحيح - وصححه الحاكم ١/٤٩٣، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه مسلم في الصيام - باب فضل صوم المحرم - رقم /١١٦٣.

(٣) رواه ومسلم في فضائل الصحابة - رقم /٢٤٧٩.

*** ولكي تحقق هذه النوافل دورها في تزكية النفس لابد أن يتوفر فيها مايلي:**

١ ـ ترك الإصرار على المعاصي . ٢ ـ حضور القلب.

ولنبدأ بالشرط الأول:

ترك الإصرار على المعاصي:

الإصرار على المعاصي والإنغماس فيها له آثار سيئة على النفس والقلب، ولا يمكن للعبد أن يحظى بالقرب من الله تعالى وينال بركة الطاعات وثمرات العبادات وهو غافل عن ربه منغمس في المحرمات.

يقول الإمام ابن القيم يرحمه الله: (إن الذنوب والمعاصي تضر، ولا بد أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداءٌ إلا سببه الذنوب والمعاصي ؟)[١].

وأبرز أضرار المعاصي التي يصر صاحبها عليها ولا يبادر إلىالتوبة منها، أنها تجعل القلب مظلماً مسوداً، وتحجبه عن التأثر بالذكر والدعاء وسائر العبادات، وتحرمه من الانتفاع بها.

وهذا ما أوضحه الحديث النبوي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتت في قلبه نُكتة سوداء، فإذا هو نزع

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ـ ص /٤٣.

واستغفر وتاب صُقل قلبه، وإن عاد زيد فيها، حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله عزوجل: ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾ (المطففين/ آية ١٤))[1].

فالذنوب إذا كثرت تُعمي القلب وتميته وتجعله منكوساً لا يتأثر بموعظة، ولا يخشع لدعاء أو ذكر أو تلاوة للقرآن، فهو كالإناء أو الكوز المقلوب الذي لم يبق فيه شيء من ماء وإذا أردت أن تضع فيه شيئاً تساقط على جوانبه[2].

يقول الإمام ابن القيم يرحمه الله: (إن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير راناً، ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلاً وختماً، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله)[3].

ولهذا كان لابد لمن أراد أن يتقرب إلى الله تعالى بالنوافل ويزكي نفسه بها، أن يتخلى عن المعاصي وبخاصة الكبائر حتى ينفتح القلب للطاعة ويحيا بها، ويُوفَّق للإكثار منها، ويجد الهمة والنشاط في أدائها.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في بيانه للطريق الذي يزكو به القلب:

---

(١) رواه الترمذي ـ كتاب تفسير القرآن ـ باب /٧٤، رقم /٣٣٣٤، وقال حديث حسن صحيح ـ وصححه ابن حبان ـ رقم /٢٤٤٨، والحاكم ٥١٧/٢، ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر: تفصيل ذلك في الباب الرابع عند الحديث عن صحة القلب ومرضه

(٣) الجواب الكافي ـ ص/٦٣.

(وكذلك ترك المعاصي، فإنها بمنزلة الأخلاط الردئية في البدن، ومثل الدغل في الزرع.. وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغاً من تخليطاته.. فتخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة واستراح القلب) [1].

وما أحسن قول الإمام عبد الله بن المبارك يرحمه الله:

رأيت الذنوبُ تميت القلوبَ وقد يُورثُ الذلَّ إدمانها

وتركُ الذنوبِ حياةُ القلوب وخيرٌ لنفسكَ عصيانها [2]

ومن أبرز المعاصي التي تُقسِّي القلب، وتحرم العبد من أنوار الطاعة وآثارها: أكل المال الحرام، وقد ورد في ذلك الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً..) إلى قوله: (ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمدُّ يديه إلى السماء يا ربُ ياربُ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنّى يستجاب له ؟) [3].

وفي هذا الحديث بيان لحال هذا الرجل الذي يدعو ربه وهو متحقق بكثير من آداب الدعاء والأسباب التي تقتضي الإجابة، فهو يطيل السفر وهذا مظنة حصول انكسار النفس بطول الغربة وتحمل الشاق، ثم هو أشعث أغبر

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٩٦-٩٧.

(٢) الجواب الكافي - ص/٦٣.

(٣) رواه مسلم - كتاب الزكاة - باب قبول الصدقة من الكسب الطيب - رقم /١٠١٥.

خرج متواضعاً متذللاً، كما أنه يمدُّ يديه ويرفعهما إلى السماء بإلحاح وتضرع، " والله سبحانه حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما خائبتين" [1]، ثم إن هذا الرجل يلح في دعائه بتكرير ذكر ربوبية الله عز وجل (يا رب يارب) وهو من أعظم ما يُطلب به إجابة الدعاء [2]، ومع كل ذلك سُدَّت أبواب الإجابة في وجهه لأنه كان يأكل المال الحرام ويتغذى به، وهذا يشير إلى تعلقه وحرصه الشديد على الدنيا وأموالها والتنافس فيها.

فمن أراد أن يتقرب إلى الله سبحانه بالذكر والدعاء فليلزم طاعته وليبتعد عن طريق المعاصي وبخاصة الكسب الحرام لينال الخيرات وتَنزُّل الرحمات.

ولهذا قال سعيد بن جبير رحمه الله: **(الذكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر، وإن أكثر التسبيح وتلاوة الكتاب)** [3].

---

(١) حديث رواه ابن ماجه – كتاب الدعاء – باب رفع اليدين في الدعاء – رقم/٣٨٦٥، والإمام أحمد في المسند ٤٣٨/٥.

(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم ـ للإمام ابن رجب الحنبلي ص /٩٠ـ ٩٢.

(٣) شرح السنة للإمام البغوي ١٠/٥.

الشرط الثاني: حضور القلب:

إذا حرص العبد على اجتناب المعاصي، وسارع إلى التوبة مما اقترفه منها، فإن القلب يُغسل من أدرانه، ويلين من قسوته، وما على صاحبه إلا أن يبادر إلى الطاعات ويكثر من النوافل، ليكون ذلك دواء لهذا القلب الذي أسقمته المعاصي وأوهنته الذنوب.

وأعظم غذاء للقلب يعيد إليه حياته ويقظته ذكر الله تعالى مع التدبر والخشوع والتفكر وذلك بتلاوة القرآن الكريم والتسبيح والتحميد والتهليل والدعاء ونحو ذلك، وبغير التدبر وحضور القلب لا ينال العبد ما يرجوه من ثمرات.

قال تعالى: **﴿كتابٌ أنزلناه إليك مبارك لِّيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الألباب﴾** (سورة ص/ آية ٢٩).

وقال سبحانه: **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾** (سورة محمد/ آية ٢٤).

وقد ذم الله سبحانه قسوة القلب والغفلة عن ذكره وحض على الخشوع والتدبر فقال تعالى: **﴿أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإسلام فَهُوَ عَلى نور مِّن رَّبِّهِ فويلٌ للقاسيةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ أُولئك في ضلال مُّبين، الله نزَّل أحسنَ الحديث كتاباً مُّتشابهاً مَّثاني تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُود الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلِينُ جلودهم وقلوبهم إلى ذِكْرِ اللهِ، ذَلِكَ هُدَى الله يهدي به من يَّشَاء وَمَن**

يضلل ا لله فما له من هاد﴾ (سورة الزمر/ الآيتان ٢٢ - ٢٣) .

كما بين سبحانه أن هذا القرآن لو أنـزل علـى الجبـال القاسـية لخشـعت وتصدعت من خشية ا لله، فقلب المؤمن أحق بالخشوع وأجدر.

قـال تعـالى: **﴿لـو أنزلنــا هــذا القــرآن علــى جبــل لرأيتــه خاشــعاً متصدعاً من خشية ا لله وتلـك الأمثـال نضربهـا للنـاس لعلهـم يتفكـرون﴾**

(سورة الحشر/ آية ٢١).

ولذلك ينبغي للعبد أن يستجلب الخشوع في ذكره وتلاوتـه للقـرآن وأن يحضر قلبه ويبعد عنه الغفلة ليحصل له المقصود.

قال الإمام النووي: (المراد من الذكر حضور القلب، فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر فيحرص على تحصيله، ويتدبر ما يذكر، ويتعقل معناه)[١].

فالذكر والغفلة لا يجتمعان لأن الذكر لا يكون إلا بالتيقظ والتذكـر، ولهذا قـال الإمام المحاسبي:

(التيقظ أصل كل خير، كما أن الغفلة أصل كل شر)[٢].

ولهذا كان الفرق كبيراً بين من يذكر ربه مع حضور القلب، وبين من يغفـل عن ذكر ا لله سبحانه وقد بين ذلك الحديث النبوي الـذي رواه البخـاري ومسـلم

---

(١) الأذكار للإمام النووي - ص/ ٣٤.

(٢) آداب النفوس للإمام الحارث المحاسبي - ص/ ٦٢.

عن أبي موسى ﷺ أن الرسول ﷺ قال : (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت) [1].

فالذكر حياة للقلب وتنوير له، والغافل عن الذكر شبيه بالأموات لأن الغفلة تميت القلب، ولذلك كان الطريق الأساسي لحياة القلب وتزكية النفس استجلاب الخشوع وطرد الغفلة، ومجاهدة النفس على كمال الخشوع وصدق التوجه إلى الله سبحانه في عبادته، وهذا ما دعانا إليه ربنا سبحانه بقوله تعالى: **﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولايكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾** (سورة الحديد/ آية ١٦).

وقد روى مسلم عن ابن مسعود ﷺ أنه قال : (ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين) [2]، وفي رواية للنسائي : (فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضاً) .

وكما أن الذكر وتلاوة القرآن الكريم لا بد فيهما من حضور القلب، فكذلك الدعاء لا بد له من قلب يقظ وتوجه صادق.

---

(١) رواه البخاري في الدعوات ـ باب فضل ذكر الله ١٦٨/٧ ومسلم في المسافرين ـ باب استحباب النافلة ـ رقم/ ٧٧٩.

(٢) رواه مسلم في التفسير ـ باب في قوله تعالى **﴿ألم يأن للذين آمنوا﴾** ـ رقم/ ٣٠٢٧.

ولقد سبق الحديث في مبحث الصلاة عن الخشوع والتدبر والأسباب المساعدة لحصوله، ولكن الذي ينبغي التركيز عليه هنا **لاستجلاب الخشوع وحضور القلب** أمور عديدة، من أبرزها:

١ ـ التدبر. ٢ ـ البكاء. ٣ ـ اغتنام فترات النشاط والراحة.

٤ ـ اغتنام الأوقات والأماكن الفاضلة.

أولاً: التدبر.

التدبر[1] هو الفهم لما يتلو العبد من قرآن وما ينطق به من ذكر ودعاء ونحو ذلك ولو بشكل مجمل، والتأمل في معانيها ومراميها، وأن يقيس المسلم نفسه على ما يتلوه من الأوامر والنواهي ليجد حاله ويعرف تقصيره، وبذلك يستحضر الخشية من الله سبحانه ويخشع قلبه وتسكن جوارحه ويجتهد في الطاعة.

ولذلك يستحب للعبد أن يكرر بعض الآيات الكريمة ويرددها أثناء تلاوته ليكون ذلك أدعى للتدبر والخشوع.

روى النسائي عن أبي ذر ﷺ قال: قام النبي ﷺ بآية يرددها حتى أصبح، وهي قوله تعالى: ﴿**إن تعذبهم فإنهم عبادك**﴾

---

(١) أصل التدبر لغة: التفكر في دبر الأمور، أي في عواقبها وما تؤول إليه.

(سورة المائدة/ من الآية ١١٨)) [1].

وعن تميم الداري ﷺ أنه كرر هذه الآية حتى أصبح ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾(سورة الجاثية/ من الآية ٢١)) [2].

وعن عباد بن حمزة قال : (دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ : ﴿فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السَّموم﴾ (الطور/ آية ٢٧) فوقفتْ عندها فجعلت تعيدها وتدعو، فطال عليَّ ذلك، فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي، ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو) [3].

وكما يطلب التدبر عند تلاوة القرآن الكريم وسماعه، فإنه يطلب عند ذكر الله تعالى، وذلك بأن يستحضر العبد عظمة ربه، ويتفكر في مخلوقاته وبديع صنعه وآلائه ونعمه، ويستشعر مقام العبودية والتذلل لخالقه، وهذا ما أرشد الله إليه عباده بقوله سبحانه :

﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب

---

(١) رواه النسائي ـ ١٧٧/٢.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن ـ للإمام النووي ـ ص/ ٦٧.

(٣) التبيان للإمام النووي ـ ص/ ٦٧.

النار﴾ (سورة آل عمران/ الآيتان ١٩٠ ـ ١٩١).

وكذلك يطلب التدبر عند الدعاء، بأن يتخير العبد من الدعاء المأثور ما يُحرِّك به قلبه ويلِّين قسوته، ويدعو ربه متواضعاً متذللاً بين يديه، ويسأله حاجته كلها وهو موقن بالإجابة.

ثانياً ـ البكاء :

البكاء صفة الخاشعين عند تلاوة القرآن الكريم أو سماع آياته، وعند ذكر ربهم أو دعائه، وعند الوقوف بين يدي مولاهم في الصلوات، فهو ثمرة للخشوع وحضور القلب، كما أنه طريق لاستجلاب الخشوع وإيقاظ القلب.

وقد وصف ربنا سبحانه حال عباده الأبرار فقال تعالى : **﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجَّداً وبُكِيّاً﴾** (سورة مريم/ من الآية ٥٨).

وقال تعال: **﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سُجَّداً ويقولون سبحان ربنا إنْ كان وعد ربنا لمفعولاً ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾** (سورة الإسراء/ الآيات ١٠٧ ـ ١٠٩).

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ آيات من سورة النساء على الرسول ﷺ فقال : (حسبك الآن، فالتفتُّ فإذا عيناه تذرفان)[(١)] .

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن ـ باب قول المقرئ للقارئ حسبك ٦/١١٣، ومسلم في صلاة المسافرين باب فضل استماع القرآن ـ رقم/ ٨٠٠.

وهكذا كان حال الرسـول ﷺ والصحابـة والسـلف الصـالح في تلاوتهـم للقرآن الكريم وذكرهم لله تعالى لهم فيه حنين وأنين ونشـيج وبكـاء، إذا مـرَّ أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفيرجهنم بين أذنه.

فإن لم يجد العبد هذا الخشوع، و لم تسل دموعه بالبكاء، فليجـاهد نفسـه وليتباك مستحضراً خشيته من ربه، فإن هذا التباكي طريق لحضور القلب.

وهذا ما أوصى به الرسول ﷺ أمته كما ورد في حديـث سـعد بـن أبـي وقـاص رضي الله عنه أن الرسـول ﷺ قـال: (**اتلـوا القـرآن وابكــوا، فـإن لم تبكــوا فتباكوا**)[1].

ولهذا قال الإمام السيوطي: (يستحب البكاء عند قراءة القرآن، والتبـاكي لمن لا يقدر عليه، والحزن والخشوع)[2].

كما بين الإمام الغزالي الطريق لاسـتجلاب البكـاء واستحضار الخشـوع وهو أن يحضر في قلبه الحـزن بـأن يتـأمل مـا في القـرآن مـن التهديـد والوعيـد والمواثيـق والعهـود، ثـم يتـأمل تقصـيره في أوامـره وزواجـره فيحـزن لا محالـة ويبكي، فإن لم يحضره حزن وبكاء فليبك على فقد الحزن والبكـاء فـإن ذلـك

---

(١) رواه ابن ماجه - كتاب الزهد -رقم/ ٤١٩٦، وكتاب إقامة الصلاة - رقـم/ ١٣٣٧ وقال الحافظ العراقي في تخريجه على الإحياء (١/٢٧٧): إسناده جيد.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ١/٢٩٧.

أعظم المصائب[1].

ثالثاً ـ اغتنام فترات النشاط والراحة:

لا يمكن للنفس أن تبقى على حالة واحدة من النشاط والهمة، فالمشاغل والمتاعب والأمراض والأكدار تفقد النفس نشاطها، فإذا أراد العبد أن يستحضر الخشوع في قلبه في هذه الحالات قد لا يجد إلى ذلك سبيلاً، ولا بد له من بعض الراحة والترويح عن النفس حتى يجدد نشاطه، وعندها يحضر قلبه وتطمئن نفسه، وهذا ما أرشد إليه الرسول ﷺ في **أحاديث كثيرة منها:**

ـ ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ(يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يملّ حتى تَملُّوا)[2].

وقد بين الإمام النووي رحمه الله ما يرشد إليه هذا الحديث فقال: (في هذا الحديث كمال شفقته ﷺ ورأفته بأمته لأنه أرشدهم إلى ما يصلحهم وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة ولا ضرر، فتكون النفس أنشط والقلب منشرحاً)[3].

ـ وعن أنس رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٢٧٧.

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب صلاة المسافرين ـ باب فضيلة العمل الدائم ـ رقم/ ٧٨٢.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٦/٧١.

الساريتين، فقال: ما هذا الحبل ؟ قالوا : هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به، فقال النبي ﷺ: حلُّوه. ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتَر فليرقد) [1].

- وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : (إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه) [2] - أي يدعو عليها -.

- وعن جندب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: (اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا) [3].

قال الإمام ابن كثير في شرحه لهذا الحديث : (معنى الحديث أنه عليه الصلاة والسلام أرشد وحض أمته على تلاوة القرآن إذا كانت القلوب مجتمعة على تلاوته، متفكرة فيه، متدبرة له، لا في حال شغلها وملالها، فإنه لا يحصل المقصود من التلاوة بذلك، كما ثبت في الحديث " عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملّ الله حتى تملّوا " [4]) [5].

---

(١) رواه البخاري في أبواب التهجد - باب ما يكره من التشديد في العبادة - ٢/٤٨، ومسلم في صلاة المسافرين باب أمر من نعس في صلاته أن يرقد رقم/٧٨٤.

(٢) رواه البخاري في الوضوء - باب الوضوء من النوم - ١/٦٠، ومسلم في الباب السابق نفسه رقم/ ٧٨٦.

(٣) رواه البخاري في فضائل القرآن - باب اقرؤوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم - ٦/١١٥.

(٤) رواه البخاري في الرقاق ٨/١٢٢ وفي الصوم ٣/٥٠، ومسلم - رقم/ ٧٨٥.

(٥) فضائل القرآن للإمام ابن كثير - ٦/١١٥.

فالعبد الموفق هو الذي يغتنم أوقات صحته ونشاطه وفراغه في الإقبال على الطاعات والإكثار من النوافل، لأنه سيجد سهولة في استحضار الخشوع واستجلاب الدموع قد لا يجدها في أوقات التعب والإرهاق.

ومن فرط في هذه الأوقات فهو المغبون، وهذا الغبن أشد مما يتعرض له التجار في تجاراتهم المادية من خسائر فادحة لأن الأموال تعوَّض والأوقات لا تعوض.

وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)(1).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه: (اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك)(2).

وما أحسن قول الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله:

اغتنم ركعتين زُلفى إلى الله   إن كنت فارغاً مستريحاً
وإذا ما هممت بالنطق بالباطل، فاجعل مكانه تسبيحاً(3)

---

(1) رواه البخاري في الرقاق ـ باب الصحة والفراغ ـ ١٧٠/٧.
(2) رواه الحاكم في المستدرك (٣٠٦/٤) وصححه ووافقه الذهبي.
(3) طبقات الشافعية للإمام تاج الدين السبكي ٢٨٦/١.

ومن الآفات التي يقع فيها كثير من المسلمين أنه إذا لمس أحد من نفسه نشاطاً يؤهله لحضور القلب مع ربه في صلاة أو ذكر أو دعاء جاءه الشيطان يسوِّف له، ويذكِّره بأنواع من المشاغل والأعمال ليصده عن طاعة الله.

ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله : (إياك والتسويف، فإنك بيومك ولستَ بغدك، فإن يكن غدٌ لك فكن في غد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن لك غد لم تندم على ما فرطتَ في اليوم)[١].

رابعاً ـ اغتنام الأوقات والأماكن الفاضلة :

لقد اختص الله سبحانه بعض الأوقات والأماكن بمزيد من الفضل، وجعلها موطناً لتنزل الرحمات واستجابة الدعوات، فإذا حرص المؤمن عليها وتعرض لها كان ذلك أدعى لحضور القلب والخشوع والتأثر، ومن هذه الأوقات الثلث الأخيرمن الليل وساعة الإجابة في كل ليلة.

فعن جابر ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة) [٢].

ـ وعن أبي أمامة ﷺ قال : قيل لرسول الله ﷺ: أي الدعاء أسمع ؟

---

(١) اقتضاء العلم العمل للإمام الخطيب البغدادي ـ ص/ ١١٣.

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين ـ باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء ـ رقم/ ٧٥٧.

قال: (جوف الليل الآخر ودُبر الصلوات المكتوبات)[1].

كما أن شهر رمضان المبارك فرصة عظيمة للاستزادة من الذكر والدعاء وتلاوة القرآن الكريم وقيام الليل، فهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار، وفيه ليلة القدر خير من ألف شهر، فمن بادر إلى الطاعات في هذه الأوقات أكرمه الله بتنزل الرحمات فيخشع قلبه ويتذوق حلاوة الطاعة، ويحظى بآثارها في تزكية نفسه واستقامة سلوكه.

وأما الأماكن فأفضلها بيت الله الحرام بجوار الكعبة المشرفة ومسجد النبي ﷺ الذي يحوي روضة من رياض الجنة، فيا سعادة من وفقه الله لذكره وعبادته في تلك البقاع المباركة التي يخشع فيها القلب وتذرف فيها الدموع.

ولا شك أن المساجد عموماً مواضع لتنزل الرحمات، فمن كان يشكو من قسوة قلبه فليسارع إلى المسجد، وليجلس فيه بتواضع وسكينة يدعو ربه ويذكره ويتلو آياته، ويجاهد نفسه على الخشوع والتدبر، وإذا به يجد قلبه حاضراً وقد طُردت منه الغفلة وحلت فيه الطمأنينة.

وهكذا نجد أن حضور القلب يسيرٌ على من يسّره الله عليه، وأن الذي يبذل جهده ليبعد الغفلة عن قلبه لا بد أن يتخذ لذلك الأسباب حتى لا يكون الذكر والدعاء حركة باللسان لا يصحبها الجَنان.

---

(١) رواه الترمذي ـ كتاب الدعوات ـ باب/ ٧٩ ـ رقم/ ٣٤٩٩ وقال: حديث حسن.

وهنا قد يرد سؤال :

إذا كان المسلم لا يجد خشوعاً في الذكر ولا يحضر قلبه فيه فهل يتركه لأنه قليل الجدوى ؟!

والجواب أن الذكر مع غفلة القلب خير من السكوت، لأنه انشغال عضو بطاعة الله وهو على الأقل يحجز هذا العضو ـ وهو اللسان ـ عن المعصية، فالذكر وإن كان مع الغفلة تحصين للّسان من آفاته، ولعل القلب يتحرك بالخشوع ساعة ما، فيترقى هذا الذكر إلى ذكر القلب واللسان، ولو أن اللسان توقف عن الذكر فإن القلب سيزداد غفلة، وينجرف المرء مع دوامة الحياة، وقلما يخطر على باله ذكر ربه[1].

ولا شك أن الذكر ليس مقصوراً على التسبيح والتحميد ونحوهما، وإنما هو شامل لكل طاعة يتلفظ بها اللسان مع حضور القلب، ولهذا قال الإمام ابن تيمية رحمه الله : (إن كل ما تكلم به اللسان وتصوَّره القلب مما يقرِّب إلى الله من تعلم علم وتعليمه، وأمر بمعروف ونهي عن منكر فهو من ذكر الله)[2].

(١) ينظر كتاب : الجانب العاطفي من الإسلام للشيخ محمد الغزالي ـ ص/ ٨٣.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/٦٦١.

آثار النوافل في مجال تزكية النفس :

عندما يبادر العبد إلى الإكثار من الذكر والدعاء وتلاوة القرآن الكريم والاستماع إليه، واغتنام الساعات الفاضلة في قيام الليل، ويجاهد نفسه على الخشوع والتدبر وحضور القلب، فإن ذلك من أعظم القربات إلى الله تعالى، وله آثار عظيمة في تزكية النفس وترقيتها في مقامات الكمال.

وقد سبقت الإشارة في المباحث الماضية إلى آثار كثير من العبادات، وهي أيضاً بلا شك آثار وثمرات لهذه النوافل من ذكر ودعاء وغيره، كما أنها آثار لغيرها من العبادات التي تشمل جوانب حياة المسلم ومجالاتها.
ولذلك سنقتصر هنا على أبرز آثار تلك النوافل التي تتصل بشكل مباشر بالتزكية وهي:

١ ـ المناجاة بين العبد وربه، والتحقق بمقام العبودية :

أعظم ما يظفر به العبد من آثار الذكر والدعاء والتلاوة أنه يناجي ربه ويزداد منه تقرباً ويتحقق بمقام العبودية الحقة التي تعلي قدر صاحبها وتجعله في معية الله سبحانه.

وهذا مصداق قول الحق سبحانه : ﴿**فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون**﴾ (سورة البقرة/ آية ١٥٢).

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: (يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني. إن ذكرني في نفسه ذكرته في

نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) [1].

قال الإمام الشوكاني رحمه الله : (قوله " وأنا معه حين يذكرني " فيه تصريح بأن الله سبحانه وتعالى مع عباده عند ذكرهم له، ومن مقتضى ذلك أن ينظر إليهم برحمته، ويمدهم بتوفيقه وتسديده، فإن قلت : هو مع جميع عباده، كما قال سبحانه : ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ (الحديد/ من الآية ٤).. قلت : هذه معية عامة، وتلك معية خاصة حاصلة للذاكر على الخصوص، بعد دخوله مع أهل المعية العامة، وذلك يقتضي مزيد العناية ووفور الإكرام له والتفضل عليه ومن هذه المعية الخاصة ما ورد في الكتاب العزيز من كونه مع الصابرين وكونه مع الذين اتقوا) [2].

- **ومن أعظم أنواع الذكر تلاوة القرآن الكريم**، فمن أراد أن يناجي ربه فليقرأ القرآن، فهو كلام الله سبحانه، وكلما عظمت محبة الله في قلبك كان إقبالك على تلاوة كتابه أعظم، مع استحضار الخشية منه سبحانه، وتدبر القرآن طريق للتحقق بالعبودية الصادقة والإيمان الكامل.

- وأما الدعاء فهو من أجلى مظاهر العبودية والمناجاة لله سبحانه، ولهذا أمر الله به وتوعد من يستكبر فيترك الدعاء وكأنه مستغن عن ربه.

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء - باب الحث على ذكر الله تعالى - رقم/ ٢٦٧٥.

(٢) تحفة الذاكرين للإمام الشوكاني - ص/ ١١.

قال تعالى: ﴿**وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ (سورة غافر/ آية ٦٠).

قال الإمام ابن كثير: (يستكبرون عن عبادتي، أي: عن دعائي وتوحيدي)(٢).

ولذلك ورد في الحديث عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (**الدعاء هو العبادة**) (٣).

فما أعظم النعمة التي أكرمنا الله بها، وهي التقرب إليه ومناجاته بالدعاء، فالعبد مفتقر إلى مولاه الذي خلقه ورزقه وأغدق عليه النعم، ثم أمره أن يدعوه ويسأله المزيد من كل خير ووعده بالإجابة، وجعل هذا الدعاء - الذي هو لمصلحة العبد - عبادة يثيبه عليها، فكيف يترك العبد سؤال ربه وهو مالك الملك، ويسأل العباد وهم لا يملكون له نفعاً ولا ضراً إلا بإذن الله ؟ !

وما أحسن قول الشاعر:

لا تسألن بُنيَّ آدم حاجة ... وَسَل الذي أبوابه لا توصد

الله يغضب إن تركتَ سؤالَه ... وبُنيَّ آدم حين يُسأل يغضب

---

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٨٦.

(٣) رواه أبو داود - رقم/ ١٤٧٩ والترمذي - رقم/ ٢٩٧٣ وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم في المستدرك ١/٤٩٠ ووافقه الذهبي.

فليستحضر المسلم عظمة مناجاته لربه وهو يدعوه ويرجوه ويتذلل بين يديه، فيجد لذة المناجاة وحلاوة الطاعة، وبخاصة في ساعات الليل الأخيرة التي يأنس بها العباد الصادقون في تقربهم لربهم وخشوعهم بين يديه.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له)[١].

وفي رواية: (من يقرض غير عديم[٢] ولا ظلوم)[٣].

وهذا غاية التفضل منه سبحانه على عباده والمؤانسة لهم، فهو سبحانه خالق الخلق وموفقهم إلى طاعته، ومع ذلك سمى طاعة العبد لمولاه قرضاً، والله غني عن العالمين لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية، ولكنه يدعونا لاغتنام تلك الساعات في جوف الليل لندعوه ونناجيه ونزكي أنفسنا بالتقرب منه، ونتحقق بمقام العبودية الصادقة لله عز وجل.

ولذلك روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله (إذا

---

(١) رواه البخاري في الدعوات ـ باب الدعاء نصف الليل ـ ١٤٩/٧.
ورواه مسلم في صلاة المسافرين ـ باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل رقم/٧٥٨ واللفظ لمسلم.

(٢) عديم: من قولهم أعدم الرجل إذا افتقر فهو معدم وعديم. (شرح النووي على مسلم ٣٨/٦).

(٣) رواه مسلم ـ رقم/ ٧٥٨.

صلى قام حتى تفطَّر رجلاه - وفي رواية : حتى ورمت قدماه - قالت عائشة : يارسول الله، أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: ياعائشة أفلا أكون عبداً شكوراً)[1] .

٢ - غذاء القلب وزيادة الإيمان :

وصف الله عباده المؤمنين بأوصاف كثيرة في تأثرهم بالذكر وتلاوة القرآن الكريم وسماعه، ومن ذلك قوله تعالى : **﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾**(سورة الأنفال - آية/ ٢).

وقوله سبحانه : **﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾** (سورة التوبة/ آية ١٢٤).

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يجتمعون على ذكر الله وتلاوة القرآن ليزدادوا إيماناً وخشية من الله سبحانه وينوروا قلوبهم بذكره وشكره، **وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة**، من أبرزها :

- عن معاوية ﷺ أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال : (ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام

---

(١) رواه مسلم - كتاب صفة المنافقين وأحكامهم - باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة - رقم ٢٨٢١.

ومنَّ به علينا، قال آ لله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا: آ لله ما أجلسنا إلا ذلك.

قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبرائيل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة)[1].

- وعن أنس بن مالك ﷺ قال: (كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: **تعال نؤمن بربنا ساعة**، فقال ذات يوم لرجل فغضب الرجل، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة، فقال النبي ﷺ: (يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة)[2].

- وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأبي موسى الأشعري ﷺ: يا أبا موسى ذكّرنا ربنا، فيقرأ وهم يسمعون ويبكون.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: (ولهذا السماع من المواجيد العظيمة، والأذواق الكريمة، ومزيد المعارف، والأحوال الجسيمة، مما لا يتسع له خطاب ولا يحويه كتاب، كما أن في تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان ما لا يحيط به بيان)[3].

---

(١) رواه مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر رقم/ ٢٧٠١.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب ٢/٤٠٣.

(٣) مجموع الفتاوى ١٠/٨١.

ولا شك أن القرآن **منهج لتربية النفس** وتوجيهها إلى طريق سعادتها وهدايتها، وقد قال المولى سبحانه: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً**﴾ (سورة الإسراء/ الآيتان ٩ - ١٠).

فلقد قرر القرآن الكريم عقيدة التوحيد ورسَّخ مفهومها في النفس، وحدد معالم الحلال والحرام، وسلك في التربية أساليب متنوعة من الترغيب والترهيب والوعظ والتذكير، والتربية من خلال الأحداث والوقائع، كما دعا إلى تقويم النفوس واستقامة السلوك بما حفلت به آياته من مشاهد القيامة وقصص الأنبياء والسابقين.

قال الإمام الآجري رحمه الله: (المؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حسُن من فعله وما قبح فيه، فما حذّره مولاه حذره، وما خوّفه من عقابه خافه وما رغّب فيه مولاه رغب فيه ورجاه، فمن كانت هذه صفته أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته ورعاه حق رعايته)[1].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: (ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل.. فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما،

---

(١) أخلاق حملة القرآن للآجري ص/ ٣٩.

ومآل أهلهما.. وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه.. وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها.. وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وماله من الكرامة إذا قدم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب)[1].

وكذلك الذكر والدعاء وقيام الليل يغذي القلب ويزيد الإيمان ويوجه النفس إلى ما فيه صلاحها، وكثيراً ما تجد أناساً شُغلوا بالدنيا وغفلوا عن ربهم ونسوا ذكره، وإذا بهم تهتز أعماق قلوبهم وتنفتح أقفالها بسماع دعاء خاشع، أو صلاة ركعتين في جوف الليل، أو ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى، فتزول عن القلب غشاوته، ويحيا من غفلته.

وقد أرشد الإمام ابن القيم رحمه الله إلى ذلك فقال:

(من تجريبات السالكين التي جربوها فألفوها صحيحة: أن من أدمن " يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت " أورثه ذلك حياة القلب والعقل، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ شديد اللهج بها جداً، وقال لي يوماً: لهذين الإسمين ـ وهما: الحي القيوم ـ تأثير عظيم في حياة القلب)[2].

---

(١) مدارج السالكين ١/٤٥١ ـ ٤٥٢.

(٢) مدارج السالكين ١/٤٤٨.

٣ ـ شفاء النفس وغرس الطمأنينة فيها :

من أبرز آثار الذكر والدعاء وتلاوة القرآن الكريم أنها شفاء للنفس من أمراضها، وبخاصة تلك الأمراض التي أصبحت داء العصر في أيامنا، وحيَّرت الأطباء وعلماء النفس في كثرتها وانتشارها، ألا وهي أمراض القلق والكآبة والاضطراب العصبي والكبت ونحو ذلك، فالمؤمن يجد شفاءه وطمأنينة نفسه وهدوء أعصابه بالتوجه إلى خالقه يذكره ويدعوه ويتلو آيات كتابه الكريم.

قال تعالى : ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً**﴾ (الإسراء/ آية ٨٢).

وقال سبحانه : ﴿**قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء**﴾ (سورة فصلت/ من الآية ٤٤).

وقال عز وجل : ﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر ا لله ألا بذكر ا لله تطمئن القلوب**﴾ (سورة الرعد/ آية ٢٨).

وكما أن ذكر ا لله وتلاوة القرآن شفاء للنفس من القلق والكآبة، فهو أيضاً شفاء للقلب من أمراض الشبهات والشهوات التي إذا ملأت القلب أظلمته وأفسدته، فإذا تغذى القلب بالذكر والقرآن عاد إلى صفائه ونقائه.

وقد روى الإمام أحمدعن عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه أنه قال :

(عليكم بذكر الله فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء) [1] .

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله : (القرآن شفاء لما في الصدور، ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات.. فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يتغذى البدن بما ينميه ويقوِّمه، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن) [2] .

ولعل هذا المعنى الذي أشار إليه الإمام ابن تيمية وهو حاجة القلب إلى غذاء دائم بالذكر والدعاء وتلاوة القرآن، ليكون ذلك تحصيناً له من الأمراض والآفات، هو أحد الحِكم من التأكيد الذي ورد في الكتاب والسنة على الإكثار من الذكر والدعاء، وما يستحب للمسلم أن يداوم عليه من الأدعية والأذكار المأثورة في الصباح والمساء، وعند دخول المنزل أو الخروج منه، وعند دخول السوق أو الأكل أو اللبس، وغير ذلك من أعمال المسلم اليومية، حتى يبقى القلب في وقاية دائمة من كل مرض، فإذا أصيب بمرض عارض كانت تلك الأذكار والدعوات البلسم الشافي الذي تطمئن به القلوب وتحيا به النفوس.

---

(١) كتاب الزهد – للإمام أحمد بن حنبل – ص/ ١٧٩.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/٩٥ ـ ٩٦.

ومن بين تلك الأذكار والدعوات المأثورة دعاء الكرب الذي ورد فيه أحاديث عديدة منها:

ما رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نبي الله ﷺ كان يقول عند الكرب - وفي رواية : كان إذا حزبه أمر - قال : (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم)[1].

فالمسلم يلجأ إلى الله سبحانه وقت الضيق ليجد المأمن والسكينة، فلا يفزع ولا يقلق وهو موقن بأن الله معه، وأنه ناصره ومؤيده، وأنه يجيب دعاء المضطرين.

قال تعالى : ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ (سورة النمل/ من الآية ٦٢).

ولا شك أن أعظم ما يورث السكينة في النفس ويغسل صدأ القلب الاجتماع على تلاوة القرآن الكريم وتدبره والذكر وطلب العلم وبخاصة في المساجد، وقد ورد في فضل ذلك أحاديث عديدة منها :

- عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (.. وما اجتمع قوم

(١) رواه البخاري في الدعوات - باب الدعاء عند الكرب ٧/١٥٤.
ورواه مسلم في الذكر والدعاء - باب دعاء الكرب - رقم/ ٢٧٣٠ واللفظ لمسلم.

في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)[1].

- وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنهما قالا : قال رسول الله ﷺ: (لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده)[2].

- وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : (إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة[3] فُضُلاً[4] يتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم، وحفَّ بعضهم بعضاً بأجنحتهم حتى يملؤا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء، قال : فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم بهم : من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عباد لك في الأرض، يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك.

قال : وما ذا يسألوني ؟ قال : يسألونك جنتك.

قال : وهل رأوا جنتي ؟ قالوا : لا أيْ ربِّ ! قال : فكيف

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء ـ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ـ رقم/٢٦٩٩.

(٢) رواه مسلم ـ رقم/ ٢٧٠٠.

(٣) سيارة : أي سياحون في الأرض.

(٤) فُضُلاً : أي أنهم ملائكة زائدون على الحفظة وغيرهم من المرتبين مع الخلائق، فهؤلاء لا وظيفة لهم إلا حلق الذكر. (ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/١٤).

لو رأوا جنتي؟

قالوا : ويستجيرونك. قال : ومِمَّ يستجيرونني ؟ قالوا : من نارك يارب. قال وهل رأوا ناري ؟ قالوا : لا، قال : فيكف لو رأوا ناري ؟

قالوا : ويستغفرونك. قال فيقول : قد غفرت لهم، فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا، قال فيقولون : رب ! فيهم فلان عبد خطاء، إنما مرَّ فجلس معهم، قال فيقول : وله غفرت، **هم القوم لا يشقى بهم جليسهم**)[1].

فأيُّ بشارة أعظم من ذلك، وأي فضل أكبر من هذا الفضل الذي يكرم الله به عباده الذاكرين الذين تحفهم الملائكة وتتنزل عليهم السكينة، فلا يبقى لأمراض النفس أي سبيل أو مدخل، ولا يتمكن الشيطان من بث سمومه ووساوسه في ذلك القلب المنوَّر بالإيمان ولذلك قال الله تعالى مخبراً عن حمايته لعباده الصالحين من تسلط الشياطين:﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلامن اتبعك من الغاوين**﴾ (سورة الحجر/ آية ٤٢).

وفي ختام هذا الموضوع لا بد من التأكيد على أن فضائل الذكر والدعاء وتلاوة القرآن وقيام الليل وآثار هذه النوافل في مجال تزكية النفس، لا يمكن أن تحيط بها صفحات ولا كتب، ولعل ما ذكرته يلقي بعض الضوء على هذه العبادات الجليلة ودورها العظيم في التزكية بالإضافة إلى العبادات الأخرى.

---

(١) رواه البخاري في الدعوات ـ باب فضل ذكر الله عز وجل ـ ١٦٨/٧.

ولقد جمع الله سبحانه بين الأمر بالذكر وبيان آثاره وثمراته، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ (سورة الأحزاب/ الآيات ٤١ - ٤٣).

وقد استوفى الإمام ابن القيم رحمه الله بيان فوائد الذكر وفضائله فقال : (وفي ذكر الله تعالى أكثر من مائة فائدة : يرضي الرحمن، ويطرد الشيطان، ويزيل الهمّ، ويجلب السرور، ويقوي القلب والبدن، وينور القلب والوجه، ويجلب الرزق، ويكسب المهابة والحلاوة، ويورث محبة الله تعالى التي هي روح الإسلام، ويورث المعرفة والإنابة والقرب وحياة القلب وذكر الله للعبد، وهو قوت القلب وروحه، ويجلو صدأه، ويحط الخطايا ويرفع الدرجات، ويُحدث الأنس ويزيل الوحشة...).

إلى أن قال : (وهو أيسر العبادات وأفضلها، وهو غراس الجنة، ويؤمِّن العبد من نسيان ربه سبحانه...).

ثم قال : (ويدخل في ذكر الله ذكرُ أسمائه وصفاته والثناء عليه بهما وتنزيهه عما لا يليق به، والخبر عن أحكام ذلك، وذكر أمره ونهيه. ويكون الذكر بالقلب واللسان وهو الأكمل، ثم القلب وحده، ثم اللسان وحده، وأفضل أنواع الذكر : القرآن، ثم الذكر والثناء على الله، ثم أنواع

الأدعية)[1].

فالإكثار من ذكر الله حياة للقلب وهداية له وتزكية للنفس وإنقاذ لها من الظلمات وأبرز ما يفعله الشيطان ليصد العبد عن طريق الحق أنه يستحوذ على القلب حتى ينسيه ذكر الله، فيسيطر عليه ويوجهه إلى الشر والغواية.

وقد قال الله سبحانه مخبراً عن هذا الكيد الشيطاني: ﴿**استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله**﴾ (سورة المجادلة/ من الآية ١٩).

كما أخبر عن حال المنافقين فقال سبحانه: ﴿**يُراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً**﴾ (سورة النساء/ من الآية ١٤٢).

نسأل الله أن يجعلنا من عباده المؤمنين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون.

---

(١) انظر : الوابل الصيب من الكلم الطيب – للإمام ابن القيم – من ص/ ٥٧ حتى ١٣٣.

الفصل الثالث

المحاسبة والتوبة

من أبرز الوسائل التي ينبغي على العبد أن يداوم عليها ليترقى في مقامات التزكية أن يحاسب نفسه وينظر في أعماله، فما وجد من خير حمد الله عليه وعزم على المزيد منه، وما وجد من سوء ندم عليه وسارع إلى التوبة منه توبة صادقة.

فلا بد من المحاسبة أولاً ثم التوبة النصوح التي هي ثمرة ونتيجة لهذه المحاسبة، وبهذا ينقسم الحديث في هذا الفصل إلى مبحثين هما: المحاسبة والتوبة.

المبحث الأول

المحاسبة

محاسبة النفس تعني النظر والتأمل فيما عمل المسلم من أعمال، وما قدم من خير أو شر، مع النظر في النية والقصد وحساب الربح والخسائر فيما كان منه وليكون إعداداً لما يستقبل من أيامه بعزم جديد على الاستقامة وبهذا تشمل المحاسبة الماضي والحاضر والمستقبل، وإن كانت في ظاهرها لا تشمل إلا الماضي والحاضر فقط.

الأدلة على ضرورة المحاسبة لكل مسلم:

لا بد لكل مسلم أن يكون له مواقف مع نفسه يحاسبها ويعاتبها ليأمن شرها ويتحكم في قيادها وقد وردت أدلة كثيرة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف الصالح في التأكيد على محاسبة النفس وبيان أهميتها وآثارها النافعة في التزكية.. **ومن هذه الأدلة:**

١ ـ قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾** (سورة الحشر/ آية ١٨).

قال الإمام ابن القيم: (هذه الآية تدل على وجوب محاسبة النفس) [١].

وقال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: **﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد..﴾** أي: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وانظروا ما ذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم.. واعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية) [٢].

٢ ـ وقال تعالى: **﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾**(سورة القيامة/ الآيتان ١ ـ ٢).

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم ١/٨٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٣٦٥ ـ ٣٦٦.

قال مجاهد: اللوامة هي التي تندم على ما فات وتلوم نفسها [1].

وقد أقسم الله بها وذكرها مع يوم القيامة دلالة على شرفها ومنزلتها وبياناً لضرورة المحاسبة وأهميتها.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿**بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره**﴾(سورة القيامة/ الآيتان ١٤ ـ ١٥).

فالإنسان بصير بعيوب نفسه، ولو تظاهر بالأعذار وجادل عن نفسه فلن ينفعه ذلك يوم القيامة وهذه إشارة إلى ضرورة الرجوع إلى النفس ومحاسبتها وكشف عيوبها قبل فوات الأوان.

٤ ـ وعن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الكَيّسُ [2] من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله) [3].

قال الإمام الترمذي: معنى دان نفسه أي: حاسبها في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة [4].

---

(١) آدب النفوس للإمام الآجري ـ ص/ ٢٩.

(٢) الكيِّس: هو العاقل.

(٣) رواه الترمذي ـ كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ـ باب ٢٥ حديث رقم/٢٤٥٩ وقال حديث حسن.

(٤) سنن الترمذي - ٤/٥٥٠.

٥ ـ وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية)[١].

*** كما وردت آثار كثيرة عن السلف الصالح رحمهم الله في وجوب المحاسبة وأهميتها**، ومن هذه الآثار:

ـ قول الحسن البصري رحمه الله: (لا تلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه، ما ذا أردت بكلمتي؟ ما ذا أردت بأكلتي ؟ ما ذا أردت بشربتي ؟ والعاجز يمضي قُدماً لا يعاتب نفسه)[٢].

ـ وقوله أيضاً: (إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته)[٣].

---

(١) رواه الإمام أحمد في كتابه الزهد ص/ ١٧٧، وابن أبي الدنيا في كتابه محاسبة النفس ص/ ٣٠، وأورده الترمذي في سننه ٤/٥٥٠، وابن الجوزي في صفة الصفوة ١/٢٨٦، وابن القيم في إغاثة اللهفان ١/٧٨.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص/ ٣١، وأورده ابن القيم في إغاثة اللهفان ١/٧٨، وابن كثير في تفسيره ٤/٤٤٧.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ـ ص/ ٣٢، وأورده ابن القيم في إغاثة اللهفان ١/٧٨.

ـ وقول ميمون بن مهران: (لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه)[1].

وقال مالك بن دينار[2] رحمه الله: (رحم الله عبداً قال لنفسه النفيسة: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها ثم خطمها[3]، ثم ألزمها كتاب الله فكان لها قائداً)[4].

وهكذا تتوالى أقوال السلف رحمهم الله في التأكيد على ضرورة محاسبة النفس والتدقيق عليها في كل صغيرة وكبيرة ليسلم المسلم من أخطارها وشرورها.

وهناك أمور تعين على هذه المحاسبة وتقوِّي بواعثها في النفس، ومن أبرزها:

١ ـ استشعار رقابة الله على العبد واطلاعه على خفاياه:

الله سبحانه لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى، وهو مطلع على

---

(١) محاسبة النفس ص/ ٣٣، إغاثة اللهفان ١/٧٩.

(٢) مالك بن دينار البصري، يكنى أبا يحيى، توفي سنة ١٣٠ هـ، أسند عن أنس بن مالك وجماعة من كبار التابعين وأخرج له أصحاب السنن، كان مشهوراً بالزهد والورع يأكل من كسبه ويكتب المصاحف بالأجرة.

(٣) الخطام هو الحبل الذي يقاد به البعير والمراد أنه أمسك بقيادها ولم يدع هواها يسيطر عليه.

(٤) محاسبة النفس ص/ ٣٤، إغاثة اللهفان ١/٧٩.

السرائر، يعلم ما توسوس به الأنفس، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، واستشعار هذه الرقابة الربانية كفيل أن يوقظ المسلم من غفلته ويجعله في خشية دائمة من سوء أعماله ويقوي إرادته على محاسبة نفسه ومجاهدتها.

قال تعالى: **﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾**(سورة ق/ الآيات ١٦ - ١٨).

وقال سبحانه: **﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾**(سورة المجادلة/ آية ٧).

وقال عز وجل: **﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم﴾**(البقرة/ من الآية ٢٣٥).

وقد عرّف الإمام ابن القيم (المراقبة) وبين ضرورة تحقق العبد بها، فقال:

(المراقبة دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه.. والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات، فكيف بحال المريدين؟ فكيف بحال العارفين ؟)[1].

---

(١) مدارج السالكين ٦٥/٢.

٢ ـ تذكر الحساب الأكبر والسؤال يوم القيامة:

الحقيقة التي ينبغي للمسلم ألا يغفل عنها أن الله سبحانه سيحاسب العباد يوم القيامة ويسألهم عما قدموا من خير أو شر، ويومئذ تحل بالكفرة والعصاة الندامة والحسرة، و يجد الإنسان أعماله وقد أحصيت عليه لا يغيب منها شيء ولو كان مثقال الذرة.

وقد تظاهرت الآيات القرآنية في بيان تصوير مشاهد الحساب وأهواله بصورة تهز أعماق النفس وتستحث المسلم أن يبادر إلى محاسبة نفسه وتصحيح أخطائها وكشف بواطنها لينجو من مواقف الخزي يوم القيامة ويحظى برحمة الله وسعة فضله فيكون من الفائزين، ومن أبرز الآيات الكريمة التي تصف مشاهد الحساب ومواقفه وشدائده وما يصاحبه من نصب الموازين ونشر الصحف وكتب أعمال العباد قوله تعالى: ﴿**ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً**﴾(الكهف/ آية ٤٩).

وقوله سبحانه: ﴿**يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد**﴾(سورة المجادلة/ آية ٦).

وقوله عز وجل: ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ (سورة الأنبياء/ آية ٤٧).

وبالرغم من رهبة الموقف وشدته وانكشاف خبايا النفوس ونشر صحف الأعمال التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصيت فيها، فإن هناك من يحاول الإنكار ظناً منه أنه سينجو، ولكن الله يبعث شهيداً عليه من نفسه فتنطق أعضاؤه وجوارحه لتكشف خباياه على رؤوس الأشهاد وفي ذلك يقول الحق سبحانه: **﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾**(سورة يس/ آية ٦٥).

ويقول عز وجل: **﴿ويوم يُحْشَرُ أعداء الله إلى النار فهم يوزعون. حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطَقَنَا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾**(سورة فصلت/ الآيات ١٩ - ٢١).

ويقابل تلك المشاهد الرهيبة التي يتعرض لها الكفار والعصاة يوم الحساب، مشاهد أخرى تشرق بالفرحة والسرور لأناس عرفوا طريق الحق فسلكوه واستعدوا ليوم الحساب فكانوا من المتقين فأكرمهم الله بالغفران وآمنهم من المخاوف فانطلقوا يحملون كتب حسناتهم بأيمانهم يتباهون بها في غبطة وسرور، وقد أخبر الله عنهم فقال سبحانه:

﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه فهو في عيشة راضية في جنة عالية﴾(سورة الحاقة/ الآيات ١٩ - ٢٢).

إذا أراد العبد أن يحاسب نفسه فليتذكر هذه المشاهد وليتخذ العبرة منها حتى تقوى في نفسه الهمة على المحاسبة.

وفي ذلك يقول الحسن البصري رحمه الله: (إن المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله عز وجل، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة)[1].

ويقول أيضاً: (أيسر الناس حساباً يوم القيامة الذين يحاسبون أنفسهم في الدنيا، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم، فإن كان الذي هموا به لهم مضوا، وإن كان عليهم أمسكوا، وإنما يثقل الأمر يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور في الدنيا، أخذوها من غير محاسبة فوجدوا الله عز وجل قد أحصى عليهم مثاقيل الذر)[2].

كما ينبغي للمسلم أن يستحضر في نفسه وهو يحاسبها مشاهد القيامة الأخرى بالإضافة لمشهد الحساب والجزاء، فيتصور عوالم القيامة وأهوالها من حشر وصراط وجنة ونار، وبذلك تخشع نفسه وتستجيب للمحاسبة راضية راغبة. وفي ذلك يقول إبراهيم التيمي[3] رحمه الله:

(مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها.. ثم مثلت

---

(١) أدب النفوس ـ للإمام أبي بكر الآجري ـ ص/ ٢٨.

(٢) محاسبة النفس ـ لابن أبي الدنيا ـ ص/ ٩٤.

(٣) هو إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي، من العباد الزهاد، توفي سنة ٩٢ هـ.
(انظر ترجمته في: صفة الصفوة ٣/ ٩٠، تذكرة الحفاظ ١/ ٧٣، شذرات الذهب لابن العماد ١/ ١٠٠).

نفسي في النار آكل من زقومها، وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي أيْ نفسي، أي شيء تريدين ؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً قال: قلت: فأنت في الأمنية فاعملي)[1].

فالنفس تتمنى، ولكن الأماني بدون عمل سراب خادع.

٣ ـ مطالعة سيرة الرسول ﷺ وأصحابه والسلف الصالح:

لا شك أن من أعظم الوسائل العملية في تزكية النفس أن يطالع العبد سيرة الرسول وأصحابه الكرام والسلف الصالح[2] ويرى اجتهادهم في العبادة ومسارعتهم إلى نيل رضاء الله، وبذلك يرى نفسه مقصراً مهما بذل من الطاعات فيسارع إلى محاسبة نفسه على كل عمل يعمله، وكل وقت يضيعه، ليلحق بالسابقين ويسير في ركابهم، لكنه إذا غفل عن هذا الجانب ونظر إلى غيره من العصاة والفسقة فإنه سيصاب بالغرور والرضى عن النفس، وتلك آفة مهلكة ومدخل من مداخل الشيطان لا خلاص منها إلا بالإكثار من مطالعة سير الصالحين من الأنبياء والصديقين والعلماء العاملين، وأن يقيس المسلم نفسه على ما ورد في القرآن الكريم من أوصافهم كما في أوائل سورة المؤمنون وآيات عباد الرحمن في سورة الفرقان ونحو ذلك.

---

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص/ ٣٤.

(٢) سأتحدث بالتفصيل إن شاء الله عن هذا الجانب في فصل مستقل لكن المقصود هنا إبراز أثره في تقوية النفس على المحاسبة.

طريقة محاسبة النفس ومجالاتها:

أورد الإمام ابن القيم رحمه الله في حديثه عن المحاسبة وصفاً للطريقة التي ينبغي للمسلم أن يسلكها في محاسبة نفسه والتدقيق على أعماله، فقال:

(جماع ذلك أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض، فإن تذكر فيها نقصاً تداركه، إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خُلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت إليه رجلاه أو بطشت يداه أو سمعته أذناه: ماذا أرادت بهذا ؟ ولمن فعلته ؟ وعلى أي وجه فعلته ؟ ويعلم أنه لا بد أن يُنشر له لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته ؟ وكيف فعلته ؟ فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة)(١).

فالمحاسبة تشمل حياة المسلم، وكل صغيرة وكبيرة يعملها أو يتركها أو يعزم عليها في قلبه، وكلما أحكم العبد رقابته على نفسه كان أكثر سلامة من شرورها.

ويمكن تقسيم مجالات محاسبة النفس إلى الأقسام التالية:

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم ١/٨٣.

١ ـ المحاسبة على المعاصي الظاهرة والباطنة:

وهو أول ما ينبغي أن يبادر إليه المبتدئ في طريق التزكية. وقد ورد الأمر بذلك في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، منها قوله عز وجل: ﴿**وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون**﴾(سورة الأنعام/ آية ١٢٠).

ويشمل ظاهر الإثم وباطنه كل معصية صغيرة أو كبيرة ظاهرة أو خفية، كما تشمل معاصي القلب من حسد وحقد وسوء ظن واحتقار للمسلم ونحو ذلك، ولا تتحقق للمرء التوبة من هذه المعاصي إلا بالندم على فعلها ومحاسبة نفسه ومعاتبتها والإقلاع عنها والعزم على أن لا يعود إليها.

وليعلم المسلم أن طريقه في محاسبة نفسه على هذه المعاصي أن يذكّرها بأخطارها المهلكة وعواقبها الخطيرة في الدنيا والآخرة، فهي أشدُّ خطراً من السموم فكيف يميل إليها ويرغب فيها ؟

وهل رأيت من يأتي بالأفاعي والعقارب فيربيها في داره ويتركها طليقة تفتك به وتقتله؟

ثم ليعلم أن هذه الجوارح والأعضاء أمانة لديه سيسأل عنها يوم القيامة فإن لم يحفظها أهلكته، قال تعالى: ﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً**﴾(سورة الإسراء/ من الآية ٣٦).

ولا شك أن ترك الفرائض والتهاون فيها من أخطر المعاصي، فيجب على

المسلم أن يحاسب نفسه على أدائه للفرائض وإتقانه لها.

وليتذكر العبد وهو يحاسب نفسه كيف يحاسب الشريك شريكه إذا كان لا يأمن له ويخشى من خيانته.

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (وقد مثّلت النفس مع صاحبها بالشريك في المال، فكما أنه لا يتم مقصود الشركة من الربح إلا بالمشارطة على ما يفعل الشريك أولاً، ثم بمطالعة ما يعمل والإشراف عليه ومراقبته ثانياً، ثم بمحاسبته ثالثاً، ثم يمنعه من الخيانة إن اطلع عليه رابعاً.

فكذلك النفس: يشارطها أولاً على حفظ الجوارح التي حفظها هو رأس المال، والربح بعد ذلك فمن ليس له رأس مال فكيف يطمع في الربح ؟.. وهي مراكب العطب والنجاة... فحفظها أساس كل خير وإهمالها أساس كل شر..

فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح انتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها، فلا يهملها، فإنه إن أهملها لحظة رتعت في الخيانة ولا بد، فإن تمادى على الإهمال تمادت في الخيانة حتى تُذهب رأس المال كله.

فمتى ما أحس بالنقصان انتقل إلى المحاسبة، فحينئذ يتبين له حقيقة الربح والخسران.

فإذا أحس بالخسران وتيقنه استدرك منها ما يستدركه الشريك من شريكه، من الرجوع عليه بما مضى، والقيام بالحفظ والمراقبة في مراقبته

ومحاسبته وليحذر من إهماله)[1].

ونستخلص من هذا القول القيم أن المسلم لا يستغني عن المحاسبة بحال من الأحوال،

وكلما كانت نفسه أمارة بالسوء مصغية لوساوس الشيطان، كان أكثر احتياجاً للمحاسبة ليأمن مكرها وخيانتها، وعليه أن يحاسبها وهو خائف حزين منكسر القلب على ما فرط في جنب الله، فإن فعل ذلك وكانت محاسبته صادقة أبدله الله بالحزن فرحاً وبالذل عزاً.

وقد وصف عبد الله بن مسعود حال المؤمن الصادق في خشيته من ذنوبه وخوفه منها فقال:

(إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا)[2].

٢ ـ المحاسبة على النية والقصد:

لا يتقبل الله سبحانه من العمل إلا ما كان خالصاً له، فالإخلاص أساس قبول الأعمال، قال تعالى: **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾**(سورة البينة/ من الآية ٥).

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١/٧٩ ـ ٨٠.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب الدعوات ـ باب التوبة ـ ٧/١٤٦.

وقد سبق الحديث عن الإخلاص مراراً في الفصول الماضية، ولكن المقصود هنا التنبيه على ضرورة محاسبة النفس على النية والقصد الذي دفعها إلى ذلك العمل، وهذه المحاسبة لا بد منها ليسلم المسلم من الرياء المحبط للأعمال، والرياء قد يسبق العمل وقد يصاحبه وقد يأتي نتيجة وثمرة له.

فقد يصلي العبد ركعتين بخشوع وتضرع فإذا فرغ منهما لاحظ نظر الناس إليه وإعجابهم بصلاته فأصيب بالغرور والعجب، وأرخى لنفسه العنان لتسترسل في آفة الغرور والرضى عن النفس دون أن يضبطها بالمحاسبة، ولذلك كانت المحاسبة في هذا المجال شاملة لثلاثة أنواع: **قبل العمل، وأثناءه، وبعده.**

وقد وصف الإمام ابن القيم رحمه الله النوع الأول وهو المحاسبة على النية والقصد قبل العمل، فقال: (هو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه)[1].

ثم أورد قول الحسن البصري رحمه الله: (**رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر**)[2].

وأما المحاسبة أثناء العمل وبعده فهي حراسة العمل من آفة الرياء المهلكة التي تنشأ من أنانية النفس وحب المباهاة، وسبب ذلك الغفلة عن مراقبة الله سبحانه، وعدم الصبر على طاعته.

---

(١) إغاثة اللهفان ١/٨١.

(٢) المرجع السابق.

وقد حذر المولى عباده من تلك الآفة التي تبطل الأعمال، فقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم**﴾(سورة محمد/ آية ٣٣).

وقال سبحانه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس**﴾(البقرة/ من الآية ٢٦٤).

ولهذا كان السلف الصالح رحمهم الله يحاسبون أنفسهم بشدة على أقوالهم وأفعالهم مخافة الرياء والمباهاة ومن ذلك قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافة المباهاة) [١].

وهكذا ينبغي على العبد أن يطارد مقاصد الرياء المتسللة إلى القلب، وأن يحاسب نفسه على النية الباعثة لكل عمل والمصاحبة لها حتى تكون خالصة لله وحده.

وليضع نصب عينيه قول الحق سبحانه: ﴿**من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب**﴾(سورة الشورى/ آية ٢٠).

٣ ـ المحاسبة على تفويت الطاعات وتضييع الأوقات:

الغفلة داء عضال يجب الحذر منه والمسارعة إلى علاجه، لكي يتيقظ قلب

---

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ٥/١٣٧.

المسلم ويبادر إلى اغتنام أوقاته في مرضاة ربه، ولذلك لا بد من محاسبة النفس على ضياع الأوقات وتفويت الطاعات، وقد صرحت الأحاديث النبوية بوجوب حفظ أوقات المسلم من الضياع وأنه سيسأل عن ذلك يوم القيامة:

فعن أبي بَرْزَة نضْلة بن عُبيد الأسلمي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه)[1].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (إن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم بل أسوأ حالاً منه، فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده.. لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك، ويُقعده عن الاستدراك سِنَة القلب، وهي غفلته التي رقد فيها فطال رقوده.. وانغمس في غمار الشهوات، واستولت عليه العادات، ومخالطة أهل البطالات، ورضي بالتشبه بأهل إضاعة الأوقات، فهو في رقاده مع النائمين.. فمتى انكشف عن قلبه سِنَة هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق في قلبه، استجاب فيها لواعظ الله في قلب عبده المؤمن.. ورأى سرعة انقضاء الدنيا.. فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلاً:

---

(١) رواه الترمذي - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع - حديث رقم/ ٢٤١٧. وقال حديث حسن صحيح، ورواه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل - ص/ ١٧، وأورد المنذري في الترغيب والترهيب ٣٩٦/٤ رواية أخرى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه وقال: رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح.

﴿يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله﴾(سورة الزمر/ آية ٢٠) ، فاستقبل بقية عمره مستدركاً بها ما فات، محيياً بها ما أمات، مستقبلاً بها ما تقدم له من العثرات..

ثم يبرق له في نور اليقظة بارقة أخرى يرى في ضوئها عيوب نفسه وآفات عمله، وما تقدم له من الخبايات والإساءات وهتك الحرمات والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات، فإذا انضم ذلك إلى شهود نعم الله عليه وأياديه لديه، رأى أن حق المنعم عليه في نعمه وأوامره لم يبق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه.. انكسرت نفسه وخشعت جوارحه..

ثم تبرق له بارقة أخرى يرى في ضوئها عزة وقته وخطره وشرفه، وأنه رأس مال سعادته، فيبخل به أن يضيعه فيما لا يقربه إلى ربه، فإن في إضاعته الخسران والحسرة والندامة، وفي حفظه وعمارته الربح والسعادة، فيشح بأنفاسه أن يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده.

ثم يلحظ في ضوء تلك البارقة ما تقتضيه يقظته من سنة غفلته، من التوبة والمحاسبة والمراقبة والغيرة لربه أن يؤثر عليه غيره..

فهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها، وهي أول منازل النفس المطمئنة)[1].

---

(١) الروح لابن القيم ص/ ٢٢٣ - ٢٢٥.

وبهذا يتبين للمسلم أهمية محاسبة النفس على ما ضيعت من أوقات، وكيف يكون إيقاظ النفس وشد همتها لاغتنام الأوقات، فالوقت هو الحياة وما أحسن قول الشاعر:

إذا أنت لم تزرع وألفيت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذر

ويوضح الإمام الغزالي طريقة محاسبة النفس على تضييع الأوقات والغفلة عن الطاعات فيقول: (إذا أصبح العبد، وفرغ من فريضة الصبح، ينبغي له أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر، ومتى في فقد في رأس المال، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه. ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي أنك قد توفيت ثم رددت، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة)[1].

والواقع أن الإنسان يرغب فيما يحب، ويسارع إلى ما يهفو قلبه إليه، فإن كان قلبه متعلقاً بالدنيا ألفيته سباقاً إلى أعمالها وأموالها بطيئاً عن طاعة ربه، وإذا تعلق قلبه با لله سبحانه وخلصه مما يشغل عنه كانت همته إلى الطاعات كبيرة وغفلاته عن ا لله قليلة.

ولذلك ينبغي أن تكون محاسبة العبد لنفسه في هذا المجال ميزاناً يعرف به مستوى الإيمان في قلبه فيسارع إلى تغذية شجرة الإيمان لتثمر المسارعة إلى

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٣٩٤

الأعمال الصالحة.

٤ ـ المحاسبة على النعم.

أخبر الله سبحانه بأن العبد سيسأل يوم القيامة عن شكر ما أنعم به عليه من النعم، فقال تعالى: **﴿ثم لتُسألُنَّ يومئذ عن النعيم﴾**(سورة التكاثر/ آية ٨).

ولا شك أن نعم الله على عباده لا تعد ولا تحصى، وأبرزها نعمة الأمن والصحة والرزق والفراغ والأولاد والذرية ونحو ذلك، قال تعالى: **﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾**(سورة إبراهيم/ من الآية ٣٤).

ولذلك ينبغي على المسلم أن يستشعر نعم الله ويحاسب نفسه على القيام بشكرها ويعاتب تلك النفس إذا تهاونت في شيء من النعم أو استقلت بشأنه.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: (والنعيم المسؤول عنه نوعان: نوع أُخذ من حله وصرف في حقه، فيسأل عن شكره، ونوع أخذ بغير حله وصرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه فإذا كان العبد مسؤولاً ومحاسباً على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه.. فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب)[١].

وقال أيضاً مبيناً مجالات محاسبة النفس على النعم وعبودية العبد تجاهها:

(وأما عبودية النعم فمعرفتها والاعتراف بها أولاً، ثم العياذ به سبحانه أن

---

(١) إغاثة اللهفان ١/٨٤.

يقع في قلبه نسبتها وإضافتها إلى سواه، وإن كان سبباً من الأسباب فهو مسببه ومقيمه، فالنعمة منه وحده بكل وجه واعتبار، ثم الثناء بها عليه ومحبته عليها، وشكره بأن يستعملها في طاعته، ومن لطائف التعبد بالنعم أن يستكثر قليلها عليه، ويستقل كثير شكره عليها)[1].

كما بين رحمه الله أن على العبد أن يقايس بين نعمة الله عليه وبين ما يقع فيه من المعاصي، فحينئذ يظهر له التفاوت، ويعلم أنه ليس له إلا عفو الله ورحمته، فيعاتب نفسه ويتوب إلى ربه[2].

أفضل الأوقات للمحاسبة:

ليس للمحاسبة وقت محدد أو ساعة معينة، فالمسلم رقيب على نفسه يعاتبها ويحاسبها في كل أوقاته، ومع ذلك يستحب له أن يكون له مجلس مع نفسه عندما يريد النوم ليقوم بمحاسبتها وهذا أنفع الأوقات لأنه يحصي على نفسه أعمال يومه ليعرف الربح من الخسائر.

ـ قال الإمام الماوردي رحمه الله في حديثه عن محاسبة النفس: (عليه أن يتصفح في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن الليل أخطر للخاطر وأجمع للفكر، فإن كان محموداً أمضاه، وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذموماً

(١) الفوائد ص/ ١١٣.

(٢) مدارج السالكين ١/ ١٧٠.

استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل)[1].

ـ وقال الإمام ابن القيم رحمه الله وهو يتحدث عن الأسباب المنجية من عذاب القبر:

(ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه، ثم يجدد له توبة نصوحاً بينه وبين الله، فينام على تلك التوبة، ويعزم على أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة، فإن مات من ليلته مات على توبة، وإن استيقظ استيقظ مستقبلاً للعمل مسروراً بتأخير أجله حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فات)[2].

ولا شك أن مما يساعد على صفاء الذهن ساعة المحاسبة أن يجلس العبد بعيداً عن الناس ويخلو بنفسه لأن انشغاله بمن حوله يحول دون صدق المحاسبة وشمولها.

ولهذا قال مسروق[3] رحمه الله: (إن المرء لحقيق أن يكون له مجالس يخلو

---

(١) أدب الدنيا والدين - للماوردي - ص/ ٣٤٢.

(٢) الروح - لابن القيم - ص/ ٧٩.

(٣) هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني من خيار التابعين، سرق وهو صغير ثم وجد فسمي مسروقاً أسند عن عمر وعلي وكثير من الصحابة رضي الله عنهم - توفي بالكوفة سنة ٦٣ هـ.

(تنظر ترجمته في: صفة الصفوة ٣/ ٢٤).

فيها، يتذكر ذنوبه ويستغفر منها)[1].

وفي الختام يمكن تلخيص فوائد المحاسبة وأهميتها في نقاط عدة، وهي:

١ - معرفة حق الله تعالى وهل قام العبد به كما ينبغي، وتدارك ما قصر فيه، والاستزادة مما أحسن فيه.

٢ - الاطلاع على عيوب النفس، ومعالجة أمراضها وآفاتها، وهذا يورث التواضع والانكسار.

٣ - كشف خداع النفس ووساوس الشيطان.

وبهذا تكون المحاسبة وسيلة عملية جليلة لتزكية النفس بتطهيرها من الرذائل وتحليتها بالفضائل، وأما من ترك المحاسبة وأغمض عينيه عن العواقب، فإن ذلك يسهل عليه مواقعة الذنوب والأنس بها والاتكال على العفو والاغترار بالأماني حتى يؤول الحال به إلى الهلاك والخسران المبين، أعاذنا الله من ذلك.

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ٣/٢٦.

المبحث الثاني

التوبة

التوبة هي نَدَمٌ يورث عزماً وقصداً يرجع به الإنسان عن المعصية إلى الطاعة[1]، وحقيقتها أن يندم على ما سلف منه في الماضي، ويقلع عنه في الحال ويعزم على أن لا يعاوده في المستقبل، والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم ويقلع ويعزم، فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خُلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة[2].

وقد بيَّن الإمام ابن القيم رحمه الله الصلة الوثيقة بين المحاسبة والتوبة، فقال: " مِن منزلةِ المحاسبة يصح له نزول منزلة التوبة، لأنه إذا حاسب نفسه، عرف ما عليه من الحق فخرج منه... وهي حقيقة التوبة فكان تقديم المحاسبة عليها لذلك أولى.

ولتأخيرها عنها وجه أيضاً، وهو أن المحاسبة لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة، والتحقيق: **أن التوبة بين محاسبتين**، محاسبة قبلها تقتضي وجوبها،

---

(١) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي ص/٢٥٩.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/١٨٢. وهذه الشروط الثلاثة: الندم والاقلاع والعزم هي شروط التوبة، أما إذا كانت المعصية تتعلق بآدمي فلها شرط رابع وهو رد الظلامة إلى صاحبها أو تحصيل البراءة منه، ينظر: شرح مسلم للنووي ١٧/٢٥.

ومحاسبة بعدها تقتضي حفظها، فالتوبة محفوفة بمحاسبتين "[1].

ولذلك قدم الإمام ابن القيم في مدارجهِ الحديث عن المحاسبة ثم أوضح أن من تحقق بالمحاسبة أشرف منها على مقام التوبة، لأنه بالمحاسبة يتميز عنده ماله مما عليه وبذلك يُجمع همته على التوبة التي ينبغي ألا تفارق السالك إلى ربه حتى الموت[2].

وبذلك يتبين لنا أهمية التوبة كوسيلة عملية لتزكية النفس وترقيتها في مقامات القرب من الله سبحانه، وهذا ما أشار إليه الإمام ابن القيم رحمه الله بقوله: " منزل التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات.. فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية كذلك "[3].

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة على وجوب التوبة ومنزلتها في تحقيق صلاح العبد وفلاحه في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿**وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**﴾(سورة النور/ من الآية ٣١).

وقال سبحانه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفّر عنكم سيئآتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم**

---

(١) مدارج السالكين ١/١٦٩-١٧٠.

(٢) المرجع نفسه ١/١٧٨.

(٣) المرجع نفسه ١/١٧٨.

لا يُخزي ا لله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيدهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾(سورة التحريم/ آية ٨).

والتوبة النصوح ـ كما يقول الإمام ابن كثير ـ هي التوبة الصادقة الجازمة التي تمحو ما قبلها من السيئات وتكفُّه عما كان يتعاطاه من الدناءات، وذلك بأن يقلع عن الذنب في الحاضر ويندم على ما سلف منه في الماضي ويعزم على أن لا يفعل ذلك في المستقبل [(١)].

وقد قسَّم ا لله العباد إلى تائب وظالم، فمن لم يتب فقد استحق أن يكون ظالماً، لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله [(٢)].

قال تعالى: ﴿**ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون**﴾(سورة الحجرات/ من الآية ١١).

وأما الأحاديث النبوية التي تحث على التوبة وتأمر بها فهي كثيرة، من أبرزها:

ـ ما رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن ا لله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيءُ النهار، ويبسط يده بالنهار

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤١٨.
(٢) مدارج السالكين ١/١٧٨.

ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)[1].

- وروى أيضاً عن الأغر المزني ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة"[2].

وقد ذكر العلماء في معنى استغفار الرسول ﷺ وتوبته أقوالاً منها أن المراد أنه إذا فتر عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه عدّ ذلك ذنباً واستغفر منه، أو أن استغفاره ﷺ إظهار للعبودية والتذلل لربه وملازمة للخشوع[3].

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: (الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الإقرار على الذنوب كبارها وصغارها، وهم بما أخبر الله به عنهم من التوبة يرفع درجاتهم ويعظم حسناتهم، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وليست التوبة نقصاً بل هي من أفضل الكمالات وهي واجبة على جميع الخلق.. فغاية كل مؤمن هي التوبة، ثم التوبة تتنوع، كما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين)[4].

ومن رحمة الله بعباده أنه يفرح بتوبة العاصي الذي رجع إليه وأناب، وقد مثّل النبي ﷺ ذلك الفرح بمثال عظيم، وذلك ما رواه مسلم عن أنس

---

(١) رواه مسلم - كتاب التوبة - باب قبول التوبة من الذنوب - رقم/٢٧٥٩.

(٢) رواه مسلم - كتاب الذكر والدعاء - باب استحباب الاستغفار رقم/٢٧٠٢.

(٣) ينظر: شرح مسلم للإمام النووي ١٧/٢٤.

(٤) مجموع الفتاوى ١٥/٥١.

ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرضٍ فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، وقد أيِس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمةً عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح)[1].

وقد علّق الإمام ابن القيم رحمه الله على هذا الحديث النبوي فقال: " هذه فرحة إحسان وبرٍ ولطف، لا فرحة محتاج إلى توبة عبده منتفع بها "[2].

كما قال رحمه الله: " اشتدت محبة الرب له ــ أي للتائب ــ فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، فأوجبت هذه المحبة فرحاً كأعظم ما يُقدَّر من الفرح، ولو كان في الفرح المشهود في هذا العالم نوع أعظم من هذا الذي ذكره النبي ﷺ لذكره، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغِه في سفره، بعد إياسِهِ من أسباب الحياة بفقده"[3].

وبهذا يتبين عظيم فضل الله تعالى وسعة رحمته في قبول توبة عباده، وفرحه سبحانه بتلك التوبة، و لم يجئ هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، ولا شك أن ذلك له تأثير عظيم في حال التائب وإقباله على ربه المنعم

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب التوبة ـ باب الحض على التوبة والفرح بها ـ رقم/٢٧٤٧.

(٢) مدارج السالكين ١/١٩٥.

(٣) المرجع نفسه ١/٢١٥.

المتفضل سبحانه الذي يحب العبد المتذلل إليه المفتقر إلى عفوه.

ويؤكد هذا المعنى ما ورد في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك والتعالى أنه قال: (.. يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم)[1].

التعجيل بالتوبة:

أكد العلماء أهمية التوبة وفرضيتها وعدم جواز التراخي فيها، فقال الإمام النووي رحمه الله: (اتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة، وأنها واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة، والتوبة من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة)[2].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: (إن المبادرة إلىالتوبة من الذنوب فرض على الفور، لا يجوز تأخيرها، فمتى أخّرها عصى بالتأخير، فإذاتاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة، وقلّ أن تخطر هذه ببال التائب.. ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم)[3].

وقد يتساهل العبد في الصغائر ولا يبادر إلى التوبة منها تهويناً لشأنها،

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب البر والصلة ـ باب تحريم الظلم ـ رقم/٢٥٧٧.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ٥٩/١٧.

(٣) مدارج السالكين ٢٧٢/١-٢٧٣.

وإذا بتلك الصغائر تجتمع الواحدة منها تلو الأخرى، ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يُصر عليها فتكون سبباً في هلاكه.

ومصداق ذلك ما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن وادٍ فجاء ذا بعودٍ، وجاء ذا بعودٍ، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه)[1].

فإذا كان معظم النار من مستصغر الشرر، فإن كثيراً من الكبائر لا يصل إليها العبد حتى يتهاون في الصغائر ولا يبالي بها، ويغتر بأماني المغفرة، فتجتمع تلك الصغائر، كما تجتمع الأعواد لتأجيج النار، وتكون العاقبة أن يستقل العبد شأن المعصية، ويخف تأثيرها في نفسه، فيسترسل فيها، ويتجرأ على ربه، حتى يكون تبعاً لهواه وأسيراً لنفسه الأمارة وعبداً للشيطان.

وقد بيّن الإمام ابن القيم خطر التسويف في التوبة والاتكال على أماني المغفرة، فقال رحمه الله: (إن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة، وبالتسويف بالتوبة والاستغفار باللسان تارة، وكثير من الناس

---

(١) رواه الامام أحمد في مسنده ٣٣١/٥، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٩٣/١٠، وقال: رجاله رجال الصحيح، كما صححه السيوطي في الجامع الصغير (فيض القدير ١٢٧/٣).

من يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال: " استغفر الله " زال الذنب، وراح هذا بهذا.. وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء واتكل عليها، وتعلق بكلتا يديه وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء)[1].

ولا شك أن هؤلاء يخادعون أنفسهم، فالذي يحفظ نصوص الرجاء والرحمة ويتكل عليها وينسى نصوص التخويف والوعيد الشديد للعصاة، فكأنه ينظر بعين واحدة، وقد ورد ذكر الرجاء والرحمة مقروناً بالتخويف والوعيد في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿**نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم**﴾(سورة الحجر/ الآيتان ٤٩-٥٠).

وقوله سبحانه: ﴿**إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم**﴾(سورة الأعراف/ من الآية ١٦٧).

فالعاقل الذي يحسن الظن بالله ويرجو رحمته ينبغي عليه أن يحسن العمل، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

وفي هذا يقول الحسن البصري رحمه الله: (إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: لأني أحسن الظن بربي،

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص/٢٠.

وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل)[1].

حاجة الأبرار إلى التوبة والاستغفار:

أهل الطاعة محتاجون إلى التوبة كما يحتاج إليها أهل الذنوب، ومن ظن منهم أنه ليس عنده ما يتوب منه أو أنه مستغنٍ عن التوبة فقد زل، فالتوبة لازمة للعبد من جهات عدةٍ[2]:

١ ـ من الخلل الذي يقع في الطاعات والتقصير فيها.

٢ ـ من التقصير والتفريط في شكر النعم التي لا تعد ولا تحصى، ومهما كان العبد طائعاً فلن يؤدي حقها.

٣ ـ من غلب الهوى والميل إلى ما ترتاح إليه النفس من الطاعات تجنباً لمشقة طاعات أخرى.

٤ ـ مما قد يشوب العمل من الرياء.

وقد ألمح إلى ذلك الإمام ابن تيمية رحمه الله فقال: (العبد دائماً بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنب يحتاج فيه إلى الاستغفار، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائماً، فإنه لا يزال يتقلب في نعم الله وآلائه، ولا يزال محتاجاً إلى التوبة والاستغفار، ولهذا كان سيد ولد آدم وإمام المتقين محمد ﷺ

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص/٢٦.

(٢) ينظر : الجانب العاطفي من الإسلام ـ للشيخ محمد الغزالي ـ ص/١٨٩.

يستغفر في جميع الأحوال)[1].

كما بيّن الإمام ابن القيم حاجة الطائعين إلىالاستغفار فقال رحمه الله: (الرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها، وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه)[2].

آثار التوبة في مجال تزكية النفس:

التوبة دواء ناجع لكل أدواء النفس وأمراض القلب لأنها عودة بالعبد العاصي إلى حلاوة الطاعة والانخلاع عن تعاطي السموم القاتلة التي تفتك بالقلب.

ولعل أبرز آثار التوبة في مجال التزكية الآثار التالية:

١ ـ تذلل العبد لربه وتحققه بصدق العبودية له سبحانه:

لا تتحقق للنفس عزتها وسكينتها إلا إذا تذللت لخالقها وخضعت له سبحانه راضية راغبة، وأقبلت عليه خائفة وجلة، وبذلك تنال الأمن، ويتذوق المسلم لذة المناجاة لخالقه عزوجل فتشرق نفسه وينشرح صدره وتصغر الدنيا في عينيه.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٨٨.

(٢) مدارج السالكين ١/١٧٥.

وأعظم مواطن المناجاة تلك التي يقبل العبد فيها على ربه تائباً نادماً يتوسل إليه ويتضرع بين يديه ويدعوه بخشوع وخضوع أن يقبل توبته ويغفر زلته.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: " من موجبات التوبة الصحيحة كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء.. قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً، كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيده، فأخذ فأحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بداً ولا عنه غناءً ولا منه مهرباً، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته هذا مع حبه لسيده وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع، ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدها عليه.. فليس شيء أحبَّ إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستسلام له، فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: أسألك بعزتك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي وبغناك عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذلَّ لك قلبه...

فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة، وما أسهلها باللسان والدعوى "[1].

٢ ـ تطهير النفس وانشراح الصدر :

عندما يبادر المسلم إلى التوبة ويتحقق منه الندم على ما فرّط ويتذلل لخالقه داعياً أن يغفر ذنوبه، فإن ذلك يعيد إليه الثقة بنفسه بعد أن كان ينفر منها ويكرهها ويحط من شأنها بسبب الآثام التي ارتكبها، ولا شك أن هذا التحرر من الشعور بالذنب دافع قوي إلى تكوين شخصية المسلم الثابتة المطمئنة التي لا تحس بالتوتر ولا تعتريها الكآبة والقلق.

والمؤمن الذي يقع في المعصية لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكنَّ سُكرَ الشهوة يحجبه عن الشعور بهذا الحزن، فإذا انتبه وتيقظ صار ذلك الحزن ناراً تتأجج في قلبه لا يطفئ لهيبها إلا بالتوبة النصوح التي تعيد إلى القلب طمأنينته وتغسل ما علق به من أدران المعاصي، فالقلب مثله كالقِدْرِ الجديد توقد تحتها النار ساعة فتسودُّ، فإن بادرت إلى غسلها انغسلت من ذلك السواد، وإن تركتها وطبخت فيها مرة بعد مرة ثبت السواد فيها حتى تصعب إزالته، والتوبة هي التي تغسل سواد القلب.

---

(١) مدارج السالكين ١/١٨٦-١٨٧.

وقد أثنى الله على عباده المسارعين إلى الخيرات بأوصاف عديدة منها أنهم يبادرون إلى التوبة والاستغفار دون إمهال ولا تسويف طلباً لطهارة النفس وحذراً من سواد القلب فقال تعالى: **﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلاّ الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾**

(سورة آل عمران/ الآيتان ١٣٥-١٣٦).

وقد أوضح الإمام ابن القيم رحمه الله ما يناله التائب من آثار عظيمة يتقلب في بركتها فقال: (إن التوبة توجب للتائب آثاراً عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدونها، فتوجب له من المحبة والرقة واللطف وشكر الله وحمده والرضا عنه عبوديات أخر، فإنه إذا تاب إلى الله تقبل الله توبته، فرتب له على ذلك القبول أنواعاً من النعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها، بل لا يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضها ويفسدها.

ومنها أن الله سبحانه يحبه ويفرح بتوبته أعظم فرح، وقد تقرر أن الجزاء من جنس العمل، فلا ينسى الفرحة التي يظفر بها عند التوبة النصوح.. وهذا أمر لا يحس به إلا حي القلب، وأما ميت القلب فإنما يجد الفرح عند ظفره بالذنب، ولا يعرف فرحاً غيره، فوازن إذا بين هذين الفرحين وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالذنب من أنواع الأحزان والهموم والغموم والمصائب، فمن يشتري فرحة ساعة بغمٍّ الأبد ؟ وانظر ما يعقبه الظفر بالطاعة والتوبة النصوح

من الانشراح الدائم والنعيم وطيب العيش)[1].

٣ ـ الرجاء والمسارعة إلى العمل الصالح:

اليأس داء قاتل، والمريض إذا يئس من الشفاء ترك الدواء وزادت علله وأمراضه بما يعتريه من كآبة وبؤس، حتى يغدو كالميت وإن كان يعيش بين الأحياء.

والعبد المذنب إذا كثرت ذنوبه وسُدَّ أمامه باب التوبة وتوهم أن طريق العودة إلى ربه مقفل في وجهه، فإنه سيصاب باليأس، وينظر إلى الحياة نظرة سوداء قاتمة، وتخبو آخر ومضة من نور الإيمان في قلبه، ويتحول عن الإنسانية التي كرَّمه الله بها إلى درجة أخس من البهائم ويصبح شراً مستطيراً على كل من حوله، لذا حذرنا ربنا سبحانه من اليأس والقنوط من رحمته، وأمرنا أن نسارع إلى التوبة والندم.

فقال تعالى: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون**﴾(سورة الزمر/ الآيتان ٥٣-٥٤)، وقال سبحانه: ﴿**ولا تيأسوا من رَوْح الله إنه لا ييأسُ من رَوْح الله إلا القوم الكافرون**﴾(سورة يوسف/ من الآية ٨٧).

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/٢٩٤.

وقال عزوجل: ﴿قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ (سورة الحجر/ آية ٥٦).

ولقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن نبي الله ﷺ قال: (كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة ؟ فقال: لا، فقتله فكمَّل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة ؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء.

فانطلق حتى إذا نَصّف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله.

وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط.

فأتاهم مَلَك في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة، وفي رواية: فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقرَّبي)(١).

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب التوبة ـ باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ـ رقم/٢٧٦٦.

فالعابد الجاهل الذي سد باب التوبة أمام هذا التائب كان سبباً في إصابته باليأس وعودته إلى ارتكاب جريمة القتل، ولكن هذا اليأس لم يدم طويلاً فقد عاوده الرجاء ثانية ليسأل عن عالم يفتيه في قبول توبته، فلما أفتاه العالم وأرشده إلى طريق التوبة سارع بلا تردد ليحيا من جديد مع قوم أطهار، وبادر بالسفر إلى القرية الصالحة ليعبد الله مع أهلها، وأقبل على ربه بتوبة صادقة فكان أهلاً لسعة رحمة الله تعالى.

وهكذا أعاد الرجاء إلى هذا العبد ثقته بنفسه وشعوره بإنسانيته، وزالت الحجب الكثيفة عن فطرته فبادر إلى التوبة وحطم حواجز اليأس القاتل، ولو أنه استسلم لليأس وقنط من رحمة ربه ومات على ذلك لخسر خسراناً مبيناً.

قصة مؤثرة

أورد الإمام ابن القيم رحمه الله في مدارجه أن بعض الصالحين رأى في أحد الطرق باباً قد فُتح وخرج منه صبي يستغيث ويبكي وأمه خلفه تطرده حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت، فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مفكراً، فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أُخرج منه، ولا من يؤويه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزيناً، فوجد الباب مُرْتَجاً فتوسَّده ووضع خده على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه، فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبله وتبكي، وتقول: يا ولدي أين تذهب عني ؟ ومن يؤويك سواي ؟ ألم أقل لك لا تخالفني، ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلتُ عليه من الرحمة بك والشفقة عليك وإرادتي الخير لك ؟ ! ثم

أخذته ودخلت.

وقد علق الإمام ابن القيم على هذه القصة قائلاً: " فتأمل قول الأم: " لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلتُ عليه من الرحمة والشفقة "

وتأمل قوله ﷺ: " **لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها** "[1].

وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟ فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه، فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأولى به "[2].

وصدق الحق سبحانه القائل: ﴿**إن رحمة الله قريب من المحسنين**﴾(سورة الأعراف/ من الآية ٥٦).

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي

---

(١) الحديث رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة المرأة التي أخذت صبيها فألصقته ببطنها وأرضعته وقد جيء بها إلى رسول الله ﷺ مع السبي فلما رأى ذلك قال ﷺ: " أترون هذه المرأة طارحةً ولدها في النار؟ قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: " لله أرحم بعباده من هذه بولدها " صحيح مسلم ـ كتاب التوبة ـ باب سعة رحمة الله تعالى ـ رقم/٢٧٥٤.

(٢) مدارج السالكين ١/٢١٣-٢١٤.

ﷺ: "(قال الله عز وجل: سبقت رحمتي غضبي)"[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه "[2].

وهكذا ينبغي للمؤمن أن يجمع بين الخوف والرجاء وأن يبادر إلى التوبة النصوح ويدعو ربه وهو موقن بالإجابة، وأن يكثر من الاستغفار، ويذكّر الناس به ليعودوا إلى ربهم تائبين خاضعين.



(١) صحيح مسلم ـ كتاب التوبة ـ باب سعة رحمة الله ـ رقم/٢٧٥١.

(٢) صحيح مسلم ـ رقم/٢٧٥٢.

الفصل الرابع

مجاهدة النفس

من أعظم وسائل التزكية أن يجاهد العبد نفسه حتى تستقيم على شرع الله سبحانه، وقد سبقت الإشارة عند الحديث عن الجهاد وأثره في تزكية أن الجهاد يشمل ثلاثة معان:

الجهاد بالحجة والبرهان، وجهاد القتال بالنفس والمال، وجهاد النفس والشيطان، أو يمكن القول بأن الجهاد يشمل مجاهدة العدو الداخلي والخارجي، ولا شك أن النفس عندما تكون أمارة بالسوء فهي عدوة لصاحبها وخطرها أشد من خطر العدو الخارجي، لأنها لا تقتصر في إهلاكها لصاحبها على إيقاع الضرر به في دنياه، وإنما تجعله يخسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين[(١)].

وبذلك يتبين أن المجاهدة شاقة على النفس، وأن هذه المشقة تزداد كلما ازدادت عداوة النفس لصاحبها وتحكم الأهواء فيها، ولذلك كان لزاماً على

---

(١) لا شك أن من ترك نفسه لهواها ولم يقم بتزكيتها فقد خسر الدنيا وإن جمع من طعامها وانكب على شهواتها، وهذا ما ستتعرض له بالتفصيل في كتابٍ آخر ضمن هذه السلسلة عند الحديث عن ثمرات التزكية.

العبد أن يتحلى بالصبر والمصابرة ليفلح في مجاهدة نفسه والتغلب عليها.

وهكذا يدخل الصبر بجميع مجالاته في مجاهدة النفسس، ومن أبرز هذه المجالات الصبر على طاعة الله والصبر عن معصية الله، والصبر على ما يتعرض له العبد من بلاء حتى لا يتسخط القضاء.

وقد أورد الإمام ابن القيم رحمه الله تعريفات عدة للصبر، من أبرزها قوله: " هو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها "[1]

كما عرَّف الإمام الألوسي رحمه الله الصبر فقال: (هو حبس النفس على ما تكره)[2].

فالصبر زاد المجاهدة، والدافع لاستمرارها وتقويتها، ومن عُدم الصبر لم يفلح في مجاهدة نفسه، وكلما ازداد تعلق النفس بحظوظها وأهوائها ازدادت حاجة العبد إلى الصبر في مجاهدتها والمصابرة على عنادها حتى يلزمها بطاعة الله سبحانه، ولهذا بَيَّنَ الإمام ابن القيم حقيقة الصبر وصلته بالمجاهدة فقال: **"الصبر ثبات باعث العقل والدين في مقابلة باعث الهوى والشهوة"**[3]

ويمكن اعتبار هذا القول تعريفاً لمجاهدة النفس وتوضيحاً لكيفيتها.

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم - ص /١٥.

(٢) روح المعاني للألوسي ١/٢٤٨.

(٣) عدة الصابرين - ص/١٨.

الأدلة على وجوب وفضل مجاهدة النفس:

تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب مجاهدة النفس وإلزامها بشرع الله القويم ومن هذه الأدلة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿**وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير**﴾(سورة الحج / آية ٧٨).

والمجاهدة في الله هي مجاهدة النفس في طاعة الله وردها عن الهوى، ومجاهدة الشيطان في رد وسوسته، والظلمة في رد ظلمهم، والكافرين في رد كفرهم ـ كما قال الإمام القرطبي [(١)].

فمن أبرز ما تأمر به هذه الآية الكريمة مجاهدة الأنفس التي هي أساس لكل مجاهدة، ولذلك قال الإمام عبد الله بن المبارك في تفسيره لهذه الآية: " حق جهاده: مجاهدة النفس والهوى " [(٢)].

ولا شك أن سياق هذه الآية يشير إلى التأكيد على مجاهدة النفس بتحمل التكاليف الشرعية التي شرف الله عبادة بحملها واجتباهم لحمل هذه الأمانة، من بين سائر الخلائق، ولكن هذه التكاليف محفوفة برحمة الله تعالى،

---

(١) تفسير القرطبي ٩٩/١٢.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٧٣/١٢.

بموافقتها للفطرة الإنسانية، وتيسيرها على العباد، وهذا واضح من قوله تعالى في هذه الآية: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾.

فالمسلم عندما يؤمر بمجاهدة نفسه لا يعني ذلك أن يبذل فوق طاقته وأن يتحمل أكثر مما يقدر عليه، وإنما هو ضبط للنفس وتحكم فيها لتسير في طريق صلاحها وسعادتها، وتعتصم بحبل ربها [(١)].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾(العنكبوت/ آية ٦٩).

وهذه الآية كسابقتها وإن كانت في عموم لفظها لا تختص بجهاد النفس لكن تأكيدها على جهاد النفس واضح من دلالتها، ولذلك نقل الإمام ابن كثير عن ابن أبي حاتم قوله في معنى هذه الآية: "الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون" [(٢)].

كما علق الإمام ابن القيم على هذه الآية فقال: "علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٤/٢٤٤٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٢٢.

ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد: **"والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص"**.

ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً، فمن نُصر عليهانصر علىعدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه"[1].

٣ ـ قوله تعالى: **﴿فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾** (سورة النازعات / الآيات ٣٧ ـ ٤١) .

وفي هذه الآيات الكريمة تأكيد على ضرورة مجاهدة النفس وزجرها عن هواها المحرم الذي إن استرسلت فيه أدى إلى طغيانها ونسيانها للدار الآخرة وتعلقها بالحياة الدنيا حتى يكون مأواها نار جهنم مع الهالكين، وإن أقدم العبد على مجاهدتها وعلاجها من آفاتها وألزمها بتقوى الله سبحانه والخوف من عذابه كان من أهل السعادة في جنة المأوى.

وفي هذا بيان لأهمية مجاهدة النفس، وأن قيمة العبد ومكانته عند ربه بحسب ما يبذل من مجاهدة نفسه وتقويمها.

---

(١) الفوائد لابن القيم ص / ٥٩.

وقد قال الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية: "ونهى النفس عن الهوى: أي زجرها عن المعاصي والمحارم"[1].

٤ ـ وأما الأحاديث النبوية التي تحض على مجاهدة النفس فهي كثيرة ومن أبرزها: ما رواه الترمذي وغيره عن فُضالة بن عبيد ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(المجاهد من جاهد نفسه في الله عز وجل)**[2].

ويمكن الإشارة هنا إلى أن كل ما ورد من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية التي تأمر بالصبر عموماً وتحض على لزوم الطاعة والعبادة لله سبحانه والاستقامة على شرعه، فهي أدلة على ضرورة مجاهدة النفس ورياضتها حتى تتعود على الطاعة وتنفر من المعصية.

ومن ذلك قوله سبحانه: **﴿رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً﴾** (سورة مريم / آية ٦٥).

وقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾** (سورة آل عمران / آية ٢٠٠).

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/٢٠٨.

(٢) روه الترمذي ـ كتاب فضائل الجهاد ـ باب في فضل من مات مرابطاً ـ رقم /١٦٢١ وقال حسن صحيح والإمام أحمد في مسنده ٢١/٦، والحاكم في المستدرك ١/١٠ وصححه ووافقه الذهبي، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص / ٦٢، والآجري في أدب النفوس ص/١٤.

وقد أشار الإمام ابن القيم إلى شمول هذه الآية لمعاني الصبر والمرابطة ومجالاتهما فقال رحمه الله: "المرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر، فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته" [1].

وهذه هي حقيقة المجاهدة التي يتوصل بها العبد إلى الثبات والاستقامة على طاعة الله سبحانه، ويترقى بنفسه من حالة النفس الأمارة إلى حالة النفس اللوامة المتيقظة، ثم تترقى حتى تكون نفساً مطمئنة، فتنال رضاء الرحمن وتدخل الجنة مع عباده راضية مرضية.

خطر النفس وضرورة مجاهدتها:

لكي نتبين أهمية مجاهدة النفس وضرورة كبح جماحها والإمساك بقيادها لابد من إلقاء الضوء على ما تتصف به النفس الأمارة من معاندة وزيغ عن طريق الحق، وأن من غفل عنها جعلته عبداً لأهوائها ومن تيقظ لمجاهدتها سلم من شرها، وسار في طريق الاستقامة وقد خفت أمامه العوائق.

يقول الامام ابن القيم رحمه الله: (**النفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله عزوجل**، وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل، فلا بد أن ينتهي إليه، ولكن منهم من هو شاق عليه، ومنهم من هو سهل عليه، وإنه

---

(١) عدة الصابرين - ص / ٢٣.

ليسير على من يسره الله عليه.

وفي ذلك الجبل أودية وشعاب.. ولصوص يقطعون على السائرين.. فإذا لم يكن معهم عدد الإيمان ومصابيح اليقين تتقد بزيت الإخبات، وإلا تعلّقت بهم تلك الموانع، وتشبثت بهم تلك القواطع وحالت بينهم وبين السير.

فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته والشيطان على قلّة ذلك الجبل يحذر الناس من صعوده وارتفاعه ويخوفهم منه... وكلما رقى السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع وتحذيره وتخويفه، فإذا قطعه وبلغ قُلته انقلبت تلك المخاوف كلهن أماناً، وحينئذ يسهل السير، وتزول عنه عوارض الطريق، ومشقة عقباتها، ويرى طريقاً واسعاً آمناً يفضي به إلى المنازل والمناهل..

فبين العبد وبين السعادة والفلاح: قوة عزيمة، وصبر ساعة، وشجاعة نفس، وثبات قلب)[1].

وقد مثل الإمام الآجري رحمه الله النفس بمثل يبرز ضرورة مجاهدة النفس ورياضتها فقال: " اعلم أن النفس مثلها كمثل المُهر الحسن من الخيل، إذا نظر إليه الناظر أعجبه حسنه وبهاؤه، فيقول أهل البصيرة به: لا يُنتفع بهذا حتى يراض رياضة حسنة ويؤدب أدباً حسناً، فحينئذ ينتفع به، فيصلح للطلب

---

(١) مدارج السالكين ٢/٧-٨.

والهرب، ويحمد راكبه عواقب تأديبه ورياضته..

ثم لا يصلح أن يكون الرائض إلا عالماً بالرياضة، معه صبر على ما معه من علم الرياضة فإن كان الرائض لا معرفة له بالرياضة ولا علم بأدب الخيل، أفسد هذا المهر وأتعب نفسه و لم يحمد راكبه عواقبه، وإن كان له معرفة بالرياضة إلا أنه لم يصبر على مشقتها لم يصلح المهر للطلب ولا للهرب وكان له منظر بلا مخبر، وندم على توانيه يوم لا ينفعه الندم)[1].

وكذلك النفس عندما تكون أمارة بالسوء فإنها لا تنقاد للمجاهدة بسهولة، ولابد من ترويضها وبذلك الجهد المتواصل مع الصبر والثبات لكي تلين وتخشع، وعندها تصبح مجاهدتها يسيرة لأنها تتحول من نفس أمارة إلى نفس لوامة تكون عوناً لصاحبها على طريق الخير بعد أن كان عدوة له.

وقد بين الإمام ابن القيم أن معركة المجاهدة بين المسلم ونفسه لابد أن تنجلي عن إحدى حالات ثلاث[2]:

١ ـ الحالة الأولى: تغلب داعي الدين على داعي الهوى.

وهذا الظفر لا يصل العبد إليه إلا بدوام المجاهدة والصبر حتى تتزكى النفس وتسمو.

---

(١) أدب النفوس للإمام أبي بكر الآجري ـ ص/٢٣ـ٢٤، بتصرف.

(٢) ينظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص /٢٧ـ٣٠.

٢ ـ الحالة الثانية: تغلب داعي الهوى على باعث الدين.

وذلك عندما تكون المجاهدة متراخية أو ضعيفة، فتكون الغلبة لداعي الهوى، ويستسلم البائس للشيطان وجنده حتى يكون تابعاً لهم، وقد تغلب عليه شهوته ويشتري الحياة الدنيا بالآخرة حتى يصير الشيطان من جنده، وهذه حال الفاجر القوي المتسلط والمبتدع الداعية لبدعته وضلاله، كما قال القائل:

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتقى بيَ الحال حتى صار إبليس من جندي

٣ ـ الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين فتارة له وتاره عليه، وهذه حال أكثر المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وعندما تكون الحرب سجالاً بين المرء وهواه ينبغي عليه ألا ينفد صبره ويستسلم لشرور نفسه وإنما يصر على المضي إلى هدفه، ويسارع إلى الاستقامة كلما تعثر، ويضع نصب عينيه عقبى المتقين وعقبى الفجار في الدار الآخرة، مما يزيد صبره على المجاهدة خوفاً من عذاب الله ورجاء لرحمته.

فقد وعد الله عباده الموفين بعدهم مع ربهم في سلوك طريق مرضاته، الصابرين على ذلك بمجاهدة نفوسهم، بأنه سبحانه سيمنحهم عقبى الدار في جنة الخلد، فقال تعالى: ﴿**الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما**

رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾

(سورة الرعد / الآيات ٢٠-٢٤).

وأما من استسلم لهواه ونقض عهده مع ربه، وسار في طريق الغواية أسيراً لنفسه وشيطانه فجزاؤه سوء العاقبة يوم القيامة. قال تعالى: **﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾**

(سورة الرعد/ آية ٢٥).

وبهذا يتبين ضرورة مجاهدة النفس وخطر إهمالها أو الاستسلام لأهوائها.

طريقة المجاهدة والعوامل الميسرة لها:

لما أمر الله سبحانه عباده بمجاهدة النفس وتزكيتها، يسر لهم سبل هذه المجاهدة وأوضح معالمها وأرشد إلى ما يسهل مشقتها ويخفف عناءها.

ويمكن إيضاح طريقة المجاهدة والعوامل المساعدة والميسرة لها من خلال الوصايا التالية:

١ - المداومة على العمل الصالح:

العمل الصالح هو الذي يمد العبد بالهمة على مجاهدة نفسه ويبعد الغفلة

عن قلبه، وكلما ازداد تمسك المسلم بالفرائض ومسارعته إلى النوافل كان ذلك زاداً له على طريق المجاهدة وغذاء يشحن قلبه بالعزم والتصميم على مواصلة الطريق.

وما دام العبد مداوماً على العمل الصالح وبخاصة قيام الليل والذكر والدعاء والصدقات وصيام التطوع ونحو ذلك فإنه قادر على مجاهدة نفسه والتغلب عليها، فإذا ترك هذه الطاعات ضعف الزاد وتعثر الجواد.

ولذلك أرشدنا النبي ﷺ إلى أن القليل الدائم من العمل خير من الكثير المنقطع، لأن من يلزم نفسه بعمل كثير قد يستمر عليه فترة من الزمن ثم يتركه، ولا يقدر أن يداوم عليه، فإذا انقطع غفل قلبه من جديد وضعف عن مجاهدة نفسه فرجع إلى سالف عهده.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: " أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلّ "[1].

قال الإمام النووي رحمه الله في بيانه لما يرشد إليه هذا الحديث: " فيه الحث على المداومة على العمل، وأن قليله الدائم خير من كثير ينقطع، وإنما كان القليل الدائم خيراً من الكثير المنقطع، لأنه بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية الإخلاص والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى، ويثمر

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين ـ باب فضيلة العمل الدائم من قيام اللل وغيره ـ رقم /٧٨٢.

القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة)[1] .

فالعمل الصالح زاد للمجاهدة لأنه يمد العبد بالطاقة التي يغلب بها على نفسه الأمارة فإذا توصل العبد في مجاهدتها ورياضتها إلى مستوى معين ثم أهملها وغفل عنها فإنها ستعود إلى سالف عهدها من جديد.

وفي هذا يقول الحكيم الترمذي: " إذا غفلت عن النفس بعدم رياضتها، فلا تأمن أن تعود إلى بعض عاداتها ما دامت الشهوات منها حية، والهوى قائماً "[2].

ـ ويقول الإمام ابن حزم: " **إهمال ساعة يفسد رياضة سنة** "[3] .

ـ ويقول الحافظ ابن حجر العسقلاني: " تمام المجاهدة أن يكون متيقظاً لنفسه في جميع أحواله، فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات "[4].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٧١/٦، وينظر: أدب الدنيا والدين للماوردي ص/١١٣.

(٢) أسرار مجاهدة النفس ـ للحكيم الترمذي ـ ص/٨٤.

(٣) مداواة النفوس للإمام ابن حزم ـ ص/٨٢.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣٣٨/١١.

٢ ـ البعد عن مواطن المعاصي:

المعاصي كالأمراض المعدِية من جالس أهلها أو خالطهم لابد أن يتأثر بهم ولو بعد حين، ولذلك يجب على العبد الذي يسلك طريق المجاهدة أن يلزم نفسه بالابتعاد عن كل ما يجر إلى المعاصي أويذكر بها، وبخاصة رفاق السوء ومجالس اللهو ومواطن المنكرات، كما يجب عليه أن يتلف كل ما لديه من وسائل المعاصي كآلات اللهو وأشرطة الغناء والأفلام والصور الماجنة لأن هذه المنكرات ما دامت قريبة منه فهي أسلحة بيد النفس الأمارة والشيطان المتربص، وهي كالوقود إذا وضع بجانب لهب النار سرعان ما يشتد اشتعاله فيدمر ويهلك.

فمن أراد لزوم طريق الطاعة وبادر إلى التوبة النصوح عن المعاصي وعزم على مجاهدة نفسه للسير بها إلى مرضاة ربه، فليجرد تلك النفس من كل سلاح قد تستخدمه لإعادة العبد إلى طريق السوء أو تُشوِّقه إليه.

وأبرز دليل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم من قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ثم دُل على راهب فقتله فكمَّل به مائة، فلما دُل على عالم وأرشده إلى طريق التوبة، بيَّن له ما يعين على استمرارها وعدم الرجوع عنها ويمده بالطاقة على مجاهدة نفسه، فقال له: "انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض

سوء"[1].

وهكذا يتبين أن البعد عن مواطن المعاصي، وكل ما يتصل بها، أساس لا بد منه لتقوية داعي الإيمان في النفس والتغلب على داعي الهوى، والانتصار على النفس الأمارة بالسوء.

ومن أبسط الأمثلة العملية المؤيدة لذلك أن من أراد الإقلاع عن التدخين، وقد ترك علب السجائر في بيته و لم يتخلص منها، واستمر في تقديمها لضيوفه، فإن امتناعه عن التدخين لن يطول، ولابد أن تضعف إرادته وتخور عزيمته، وهو يرى علب السجائر أمامه صباح مساء، ومهما اعتقد نظرياً بضرر التدخين وشره فإن نفسه ستغلبه لأنه لم يجردها من سلاحها.

٣ - التدرج في مجاهدة النفس:

العزم الأكيد على المبادرة إلى جهاد النفس وعدم التسويف في ذلك لا يعني أن يجاهد العبد نفسه الأمارة في ساعة من الزمن، كأنه يريد أن ينقضّ عليها انقضاضاً، حتى تتخلى عن جميع الصفات المذمومة وتتحلى بالخصال المحمودة دفعة واحدة، فإن هذا مخالف لطبيعة البشر، وبخاصة أن كثيراً من العادات والأفعال السيئة عندما يمارسها الإنسان مدة طويلة من الزمن فإنها تصبح ثابتة في النفس مستقرة فيها، ولابد من إرادة قوية وجهد متواصل

---

(١) رواه مسلم - كتاب التوبة - باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله — رقم / ٢٧٦٦ وقد سبق بنصه في مبحث التوبة.

وتدريب متكرر حتى تتخلى عنها، وتتحول من الشغف والتعلق بها إلى النفور منها والكراهية لها.

وأقرب مثال لذلك الطفل الرضيع الذي اشتد تعلقه بالرضاعة فلو أرادت أمه أن تفطمه دفعة واحدة فإنها لن تتمكن من ذلك وسيزداد تعلق طفلها بالرضاعة وتشوقه إليها، والأسلوب الصحيح أن تحاول الأم بالتدريج وبمختلف الوسائل صرف الطفل عن هذا التعلق الشديد وإيجاد البديل الذي يستغني به عن الرضاعة فإذا انفطم كره أن يعود للرضاعة مرة ثانية ونفر منها:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حُب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وهذا الأسلوب الحكيم في مجاهدة النفس حتى تتحول من محبة المعصية إلى كراهيتها، هو الأسلوب الذي حرّم به الإسلام الخمر والربا وغيرهما من المنكرات التي كانت متأصلة في النفوس حَتّى سارع الصحابة رضي الله عنهم إلى سكب ما لديهم من الخمر في طرقات المدينة بعد أن كانوا قبل الإسلام لا يصبرون على فراقها.

ولا شك أن النفس الأمارة عدو متربص ولا يتم التغلب عليها إلا بالثبات وطول المجاهدة وترسيخ الإيمان وزيادة الصبر حتى تذل وتقنع.

وتحطيم العادات السيئة المتأصلة في النفس مع المبادرة إلى الأعمال الصالحة أشبه بالتدريب الرياضي، فمن أراد التدرب على رياضة ما كالمشي الطويل فلا بد أن يعد نفسه لذلك بالتدريج، ولو أنه بدأ من اليوم الأول مسيراً طويلاً قد لا يتمكن من إتمامه ولا يصبر عليه فيخفق في تحقيق هدفه ويتخلى عنه وييأس

من إكمال الطريق.

والعادة سواء كانت حسنة أو سيئة فإنها تتكون في النفس وتتعمق فيها مرة بعد مرة ، ويعاني الإنسان في بادئ الأمر من الاستمرار فيها إذا لم تكن موافقة لحظوظ النفس ، ولكنه مع التكرار والتدرج يألفها ويتعود عليها.

فإذا أرد العبد أن يستأصل عادة سيئة ويزرع مكانها عادة حسنة وخلقاً فاضلاً فلابد له أولاً من تقوية الهدف الباعث لذلك ثم العزم والتصميم والثقة في النفس وعدم التردد حتى يصل إلى الهدف ويصبح ذلك ملكة وطبعاً مألوفاً، وقد أوضح الإمام ابن القيم هذا المعنى فقال: " المزاولات تعطي الملكات، ومعنى هذا أن من زاول شيئاً واعتاده وتمرن عليه صار ملكة وسجية وطبيعة.. غير أن هذا لانتقال قد يكون ضعيفاً، فيعود العبد إلى طبعه بأدنى باعث "[1].

٤ ـ معاقبة النفس والتشديد عليها:

إذا رأى المسلم من نفسه ميلاً إلى المعاصي وتقصيراً في الطاعات و لم تطاوعه نفسه على سلوك طريق الحق، فليبادر إلى معاقبتها بعقوبة مشروعة حتى تنزجر وتستقيم، وذلك كما يعاقب الأب ولده العاصي لتأديبه وتربيته، فالنفس أحق بالعقوبة والتأديب من الولد ونحوه.

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ـ ص/٢٢.

والمقصود بالعقوبة المشروعة هنا إلزام النفس بشيء يشق عليها فعله بشرط ألاّ يؤدي ذلك إلى ضرر بالجسم أو إيذاء له فلا يجوز أن يعاقب نفسه بالامتناع عن الطعام حتى يشرف على الهلاك أو تعذيب عضو من أعضائه بالنار ونحو ذلك، فإن هذا محرم شرعاً، وهو من الانحرافات التي وقع فيها بعض المشتغلين في تزكية النفس.

وأنفع العقوبات ما كان عملاً صالحاً من الأعمال التي تشق على النفس كالصدقة وصيام عدة أيام وقيام ساعات من الليل، وذلك يختلف بحسب اختلاف النفوس وقوة صبرها.

وقد ألمح الإمام ابن القيم إلى ذلك فقال: " **من الناس من تكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به وثباته عليه أقوى من صبره عما يضره، فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له على داعي هواه إلى ارتكاب ما نهي عنه، ومنهم من تكون قوة صبرة عن المخالفات أقوى من صبره على مشقة الطاعات.. وكثير من الناس يصبر على مكابدة قيام الليل في الحر والبرد وعلىمشقة الصيام ولا يصبر على نظرة محرمة..**"[1] .

وعلى هذا يمكن للعبد أن يلاحظ الأعمال التي تشق على نفسه فيجعلها عقوبة يؤدب بها تلك النفس إذا وقعت في معصية أو فرطت في طاعة.

---

(١) عدة الصابرين ص /١٧-١٨.

فإن ضيّع صلاة الفجر بسبب مشقة الاستيقاظ وترك لذيذ المنام فليقم بإحياء ساعات من إحدى الليالي يهجر فيها مضجعه، وإن قصر في حق غيره بخلاً بالمال فليتصدق ليلزم نفسه بالإقلاع عن تلك الآفة.

فالتشديد على النفس ومنعها مما تحب لفترة محددة ترويضٌ لها وتليين لطبعها وعلاج لأمراضها، وهو بمنزلة الدواء المرّ الذي يشربه المريض وهو كارهٌ له رجاء أن يكون سبباً في الشفاء بإذن الله.

كما أن من وسائل عقوبة النفس منعها من طعام تشتهيه أو نحو ذلك حتى تتخلى عن صفة مذمومة أو عادة سيئة، بل إن تقليل الطعام وعدم الاسراف فيه وسيلة لابد منها لتنشيط النفس على الطاعة وتقوية بواعث المجاهدة، ولهذا ورد في الحديث عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه " [1].

فالاكثار من الطعام والشبع المفرط يثقل عن الطاعات، ومن أكل كثيراً

---

(١) رواه الترمذي ـ كتاب الزهد ـ باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل ـ رقم /٢٣٨٠ وقال حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم ١٢١/٤، وصححه ووافقه الذهبي.

شرب كثيراً فنام كثيراً فخسر كثيراً "[1]

٥ ـ ترويح النفس:

كثرة المجاهدة والاشتغال بتأديب النفس وموعظتها قد يؤدي إلى السآمة والملل، ولذلك لابد من ترويحها بين الحين والآخر ببعض المباحات للتقوّي بها على الطاعات.

ـ ودليل ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود ﷺ قال: " كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا "[2] .

والمقصود من ذلك ـ كما قال الحافظ ابن حجر رحمه الله أنه كان يراعي الأوقات في تذكيرهم ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا يملوا، والضابط في ذلك الحاجة مع مراعاة وجود النشاط[3].

ـ وروى البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا

---

(١) ينظر : مدارج السالكين ١/٤٥٨-٤٥٩.

(٢) رواه البخاري ـ كتاب العلم ـ باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم ـ ١/٢٥.

ورواه مسلم ـ كتاب صفات المنافقين ـ باب الاقتصاد في الموعظة ـ رقم /٢٨٢١.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/١٦٢ ـ ١٦٣.

بالغدوة والروحة وشيء من الدُلجة "[1]

وفي رواية له: "سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا، وشي من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا"[2].

قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث: " الغدوة: سير أول النهار، والرَّوْحة: آخر النهار، والدلجة: آخر الليل، وهذا استعارة وتمثيل ومعناه: استعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون، وتبلغون مقصودكم، كما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته في غيرها، فيصل المقصود بغير تعب"[3].

وفي هذا المثل النبوي البليغ درس توجيهي عظيم لكيفية التعامل مع النفس حتى يصل بها العبد إلى صلاحها بأيسر السبل دون أن يلزمها مالا تطيقه فتنفر منه وتتمرد عليه.

وما أحسن قول الإمام ابن الجوزي رحمه الله وهو يبين أهمية ترويح النفس ومداراتها فيقول: "رُبَّ شدٍّ أوجب استرخاء، وَرُبَّ مُضَيِّقٍ على نفسه

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الإيمان ـ باب الدين يسر ـ ١٥/١.

(٢) رواه البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب القصد والمداومة على العمل ـ ١٨٢/٧.

(٣) رياض الصالحين ـ ص/٧٩.

فَرَّت منه فصعب عليه تلافيها، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل، يحملها على مكروهها في تناول ما ترجو من العافية، ويذوب في المرارة قليلاً من الحلاوة.. فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها ولا يهمل مقودها، بل ليرخي لها في وقت والطول بيده، فما دامت على الجادة لم يضايقها في التضييق عليها، فإذا رآها قد مالت رَدَّها باللطف، فإن وَنتْ[1] وأبتْ فبالعنف" [2]

ولاشك أن هذاالترويح للنفس له أوقات معينة وأهداف محددة، وضوابط شرعية، حتى لا يتحول إلى تضييع وهدر للأوقات واسترخاء للنفس يؤدي إلى تثاقلها عن الطاعة وإخلادها للكسل، فهو كما وصف الإمام ابن الجوزي أن يرخي لجام نفسه دون أن يتركه ويهمله.

ومن وسائل هذا الترويح التمتع بالمباحات دون سرف ولا خيلاء.

وفي ذلك يقول الامام ابن جماعة رحمه الله: (لا بأس أن يريح نفسه إذا خاف مللاً وكان بعض أكابر العلماء يجمع أصحابه في بعض أماكن التنزه في بعض أيام السنة، ويتمازحون بما لا ضرر عليهم في دين ولا عرض) [3].

---

(١) أي ضعفت.

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي - ص/٧٠.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم ـ للإمام أبي عبد الله بن جماعة (ت٧٣٣ هـ) ضمن مجموعة (آداب المعلمين) جمع وتحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ـ ص / ١٨٧.

مجاهدة النفس على الخواطر:

من رحمة الله بعباده أن الخواطر - التي هي حديث النفس - لا حساب عليها مالم تتحول إلى عزم محرم ونية وقصد.

وقد نزل بادئ الأمر على الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿**وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**﴾ (سورة البقرة / من الآية ٢٨٤)، ففهم الصحابة من عمومها المؤاخذة على حديث النفس، وشق ذلك عليهم فأمرهم النبي ﷺ أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، فلما فعلوا ذلك نزلت الآيات التالية[١]، وفيها قوله تعالى: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت**﴾ (سورة البقرة / من الآية ٢٨٦).

كما أن مما يدل على أن الله سبحانه تجاوز برحمته عن الخواطر وحديث النفس ما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أويعلموا به "[٢].

---

(١) ينظر التفصيل في صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان أنه سبحانه لم يكلف إلا ما يطاق - حديث رقم /١٢٥-١٢٦، وينظر: تفسير القرطبي ٤٢١/٣، وابن كثير ٣٤٢/١، قال الإمام ابن رجب الحنبلي: (وقد سمى ابن عباس وغيره ذلك نسخاً، ومرادهم أن هذه الآية أزالت الإبهام الواقع في النفوس من الآية الأولى وبين أن المراد بالآية الأولى العزائم المصمم عليها) - جامع العلوم والحكم ص/٣١١.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب =

ولا شك أن الخواطر منها ما هو داع إلى المعصية ومنها ما هو ترغيب وهمة إلى الطاعة، ولذلك **قسم الإمام الغزالي الخواطر إلى ثلاثة أقسام**[1].

القسم الأول: ما يعلم **قطعاً** أنه داع إلى الشر، فلا يخفى كونه وسوسة.

القسم الثاني: ما يعلم أنه داع إلى الخير فلا يشك في كونه إلهاماً.

القسم الثالث: ما يتردد فيه، فإن من مكايد الشيطان أن يعرض الشر في معرض الخير أحياناً ليستدرج العبد إلىالمعصية بالحيلة ويزينها له[2].

وبهذا التقسيم نتبين أهمية الخواطر باعتبارها البذرة الأولى التي تُنبت العمل سواء كان طاعة أومعصية، وقد أشار الإمام الغزالي إلى ذلك فقال:

(الخواطر هي المحركات للإرادات، فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوي بالبال لا محالة، فمبدأ الأفعال الخواطر، ثم الخاطر يحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك النية، والنية تحرك الأعضاء)[3].

فمن أراد وقاية نفسه من العزم المحرم وما ينتج عنه من فعل المعصية

إذا لم تستقر ـ رقم / ١٢٧.

(١) ينظر: إحياء علوم الدين ٣/٢٩.

(٢) سنتحدث عن مكائد الشيطان ووساوسه عند الحديث عن معوقات التزكية في الباب الرابع من هذا البحث.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/٢٧.

فليجاهد مبدأ هذا العزم ألا وهو الخواطر، لأن معظم النار من مستصغر الشرر، ومن قضى على الشرر سلم من خطر النيران.

وقد أرشد الإمام ابن القيم إلى ضرورة مجاهدة الخواطر لئلا تترسخ في النفس، فقال: (**دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، فدافع الفكرة، فإن لم تفعل صارت شهوة، فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضده صار عادة فيصعب عليك الإنتقال عنها**)[1].

فالخواطر وإن كان الله سبحانه قد عفا عنها إلا أن الاسترسال فيها يؤدي إلىالعزم المحرم حتى يوقع العبد في المعصية، ولذلك لا بد من مجاهدةهذه الخواطر ومتابعة آثارها في النفس حتى تقتلع وتزول.

ولعل مما يستشهد به في هذا المجال ما رواه الترمذي عن عطية السعدي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً لما به البأس "[2].

يضاف إلى ذلك أن ملاحظة خواطر النفس والانتباه إليها يُعرف المسلم بمستوى التزكية التي ارتقت إليها نفسه، فمن كانت خواطر السوء متأججة في

---

(١) الفوائد ـ للإمام ابن القيم ـ ص/٣١.

(٢) رواه الترمذي ـ كتاب صفة القيامة ـ باب / ١٩ ـ حديث رقم / ٢٤٥١ وقال: حديث حسن، وحسّنه محقق جامع الأصول الشيخ عبد القادر الأرناؤوط (٤/٦٨٢).

نفسه فهذا مؤشر خطير على مرض تلك النفس وضعفها وتسلط الشيطان عليها، وعندئذ لا بد له من مجاهدتها واتباع المنهج الإسلامي في تزكيتها حتى تتطهر من أدرانها.

ولو أن العبد المسلم أقلع عن المعاصي وتاب منها، لكنه ما زال يعاني من خواطر السوء التي تدعوه إليها، فليستعن با لله تعالى في مجاهدتها، لأن هذه الخواطر دخان المعاصي، فقد ذهبت العصية وبقي دخانها، وذهب الشيطان وبقي ظلله، ولازال الهوى والتعلق بالمعصية باقياً في قلبه الذي لم يصقل بعد[1]، وفائدة مجاهدة هذه الخواطر انتزاع دخان المعصية حتى تفطم النفس عنها وتنفر منها.

صِلَةُ المجاهدة بالدعوة:

مجاهدة الداعية لنفسه أساس لا بد منه لكي تكون دعوته ناجحة ومؤثرة في نفوس الناس ولكي يتمكن من تزويد الآخرين بالطاقة والقدرة على مجاهدة نفوسهم والانتصار عليها.

وفي ذلك يقول الإمام أبو بكر الآجري رحمه ا لله: " إن من قوّم نفسه حتى تستقيم فبالحري أن ينفع نفسه وغيرها، ومن غلبته نفسه فأنفس الناس أحرى أن تغلبه، وكيف لا يضعف عن أنفس الناس وقد ضعف عن نفسه ؟ وكيف يُؤْمن على كل شيء من الأنفس وهو متهم على نفسه ؟ وكيف

(١) ينظر: أسرار مجاهدة النفس للحكيم الترمذي ـ ص / ٧٦.

يُهتدى بمن قد أضل نفسه ؟...

ومن لم يحسن أن يكون طبيباً لنفسه لم يصلح أن يكون طبيباً لنفس غيره، ومن لم يحسن أن يؤدب نفسه لم يحسن أن يؤدب غيره "[1].

وقد سبقت الإشارة إلى ضرورة اهتمام الداعية بنفسه والحرص على تزكيتها ليحقق النجاح لدعوته، وضرورة أن يعلم نفسه قبل غيره ويلتزم بما يأمر الناس به ليحظى بمرضاة الله سبحانه وينجو من سخطه.

ونختم الحديث في هذا المجال بإعادة التأكيد على ضرورة المجاهدة وتقوية بواعثها في النفس، وبخاصة الخوف من عذاب الله سبحانه والطمع في رضوانه، ولا شك أن النفس لا تصبر على حرمانها مما تشتهي إلا إذا أيقنت بوعد صادق أنها ستعوض بما هو خير وأبقى، ومثلها في ذلك كمن افتقد دراهمه فاشتد حزنه وضاق ذرعاً، فإذا أتاه من يخبره بأنه سيعطيه أضعاف ما فقد اطمأن وانشرح صدره وتحول الحزن إلى سرور، وهكذا شأن المجاهدة يعاني صاحبها من شدائدها في بادئ الأمر فإذا ارتقى إيمانه وازداد يقينه بوعد الله سبحانه وعظيم أجره وفضله سارع بنشاط إلى متابعة الطريق حتى ينتصر على نفسه **فيحس بلذة الظفر ويتذوق حلاوة الإيمان.**

ولذلك كان أول ما أرشد إليه النبي ﷺ الحصين رضي الله عنه عندما أسلم أن يدعو ربه ويلجأ إليه ليعينه على مجاهدة نفسه ويبعد عنه شرورها.

---

(١) أدب النفوس للآجري ص / ٢٥-٢٦.

فقد روى الترمذي عن عمران بن حصين ﷺ أنه قال: ـ وهو يحدث عن إسلام أبيه حصين ـ قال رسـول الله ﷺ: (يـا حصـين أمـا إنـك لـو أسـلمت لعلمتك كلمتين تنفعانك.

قـال: فلمـا أسـلم حصـين قـال: يـا رسـول الله علمـني الكلمتـين اللتـين وعدتني، فقال: (**قل: اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي)** [1].

(١) رواه الترمذي في الدعوات ـ باب (٧٠) ـ حديث / ٣٤٧٩، وقال: حسن غريب.

الفصل الخامس

صحبة الصالحين والتأمل في أخبارهم

صحبة الصالحين ومجالستهم والتأمل في أخبارهم وسيرهم تُكسب المرء الصلاح والتقوى، وترقى بالعبد إلى مدارج الكمال، وتُعدُّ سياجاً واقياً من آفات النفس ومكائد الشيطان.

ولذلك أمرنا ربنا سبحانه بصحبة أهل الصدق والتقوى والحرص على مجالستهم وملازمتهم فقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا ا لله وكونوا مع الصادقين﴾** (سورة التوبة / آية ١١٩).

وقال سبحانه: **﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾** (سورة الكهف / من الآية ٢٨).

كما بين المولى سبحانه أن كل صحبة أو صداقة لا ترتبط عراها على أساس الدين والإيمان والتقوى فسوف تنقلب إلى عداوة يوم القيامة.

قال تعالى: **﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌّ إلاَّ المتقين﴾** (سورة الزخرف / آية ٦٧).

وما أشد موقف الحسرة والندامة لمن انساق وراء أصدقاء السوء وجالسهم حتى كانوا سبباً في إفساده وإبعاده عن طريق أهل الإيمان.

وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿**ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً، يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً**﴾ (سورة الفرقان / الآيات ٢٧-٢٩).

ومن طبيعة الإنسان أنه لا يستغني عن الأصدقاء فهو يحب دائماً أن يكون له أصحاب يلتقيهم ويأنس بمجالستهم، ومن هنا جاءت أهمية اختيار الصحبة، لما لها من أثر بارز في حياة الإنسان، فالصحبة الصالحة تضيء للمسلم طريق الخير، والصحبة السيئة كالمرض المعدي في إهلاكها وانتشار أضرارها وشرورها.

ولذلك أرشد النبي ﷺ في أحاديث كثيرة إلى ضرورة اختيار الجليس الصالح والبعد عن جلساء السوء **ومن هذه الأحاديث:**

١ ـ ما رواه الشيخان عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: **(إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك؛ إما أن يُحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير؛ إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة)** [1].

---

(١) رواه البخاري في البيوع ـ باب في العطار وبيع المسك ٣/١٦، ورواه أيضاً في الذبائح والصيد ـ باب المسك ورواه مسلم في البر والصلة ـ باب استحباب مجالسة الصالحين ـ رقم/ ٢٦٢٨ واللفظ له.

وفي هذا المثل النبوي المحكم إشارة إلى درجات التأثير لكلٍ من الجليس الصالح وجليس السوء **فالجليس الصالح** كحامل المسك، إما أن يحذيك، أي يمنحك من إرشاداته ونصائحه وعلمه، وإما أن تقتبس منه ما يصلح أحوالك ويدلك على الخير، وإن لم يكن هذا ولا ذاك فإنك على أقل الأحوال ستكسب من مجالسته السمعة الحسنة بين الناس، ولابد أن تتأثر من سلوكه وأخلاقه، وعلى الأقل فإن مجالسته تذكرك با لله فلا تقع في المعاصي ولا تفكر فيها.

أما جليس السوء فإنك بمصاحبته تعرِّض نفسك لخطر الانحراف في طريق الفساد، حتى تصبح مثله في ضلاله فيحرق إيمانك كما يحرق نافخ الكير ثياب من اقترب منه، ولو أنك سلمت من التأثير به في بادئ الأمر، وكنت حذراً في مجالسته فإنك لن تسلم من السمعة السيئة، والتأثر النفسي الذي هو بداية للتأثير في السلوك، وذلك ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: " وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة " فمن حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.

فالصاحب ساحب ولو بعد حين، ومن ادعى أنه لا يتأثر بمصاحبة الأشرار فقد أخطأ، لأن أثر الصحبة السيئة يبدأ في القلب الذي يدخله الميل إلىالمعصية والرغبة فيها وعدم إنكارها، ويزداد ذلك التأثر حتى ينعكس علىالسلوك والأفعال، وبمقدار ما يدخل ذلك القلب من ظلمة المعصية بمقدار ما يخرج منه من نور الإيمان.

قال الإمام ابن الجوزي رحمه ا لله: " ما رأيت أكثر أذى للمؤمن من

مخالطة من لا يصلح، فإن الطبع يسرق ، فإن لم يتشبه بهم و لم يسرق منهم فتر عن عمله "[1].

٢ - وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول ا لله ﷺ: **(الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل)**[2].

وفي هذا الحديث النبوي تأكيد على اختيار الصاحب الصالح وبيان لمدى تأثير الصحبة على عقيدة الإنسان وسلوكه، حتى إنه من شدة التأثير يتحول إلى دين خليله وصاحبه، فإن كان ذلك الصاحب مؤمناً زاده تمسكاً بالإيمان ومسارعةً إلى العمل الصالح، وإن كان من أهل الانحراف والفساد انحرف معه وسار في طريقه، ولذلك حثّ الرسول ﷺ على اختيار الصحبة الصالحة فقال: "فلينظر أحدكم من يخالل".

والخلة أعلى درجات الصحبة والمحبة، وهي مأخوذة من تخلل المودة في القلب وتمكنها منه، وفي هذه الحالة يكون التأثير سريعاً إلى درجة أن الخليل يحاكي خليله في أقواله وأفعاله دون أن يبذل جهداً في ذلك.

٣ - وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **(الأرواح جنود مجندة، فما**

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي - ص/٣٦٣.

(٢) رواه أبو داود - كتاب الأدب - باب من يؤمر أن يجالس، رقم / ٤٨٣٣..
والترمذي - كتاب الزهد باب / ٤٥، رقم/٢٣٧٨، وقال حديث حسن، والإمام أحمد في المسند ٢/٣٠٣ وغيرهم.

تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)[1] .

وفي هذا الحديث ـ كما قال الإمام الخطابي ـ إشارة إلى معنى التشاكل في الخير والشر، والصلاح والفساد، وأن الخيرِّ من الناس يحن إلى شكله، والشرير نظير ذلك يميل إلى نظيره[2] ، وموضع الشاهد هنا من هذا الحديث أن مصاحبة الصالحين ضرورة لابد منها ولو وجد المرء في بادئ الأمر عناء في ذلك، فإن هذا العناء دليل على أن نفسه الأمارة بالسوء تدعوه إلى مصاحبة من هو على شاكلته، فإذا جاهد نفسه على مصاحبة الأخيار، ولم يترك أمر الصحبة تبعاً لهوى النفس، فإنه سيحظى بالخير العميم، وسيلاحظ التغير في حاله وسلوكه حتى يألف صحبة الصالحين ولا يستغني عن مجالستهم.

ولا شك أن مما يسهل على النفس صحبة الأخيار، أنهم لما منحهم الله من حسن الخلق في معاملة الناس والتلطف في دعوتهم والرفق بهم، فإن النفوس تميل إليهم بسرعة وتألف مجالستهم ومخالطتهم.

ومصداق ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب البر والصلة والآداب ـ باب الأرواح جنود مجندة ـ رقم/٢٦٣٨. وأورده البخاري تعليقاً في صحيحه ـ كتاب الأنبياء ـ باب الأرواح جنود مجندة.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦/٣٦٩.

قال: **(المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)** [1].

فليحرص المؤمن على مصاحبة الأخيار ومجالسة العلماء لكي يقتبس من أحوالهم ويتأسى بأفعالهم وقد روى الإمام أحمد رحمه الله أن لقمان الحكيم قال لابنه: " يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل القطر " [2].

ومن هنا نتبين أهمية الصحبة الصالحة وضرورة مجالسة الصالحين كما كان عليه حال الصحابة رضي الله عنهم في حرصهم على مجلس الرسول ﷺ ولزوم محبته والاقتداء به.

ولا شك أن العلماء العاملين خير من تنبغي مجالستهم وملا زمتهم، فهم ورثة الأنبياء، وكلما كان العالم أكثر علماً وعملاً وإخلاصاً، فمجالسته غنيمة وصحبته كسب عظيم لكل من أراد سلوك الطريق المستقيم.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (لما كان طالب الصراط المستقيم طالبَ أمرٍ أكثرُ الناس ناكبون عنه.. نبَّه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم الذين: **﴿أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾** (سورة النساء / من الآية ٦٩)، **فأضاف الصراط**

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢/٤٠٠، والطبراني والحاكم وصححه.

(٢) مدارج السالكين ٣/٢٦٢.

إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم ا لله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط: هم الذين أنعم ا لله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له، فإنهم هم الأقلون قدراً وإن كانوا الأكثرين عدداً، كما قال بعض السلف: " عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين "، وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من ا لله شيئاً، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم، فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك)[1].

ثم قال رحمه ا لله: (القصد أن في ذكر الرفيق ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم، وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت: " اللهم اهدني فيمن هديت " أي: أدخلني في هذه الزمرة واجعلني رفيقاً لهم ومعهم)[2].

آثار الصحبة الصالحة في مجال تزكية النفس:

الصحبة الصالحة كنزٌ لا ينفد، ومعين لا ينضب، وكلما كان صلاح الأصحاب أكبر، ازدادت ثمرات تلك الصحبة وعظمت آثارها في مختلف

---

(١) مدارج السالكين ١/٢١ ـ ٢٢.

(٢) المرجع نفسه ١/٢٢.

المجالات، ومن أبرزها مجال تزكية النفس، فالصحبة الصالحة رافد كبير من روافد التزكية بما تمنحه من آثار عظيمة، من أهمها:

١ ـ الحب في الله:

طريق الحب الخالص لله سبحانه هو طريق الجنة، ولا يبلغ العبد منزلة الحب الصادق إلا بصحبة الصالحين، لأن الصحبة تؤدي إلى الألفة، فإذا تعمقت الألفة توثق الحب في الله وأثمر حلاوة الإيمان وحظي المتحابون بمحبة الرحمن.

وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة، منها:

ـ عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ: **(ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار)**[1].

ـ وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أُظلهم في ظلي يوم لا ظلَّ

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الإيمان ـ باب حلاوة الإيمان ـ ٩/١.
ومسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب بيان خصال الإيمان ـ رقم /٤٣.

إلا ظلي)[1].

ـ وعنه ﷺ عن النبي ﷺ قال: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله" وذكر منهم: "ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه)[2].

ـ وعن معاذ بن جبل ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ: (قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ)[3]

فمحبة الصالحين ومجالستهم وزيارتهم توجب محبة الله سبحانه، فما أعظمها من ثمرة يظفر بها المتحابون، وما أسعد العبد الذي يحظى بمحبة الله ورضوانه.

٢ ـ التناصح والتواصي:

الربح الحقيقي للمسلم أن يكون له صحبة ينصحونه ويوصونه بالخير ويذكرونه بربه حتى لا يغفل أو يضل، ولا سعادة للمرء إلا بالإيمان والعمل

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب البر والصلة ـ باب فضل الحب في الله تعالى.

(٢) رواه البخاري ـ كتاب الأذان ـ باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ـ ١٦١/١. ومسلم ـ كتاب الزكاة ـ باب سبعة يظلهم الله ـ رقم /١٠٣١.

(٣) رواه مالك في الموطأ ٩٥٣/٢، بإسناد صحيح كما قال النووي في رياض الصالحين ص/ ١٥٦، ورواه ابن حبان رقم / ٢٥١٠، وصححه، والحاكم ووافقه الذهبي، وصححه المنذري في الترغيب والترهيب ١٨/٤.

الصالح والتواصي بالإستقامة على طريق الحق.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾.

فالله سبحانه يقسم بالعصر على أن الإنسان في خسارة وهلاك إلا الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم وتواصوا فيما بينهم على أداء الطاعات وترك المحرمات، كما تواصوا بالصبر على كل ما يتعرض له المسلم من مصائب ومحن[1].

ولا شك أن العبد المسلم لا يخلو من العيوب ولا يسلم من الأخطاء والزلات، وأن كثيراً من هذه العيوب قد لايلاحظها العبد لأنه أَلِفها واعتاد على فعلها أو لأنه لم يتبصر بخطرها.

فإذا لم يكن له أصحاب أوفياء ناصحون يرشدونه إلى السلوك القويم وينصحونه في كل صغيرة وكبيرة، فإن النفس تستهويها هذه الأفعال حتى تنساق وراءها وتتمادى في انحرافاتها فتهلك، فإذا وجدت الصحبة الصالحة كانت سياجاً واقياً من الهلاك.

وقد شبه الرسول ﷺ ما يقوم به المؤمن من نصيحة أخوانه وتبصيرهم بعيوبهم بأنه كالمرآة تكشف العيوب وترشد إلى مواطن القبح حتى يتلافاها

---

(١) ينظر : تفسير ابن كثير ٤/٥٨٥.

صاحبها.

فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (المؤمن مرآة أخيه، والمؤمن أخو المؤمن، يكفُّ عنه ضيعته ويحوطه من ورائه)[1].

وعندما ينظر الإنسان في المرآة فيرى أوساخاً على وجهه فإنه لا يعاتب المرآة ولا يهجرها وإنما يفرح بما لاحظه من عيوبه التي كشفتها تلك المرآة ويسارع إلى إزالتها،وكذلك الصديق الناصح ينبغي أن نفرح بنصيحته ونشكره عليها ونستجيب لها، ونصبر على مرارتها لأنها ستؤدي إلى نجاتنا من المهالك وطهارة نفوسنا من الدنس.

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: (المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوعٍ من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة ما نحمد معه ذلك التخشين)[2].

فالصاحب الصالح هو الذي يبصِّرك بعيوبك ويرشدك إلى ما يرفع مقامك عند ربك ويذكرك بالآخرة ويخوفك من أهوالها وعذابها، وأما من يقرُّك على أخطائك ويبرر لك كل تصرفاتك، ويزيدك غفلة عن الدار الآخرة

---

(١) رواه أبو داود ـ كتاب الأدب ـ باب في النصيحة ـ رقم / ٤٩١٨، ورواه البخاري في الأدب المفرد ـ باب المسلم مرآة أخيه ـ ص/٩٣، وحسنه محقق جامع الأصول (٥٦٣/٦).

(٢) مجموع الفتاوى ٥٣/٢٨.

فهو عدو يجب البعد عنه: ولهذا قيل: صديقك من صدقك لا من صدَّقك، وقد سأل رجل الحسن البصري رحمه الله فقال: (يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير ؟

فقال: والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خير من أن تصحب أقواماً يؤمِّنونك حتى تلحقك المخاوف)[1].

وما أحسن قول الإمام ابن حزم رحمه الله: (استبقاك من عاتبك، وزهد فيك من استهان بسيئاتك، العتاب للصديق كالسبك للسبيكة)[2].

وقد عرَّف حدَّ الصداقة فقال: (حدّ الصداقة.. أن يكون المرء يسوءه مايسوء الآخر، ويسرُّه ما يسره، فما سفل عن هذا فليس صديقاً.. وليس كل صديق ناصحاً، لكن كل ناصح صديق فيما نصح فيه)[3].

ولا شك أن للنصيحة شروطاً وآداباً، منها أن تكون سراً لا يطلع عليها الناس فالنصحية على الملأ توبيخ وفضيحة، وأن تكون بالحكمة واللطف مع إظهار الشفقة وتأكيد المحبة، وأن يُختار لها الوقت المناسب لتكون أدعى للقبول وأسرع في الاستجابة، فإذا تحققت تلك الشروط انقلبت مرارة النصيحة إلى حلاوة يتذوقها المنصوح ويفرح بها ويدرك أنها هدية ثمينة أهديت إليه.

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم - ص/٢٦.
(٢) مداواة النفوس لابن حزم - ص / ٩٣.
(٣) المرجع نفسه ص/٩٧.

ولذلك كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: (رحم الله امرءاً أهدى إلى أخيه عيوبه)[1].

٣ ـ القدوة الحسنة:

القدوة الحسنة لها تأثير كبير في التربية والتزكية، وهي من أبرز وسائل الإعداد التربوي والاجتماعي والأخلاقي، كما أن القدوة السيئة طريق إلى الانهيار والفساد.

ولذلك أرشدنا المولى سبحانه إلى الاقتداء والتأسي بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقال سبحانه: **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه﴾** (سورة الممتحنة / من الآية ٤) .

وقال سبحانه: **﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾** (سورة الممتحنة / من الآية ٦).

وقال عز وجل: **﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾** (الأنعام/ من الآية ٩٠).

وخاتم الأبنياء محمد ﷺ أعظم قدوة لكل مسلم، وهو الهادي إلى طريق الحق بأقواله وأفعاله، وجميع شؤونه وأحواله وشمائله.

وقد قال الله تعالى فيه: **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن**

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/١٨٣.

كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ (سورة الأحزاب / الآية ٢١).

فاتخاذ القدوة الحسنة أمر لايستغني عنه المسلم، وهو الطريق لحسن العاقبة في الآخرة، ولا تتحقق القدوة إلا بالصحبة، والملازمة لأهل الصلاح، والعلم والتقوى حتى ينظر المسلم في أعمالهم وأخلاقهم وأحوالهم ويتأسى بها.

وقد بيّن الرسول ﷺ أبرز جوانب الاستفادة من مجالسة الصالحين والتلقي عنهم، وذلك في الحديث الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قيل: يا رسول الله: أيُّ جلسائنا خير ؟ قال: من ذكّركم اللهَ رؤيتُه، وزاد في علمكم منطقُه، وذكّركم في الآخرة عمله)[1].

فمصاحبة الصالحين لها آثارها العظيمة في مجال القدوة، وبخاصة في الأمور التالية:

١ ـ التأثر بأخلاقهم وسمتهم ووقارهم وانشراح الصدر بمجالستهم وملازمتهم، مما يؤدي إلى يقظة القلب وطرد الغفلة حتى ولو لم يستمع إلى حديثهم، وهو ما يؤخذ من قول الرسول ﷺ: " من ذكركم بالله رؤيته " فكما أن مجالسة أهل الدنيا والمتنافسين فيها يشغل عن الطاعة ويؤدي إلى الغفلة، فكذلك أهل الصلاح تحيي مجالستهم قلوب الغافلين.

(١) رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٦/١٠.

٢ ـ الاستفادة من علمهم وحديثهم ونصائحهم ومواعظهم، والمسارعة إلىالتأسي بها والاستزادة منها، وهذا ما بينه الرسول ﷺ بقوله: " وزاد في علمكم منطقه ".

٣ ـ الإقبال على الطاعات، وتذكر المصير المحتوم لكل إنسان بحلول الأجل وما يتبع ذلك من سعادة الآخرة أو شقائها، فالصاحب الصالح هو الذين يجعل الدنيا مزرعة للآخرة فإذا رأيت أعماله وانشغاله الدائم بعمارة آخرته لم ترض لنفسك أن تقصِّر عنه وهذا ما أرشد إليه النبي ﷺ بقوله: " وذكّركم في الآخرة عمله ".

فهذه الجوانب الثلاثة من أعظم مايحظى به العبد الموفّق في صحبته للصالحين واقتدائه بهم، ولا شك أن الجانب الأول وهو التأثر بأخلاقهم وسمعتهم لا يقل أهمية عن الجانبين الآخرين، وقد كان السلف الصالح رحمهم الله يهتمون به ويرشدون إليه، وهذه بعض أقوالهم في هذا المجال:

عن الأعمش قال: كانوا يأتون همام بن الحارث [(١)] يتعلمون من هديه وسَمْته [(٢)].

---

(١) همام بن الحارث النخعي أحد أئمة التابعين، وقد أسند عن كثير من الصحابة منهم عمروابن مسعود وحذيفة وعائشة رضي الله عنهم، توفي بالكوفة في ولاية الحجاج (تنظر ترجمته في: صفة الصفوة ٣٦/٣).

(٢) صفة الصفوة ٣٦/٣.

وعن خلف قال: كان محمد بن سيرين [1]، قد أُعطي هدياً وسمتاً وخشوعاً، فكان الناس إذا رأوه ذكروا الله [2].

وعن جعفر قال: كنت إذا وجدت من قلبي قسوة نظرت إلى وجه محمد بن الواسع [3]، نظرة، وكنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع حسبت أن وجهه وجه ثكلى [4].

فمجالسة الصالحين وصحبتهم لها تأثير كبير في الاقتداء بأفعالهم والاستفادة من أقوالهم والتأثر بسمتهم ووقارهم، ومن أكثر مجالستهم لابد أن يتأسى بهم، ويسارع إلى محاكاتهم والتشبه بهم.

ولا يرضى لنفسه أن يقصر عنهم، أو أن يكون في الخير دونهم، فيصيرون سبباً لسعادته وباعثاً على استزادته [5].

---

(١) محمد بن سيرين، مولى أنس بن مالك رضي الله عنه، أسند عن زيد بن ثابت وابن عمر وابن عباس وأنس وكثير من الصحابة رضي الله عنهم، توفي سنة عشر ومائة، صفة الصفوة ٢٤١/٣.

(٢) صفة الصفوة ٢٤٣/٣.

(٣) محمد بن الواسع أحد أئمة التابعين أسند عن أنس بن مالك وروى عن جماعة من كبار التابعين توفي سنة عشرين ومائة (ينظر: صفة الصفوة ٢٧١/٣).

(٤) صفة الصفوة ٢٦٧/٣.

(٥) أدب الدنيا والدين للماوردي ص/١١٢.

وقد حفلت كتب الأدب بالحكم والأشعار في تأثير الصحبة الحسنة وفوائدها وتأثير الصحبة السيئة ومضارها، ومن ذلك قول الشاعر:

رأيتُ صلاحَ المرء يُصلح أهله ويعديهم داءُ الفساد إذا فسد[1].

وقول الشاعر:

لا تصحب الكسلان في حالاته كم صالحٍ بفساد آخر يَفسُدُ

عدوى البليد إلىالجليد سريعةٌ كالجمر يوضع في الرماد فيخمد[2]

البحث عن الصحبة الصالحة:

عندما يطالع المرء أهمية الصحبة الصالحة وضرورتها في حياة المسلم، وآثارها في مجال تزكية النفس واستقامة السلوك، فإن السؤال الذي يطرح نفسه: أين هو ذلك الصاحب الصالح والصديق الصدوق، والأخ المحب الناصح الذي يحب لأخيه ما يحب لنفسه بل إنه يؤثر على نفسه لما يفيض من قلبه من الحب الصادق لإخوانه ؟!.

والواقع أن العثور على هذا المستوى الرفيع من الصحبة الصالحة أمر صعب المنال وبخاصة في هذا الزمان الذي كثرت فيه صداقات المصالح المادية والمنافع الدنيويه، وتغلغل حب الدنيا إلىشغاف القلوب حتى أضحت مقياس التعامل، فلا تقوم صداقة في أغلب الأحيان إلا لتحقيق هدف دنيوي فإذا تحقق

(١-٢) المرجع السابق.

الهدف انقطعت الصداقة بل سرعان ما تنقلب إلى عداوة وكراهية !!.

وقد أدى هذا الواقع المرير إلى وجود نظرة تشاؤمية عند كثير من الناس تدعو إلى البعد عن كل صديق، لأن الصداقة الحقة لم يعد لها وجود، وأن على الإنسان أن يخشى عدوَّه مرة ويخشى صديقه ألف مرة لأنه عدو مستتر وخادع.

ولا يخفى أن هذا التشاؤم له أسبابه الخاصة عند كل إنسان بحيث تجعله ينفر من أخيه الإنسان ويخشى غدره في كل لحظة، حتى قال أحد الشعراء:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى   وصوَّت إنسان فكدتُ أطير

وقد يطرأ على المرء حالة شدة يفتقد فيها للصديق الصدوق ويرى تباعد الناس عنه عند الملمَّات وهو الذي كان يحرص على صحبتهم ومؤازرتهم فيصاب بخيبة أمل تدعوه إلى تلك النظرة التشاؤمية التي يجعل منه قاعدة لا استثناء فيها.

ويبدو أن ذلك حصل للإمام ابن الجوزي رحمه الله مما جعله يقول: " رأيت نفسي تأنس بخلطاء نسميهم أصدقاء، فبحثت بالتجارب عنهم فإذا أكثرهم حساد على النعم، وأعداء لا يسترون زلة، ولا يعرفون لجليس حقاً، ولا يواسون من مالهم صديقاً.. فينبغي أن يعد الخلق كلهم معارف ليس فيهم صديق، بل تحسبهم أعداء.. بل عاملهم بالظاهر، ولا تخالطهم إلا في حالة الضرورة بالتوقي لحظة، ثم انفر عنهم، وأقبل على شأنك متوكلاً على

خالقك"[1]

والواقع أن الصاحب الصالح والصديق المخلص قليل الوجود في عصرنا الحاضر لكن هذا لا يعني التواني في طلبه والتقاعس في البحث عنه، والاسترسال في النظرة التشاؤمية التي تحذّر من جميع الأصحاب وتدعو إلى البعد عنهم، فالعبد المسلم الذي يحرص على تزكية نفسه وتقويم سلوكه، ويعلم أهمية الصحبة الصالحة كوسيلة ناجحة وضرورية لتحقيق التزكية، لا يألو جهداً في البحث الدقيق عن هذه الصحبة والتغاضي عن بعض العيوب التي لا يسلم منها بشر إلا من عصمه الله سبحانه من الأنبياء والرسل.

وفي ذلك يقول الإمام الغزالي: (إنك لو طلبت منزّهاً عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة، ولن تجد من تصاحبه أصلاً، فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوئ، فإذا غلبت المحاسن المساوئ، فهو الغاية والمنتهى، فالمؤمن الكريم يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام)[2].

ولا شك أن الصحبة إذا أريد بها وجه الله سبحانه فإن الله يبارك فيها ويقوّي روابطها ويجعل منها طريقاً للتناصح والتواصي، فينظر الأخ لأخيه بعين الشفقة والرحمة، لا بعين الحقد وتصيُّد العثرات، وعند ذلك لا يسيء الظن به

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي - ص / ٣٨٣.

(٢) إحياء علوم الدين - ١٧٧/٢.

وإنما يلتمس له المعاذير، ويتلطف في نصحه وإرشاده، وينهض كل منهما بصاحبه حتى يستقيما على طريق الحق، ولو أنه ترك صحبته وهجره بسبب هفوة وقعت منه فإنه بذلك يتركه صيداً للشيطان.

وقد أرشد الرسول ﷺ أصحابه إلى أن الرفق بمن وقع في المعصية والتلطف بنصحه أولى من العنف والتغليظ والقطيعة، فقال عليه الصلاة والسلام: (لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم)[1]، ومما ورد عن السلف الصالح رحمهم الله في هذا المجال أن رجلاً كان على حال حسنة فأذنب ذنباً فرفضه أصحابه ونبذوه، فبلغ ذلك إبراهيم النخعي[2] رحمه الله، فقال لهم: (مَهْ تداركوه وعظوه ولا تَدَعوه)[3].

ولذلك ينبغي لمن اتخذ الصحبة الصالحة، وبذل جهده حتى ظفر بهم ألا يسارع إلى الإعراض عنهم لمجرد هفوة أو خطأ حصل من أحدهم، فليس ذلك من الوفاء في شيء، فالصحبة لها حقوق من أهمها التناصح والنُصرة، فهل تترك أخاك أسيراً في يد أعدائه من الشياطين والنفس الأمارة أم تأخذ بيده وتبادر إلى نجدته ؟!.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر ١٥/٨.

(٢) إبراهيم بن يزيد النخعي أحد كبار التابعين، أدرك جماعة من الصحابة منهم: أبو سعيد الخدري وعائشة رضي الله عنهما، توفي سنة خمس وتسعين بالكوفة (صفة الصفوة ٨٩/٣ - ٩٠).

(٣) صفة الصفوة ٨٩/٣.

إن المؤمن قوي بإخوانه، ويد الله على الجماعة، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، فما أعظم آثار صحبة الأخيار في تحصين الإيمان والاستقامة على طاعة الرحمن !!.

التأمل في سير الصالحين ومطالعة أخبارهم:

أكرم الله سبحانه هذه الأمة برجال أطهار وعلماء وصالحين أبرار سارت بأخبارهم الركبان، وحفلت بسيرهم كتب التراجم والتاريخ والوعظ والرقائق، وكانوا مثالاً يحتذى في الالتزام بالإسلام والتخلق بأخلاق القرآن.. رجال هانت عليهم نفوسهم، وغمرت حلاوة الإيمان قلوبهم، واشتد شوقهم وحنينهم إلى لقاء الله تعالى وبلوغ جنته، فشمروا عن ساعد الجد، وسارعوا إلى الخيرات وبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الدعوة إلى الله، **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فكانوا هداة مهتدين.**

ولقد سلك هؤلاء الصالحون طريق الإيمان وترقوا في مدارج الإحسان، وجاهدوا أنفسهم حتى اطمأنت إلى طاعة الرحمن، وتخلصت من أسر الشهوات وتطهرت من الآفات، **ولم يصلوا إلى هذه المنزلة إلا بطول المجاهدة ولزوم الاستقامة.**

فمن أراد أن يسير في طريق التزكية ويتحقق بمقاماتها فليرجع إلى سيرهم وليتأمل أخبارهم وليطالع صفحات أعمالهم وبدائع توجيهاتهم، فهي أكبر دافع للعمل، **فليست التزكية أقوالاً وإنما هي سلوك يُحتذى وتطبيق يُقتدى به، ومشاهد ناطقة وصور صادقة**، يلمس منها المرء تقصيره، ويضعها نصب

عينيه لتكون زاداً له، يزيد همته على الطاعة ويزيل عنه التكاسل والوهن، فيطمح دائماً إلى المزيد.

يقول الإمام ابن رجب الحنبلي في مقدمته لسيرة الشاب الصالح عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز: (إن في سماع أخبار الأخيار مقوياً للعزائم، ومعيناً على اتباع تلك الآثار، وقال بعض العارفين: **الحكايات جند من جنود الله، تقوى بها قلوب المريدين**، ثم تلا قول الله تعالى لرسوله ﷺ: **﴿وكلاًّ نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نُثبتُ به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾** (سورة هود / آية ١٢٠).

وقد رأيت أن أجمع في هذا الجزء أخبار عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز.. لسببٍ اقتضى ذلك، لقد كان رحمه الله تعالى مع حداثة سنّه مجتهداً في العبادة، ومع قدرته على الدنيا وتمكنه منها، راغباً مؤثراً للزهادة، فعسى الله أن يجعل في سماع أخباره لأحد من أبناء جنسه أسوة، لعل أحداً كريماً من أبناء الدنيا تأخذه بذلك حمية على نفسه ونخوة، مع أنه لن يخلو سماع أخبار الصالحين من تحصيل رقة للقلوب وإزالة للقسوة "[١].

ويقول الإمام الصفدي: " إن النفس تستروح إلى مطالعة أخبار من تقدَّم، والمطلعُ على أخبار من دَرَج.. يعود كأنه عاصر أولئك وجلس معهم.. فأفاد ذلك حزماً وعزماً، وموعظة وعلماً، وهِمَّة تُذهب هماً، وبياناً يزيل وهناً

(١) سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز / لابن رجب، ص/٢٧ - ٢٨.

ووهماً "[1].

فإذا كانت كل هذه الفوائد والثمرات يحظى بها المتأمل لسيرة السلف الصالح ممن سار على طريق الأنبياء وتأسى بهم ونهل من موردهم، فكيف بمن يطالع أخبار الأنبياء وقصصهم وشمائلهم وما كانوا عليه من الثبات والفداء، والعزيمة الصادقة والإباء، والسعي المتواصل في مرضاة الله سبحانه، وبخاصة خاتم الأنبياء ﷺ الذي أمرنا الله بالاقتداء به والتمسك بسنته ولزوم محبته، **وكانت سيرته العطرة وشمائله المجيدة تطبيقاً عملياً لمنهج الإسلام في تزكية النفس كما كان المربي والمزكي لنفوس أصحابه الكرام بما آتاه الله من نور النبوة، وبما أنزل عليه من الكتاب والحكمة.**

وقد امتن الله على عباده ببعثة هذا الرسول الأمين ﷺ وجعل من أبرز مهماته تزكية النفوس فقال تعالى: ﴿**لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾ (سورة آل عمران/ آية ١٦٤).

ولذلك كان جيل الصحابة الكرام جيلاً قرآنياً لم تعرف الشهوات المضلة إلى نفوسهم سبيلاً، كانوا كما وصفهم الله سبحانه: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم**

---

(١) الوافي بالوفيات للصفدي ٣/١.

من أثر السجود﴾ (سورة الفتح / من الآية ٢٩).

كانوا كما قال عنهم الحق سبحانه: **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾** (سورة الأحزاب / آية ٢٣).

فلا بد لمن أراد السير في طريق التزكية أن يكون له اهتمام دائم وشغف متواصل بمطالعة سيرة الرسول ﷺ وأصحابه الأبرار، وما كانوا عليه من ثبات على منهج الإسلام واستقامة على الطاعات وتضحية وفداء، وبذل وعطاء وزهد في الدنيا وتشوُّق إلى الآخرة وحنين إلى الجنة، ثم إن هؤلاء الصحابة الكرام تلاميذ أوفياء وهم التابعون ومن جاء بعدهم من السلف الصالح رحمهم الله الذي ساروا على خطى الرسول ﷺ وأصحابه في العلم والعمل والدعوة والجهاد والاشتغال بتزكية النفس حتى تسمو وتطمئن لطاعة الله سبحانه.

ولا شك أن الأمثلة والشواهد من حياة الصحابة والتابعين ومن بعدهم أكثر من أن تحصر في هذا المقام، وقد حفلت بها كتب التراجم والتاريخ والأدب، وازدانت بها كتب التفسير والحديث مما يجعل القارئ لهذه الكنوز من كتب السلف الصالح رحمهم الله يدرك مقدار ما كانوا عليه من الاهتمام بتزكية النفس والحرص على التأسي بالصفوة من عباد الله والسير على خطاهم.

فما أحرانا أن ننهل من معين هذه الأخبار وأن نكثر من مطالعتها، وتدبرها والتأمل فيها لتكون حافزاً للهمم ومقوياً للعزائم، فهي الصديق

الناصح والواعظ الصادق.

كما ينبغي للدعاة أن يهتموا بهذه الأخبار، وأن يعرضوا نفائسها على الناس في دعوتهم ووعظهم وإرشادهم إلى الخيرات مع ملاحظة توثيقها وصحتها.

يضاف إلى ذلك ضرورة الإهتمام بأقوال السلف الصالح وإرشاداتهم، فهي في غالبها حِكم بليغة ومواعظ مؤثرة لأنها مستقاة من مشكاة النبوة، وصادرة من قلوب يغمرها الإخلاص كما أنها تُعدُّ نتاجاً لخبراتهم الطويلة في تربية النفوس وإرشاد العباد لما فيه صلاحهم[1].

---

(١) يستحسن الرجوع إلى كتاب صفة الصفوة للإمام ابن الجوزي وسير أعلام النبلاء للإمام الذهبي وأمثالهما من الكتب المليئة بالأخبار والآثار عن السلف الصالح رحمهم الله.

آدابُ الصُّحْبَةِ الصالحة:

إذا أردتَ -أخي المسلم- أن تحظَى بالصحبة الصالحةِ وتنالَ برَكاتها وثمراتها ، ويدومَ الوُدُّ بينك وبين إخوانك في الله ، وتكونَ تلكَ الصحبة والأُخُوَّة غِذاءً للروحِ ، وحِصناً للنفس ، وشفاءً لها: **فعليك أن تحرص على الوصايا التالية**[1] ، وتبذل قُصارى جهدك في التخلُّقِ بها:

١- التزِم بحسن الخلق مع إخوانك وأصحابك ، وتواضع لهم ، وعليك ببشاشةِ الوجه ، ولُطْفِ اللسان ، وسعةِ القلب ، وبَسْطِ اليد ، وكظْمِ الغيظ ، والشفقةِ عليهم ، والرحمةِ بهم.

٢- اصفح عن عثراتِ وهفواتِ إخوانك ، ولا تُكْثِرْ عتابَهم وتأنيبَهم عليها ، والتمس لهم الأعذار ، واحمل كلامهم وأفعالهم على أحسن الوجوه ، وتجنَّبْ سوءَ الظن بهم.

وكُن كما قَالَ الشاعر:

وإذا الحبيبُ أتى بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسِنُهُ بألفِ شفيعِ

٣- احذر أن تحسد أحداً من إخوانك على نعمةٍ أنعمَ الله بها عليه ، بل افرح بذلك ، واحمد الله كما تحمده إذا رُزِقْتَ أنتَ هذه النعمة.

٤- اجتنب الحقد والبغضاء ، والزم الصفح والعفو ، ولا تضيِّع صداقةَ صديقٍ بَعْدَ وُدٍّ ، فمَن فَرَّطَ في مودَّةِ أخٍ مخلصٍ حَلَّت به الندامة ،

---

(١) انظر: آداب العشرة وذِكر الصحبة والأُخُوَّة -للإمام أبي البركات بدر الدين الغَزِّي (ت٩٨٤هـ).

وضع نصب عينيك حديث النبي ﷺ : **"لا تقاطَعوا ولا تدابَروا ولا تباغَضوا ، ولا تحاسَدوا ، وكونوا عبادَ اللهِ إخوانا"** [1] .

٥- إذا حدث نزاعٌ بينك وبين أحدِ إخوانك فسارع إلى الاعتذارِ منه ، ولا تُغرق في الخصومة ، واترك للصلح موضعاً ، واحذر الوقيعة فيه ، أو كشفَ معايبِهِ وأسرارِه ، ولا تقبل وشايةً أو نميمةً ، فإنه مَن نمَّ لَكَ نمَّ عليك ، وصُنْ سَمْعَكَ عن سماعِ القبيح ، ولسانك عن نطقه ، وتجنب القطيعة والهجران.

فقد قال ﷺ: **"لا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاهُ فوقَ ثلاثٍ ، يلتقيان فيُعرضُ هذا ويُعرضُ هذا ، وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام"**[2].

واعلم أنَّ الهجر إذا طالَ تنافرَتِ القلوب ، يقولُ الشاعر:

احرص عَلَى صونِ القلوب من الأذى ... فرُجوعُها بعد التَّنافُرِ يُعسَرُ
إنَّ القلوبَ إذا تنافرَ ودُّها ... مثل الزجاجةِ كسرُها لا يجبرُ

وتذكَّرْ وصيةَ الإمامِ الشافعي رحمه اللهُ وَهُوَ يقول:

لسانَكَ لا تذكر بهِ عورةَ امرئٍ ... فكُلُّكَ عوراتٌ وللنَّاسِ أعيُنُ
ونفسُكَ إن أبدَتْ إليكَ معايِباً ... فصُنْها وقُلْ: يا نفسُ للنَّاسِ أعيُن

٦- عليكَ أن تراعيَ في صحبتك إخوانك صَلاحَهم لا مُرادَهُم ، ودلالتهم على رشدهم لا على ما يحبون أو يوافق أهواءهم ،

---

(١) رواه مسلم – رقم/ ٢٥٦٣.

(٢) رواه مسلم – رقم ٢٥٦٠.

يقولُ الإمام الغَزي رحمه الله: (المؤمن مَن يعاشـرك بـالمعروف ، ويدلُّكَ على صلاحِ دينك ودنياك ، والمنافق مَن يعاشرك بالمماذعة -أي بالكذب- ويدلُّكَ على ما تشتهيه) [1].

وإنَّما أردتُ أنْ أُذَكِّرَ بهذه الوصايا وأُؤَكِّدَ عليها لأنَّ كثـيراً ممـن يبحثون عن الصحبةِ الصالحةِ لا يلتزمون بها ، وكم عرَضَتْ لي من مشاهد يندى لَهَا الجبين لأُناسٍ نتوسَّمُ فيهم الخيرَ والصـلاح ، ولكنـهم عـن المصاحبةِ والعِشْرَةِ لا يلتزمون بأقلّ هَذِهِ الأسباب ، مع أنَّـهُمْ يطـالِبونَ الآخَرين بها ، وَلاَ حولَ وَلاَ قوةَ إلاَّ باللهِ..

---

(١) آدابُ العشرة – للإمام أبي البركات الغزي – ص/٢٥.

الفصل السادس

التفكر في المخلوقات

كرم الله سبحانه الإنسان بالعقل الذي يميز به بين النافع والضار، ويعرف به طريق الخير من طريق الشر، ويتقبل بواسطته العلوم والمعارف وإدراك حقائق الأسياء ويتحكم في غرائزه وأهوائه، ولذلك جعل الإسلام العقل مناط التلكيف.

وهذا العقل الذي هو من أجلِّ النعم، إذا استخدمه الإنسان فيما خُلق له، وأطلق له حرية التأمل في صفحات هذا الكون العظيم والتدبر في بديع صنع الله تعالى، فإنه سيصل بصاحبه إلى الإيمان بالخالق وتوحيده، والإقبال على عبادته بخشوع وخضوع.

وإذا عطّل الإنسان وظيفة العقل، وجعله أسيراً للهوى منقاداً لشهوات النفس، فقد أسفَّ به إلى منزلة البهائم التي لا عقل لها، وهذا ما وصف به الله سبحانه المنحرفين عن دينه، المعرضين عن نداء الفطرة، وذلك في أكثر من موضع من آيات القرآن الكريم، منها قوله تعالى: **﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هو أضل أولئك هم الغافلون﴾**

(سورة الأعراف / آية ١٧٩).

فهؤلاء الذين عطلوا وظيفة العقل وسدوا منافذ التدبر في القلب، ونظروا إلى الكون بعين البصر لا بعين البصيرة، وأصموا آذانهم عن سماع الحق والإصغاء إليه، فقد استحقوا أن يكونوا في عداد البهائم التي تسيّرها غرائزها، ولكنهم أضل منها سبيلاً لأنهم مُنحوا نعمة عظيمة فضيّعوها، وعطّلوا عقولهم التي كرمهم الله بها لتكون سبباً للهداية وزيادة الإيمان فجعلوها مقيّدة بالأهواء.

ولقد حفلت آيات القرآن الكريم بالدعوة إلى التفكير في خلق الله سبحانه واستخلاص الدروس والعبر منها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله يُنشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير**﴾ (سورة العنكبوت / آية ٢٠).

وقوله سبحانه: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت**﴾ (سورة الغاشية/ الآيات ١٧ـ٢٠).

وقوله عزوجل: ﴿**فلينظر الإنسان ممَّ خُلق ، خُلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب**﴾ (سورة الطلاق / الآيات ٥ـ٧).

وقوله سبحانه: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ (سورة فصلت: من الآية ٥٣).

وغير ذلك من الآيات القرآنية التي تحث على التفكر في خلق الإنسان

والحيوان والنبات والأرض والسموات وتقلب الليل والنهار وعجائب البحار، وما حفلت به المخلوقات من دلائل القدرة الباهرة والحكمة العظيمة للخالق سبحانه.. ﴿صنع ا لله الذي أتقن كُلَّ شيء﴾ (سورة النمل/ من الآية ٨٨).

ولكن الذي ينبغي التركيز عليه هنا ما يدل من تلك الآيات القرآنية على أن التفكر عبادة جليلة ووسيلة عملية لتزكية النفس والتوجه بها إلى خالقها، وقد ورد ذلك صريحاً في قوله تعالى: **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون ا لله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾** (سورة آل عمران/ الآيتان ١٩٠-١٩١).

فقد أثنى ا لله سبحانه على أولي الألباب، وهم أصحاب العقول الزكية التي تدرك الأشياء بحقائقها [1]، وهؤلاء الذين استحقوا هذا الثناء يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات ا لله الكونية والتفكر فيها ويتوجهون إلى ا لله تعالى بقلوبهم ويذكرونه في جميع أحوالهم.

وقد قرن ا لله سبحانه بين توجه القلب إلى ذكره وعبادته وبين التفكر في مخلوقاته ليبين أن هذاالتفكر عبادة يتقرب بها المتقربون إلى ربهم، وهي نوع من أنوع الذكر الذي يحيي القلب بنور الإيمان، ويشرح الصدر لما يظهر

---

(١) ينظر / تفسير ابن كثير ١/٤٣٨.

للمتأمل من حكم عظيمة تدل على عظمة الخالق سبحانه ورحمته وعنايته بخلقه.

ولذلك كان الرسول ﷺ يحرص على قراءة هذه الآيات الكريمة في قيام الليل ليجمع بين الذكر والتفكر، ويرشد إلى أهمية ذلك في حضور القلب واستجلاب الخشوع.

روى مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (أنه رقد عند رسول الله ﷺ فاستيقظ ـ أي الرسول ﷺ ـ فتسوك وتوضأ وهو يقول: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾ فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة، ثم قام فصلى ركعتين، فأطال فيهما القيام والركوع والسجود) [(١)].

وفي رواية لمسلم أنه ﷺ قال: (بتُّ في بيت خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد، فنظر إلى السماء فقال: ﴿**إن في خلق السموات والأرض..**﴾ ثم قام فتوضأ واستنَّ..).

وفي رواية أخرى: (أن النبي ﷺ قام من آخر الليل فخرج فنظر إلى السماء، فتلا هذه الآية في آل عمران: ﴿**إن في خلق السموات...**﴾ ثم

---

(١) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين ـ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ـ رقم /٧٦٣.

رجع إلى البيت فتسوك وتوضأ، ثم قام فصلى،، ثم اضطجع، ثم قام فخرج فنظر إلى السماء، ثم تلا هذه الآية..)[1].

وفي حديث آخر عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه دخل على عائشة رضي الله عنها مع بعض أصحابه وبينها وبينهم حجاب فقال لها ابن عمر: أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكان فيما قالت: أن الرسول ﷺ قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فقال: (ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة: **﴿إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾**، ثم قال: **"ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها")**[2].

وهكذا نجد أن التفكر في خلق السموات والأرض عبادة جليلة، لابد لمن أراد السير في طريق التزكية أن يحرص عليها، ليفتح بصيرته على مشاهد هذا الكون العظيم، ويتوجه إلى ربه بقلب خاشع يعمره الإيمان، وقد أشار إلى ذلك

---

(١) المرجع السابق.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ـ رقم/٥٢٣) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ رقم /٦٨.

الصحابي الجليل أبو الدرداء ﷺ فقال: " **تفكر ساعة خير من قيام ليلة** "[1].

آثار التفكر وثمراته في تزكية النفس:

١ ـ إيقاظ الفطرة وتحرير العقل من تسلط الهوى:

عندما تنطمس الفطرة وتتحكم أهواء النفس يضل الإنسان ويشقى، ولكن هذه الفطرة تتيقظ من جديد إذا فتح العقل بابه للنظر في عجائب الكون ومشاهده وآياته الباهرة، وهذا يشمل الكافر الذي انحرف عن عقيدة التوحيد، والفاسق الذي نسي آخرته في غمرة تعلقه بالدنيا وقد دعا الله سبحانه المعرضين عن اتباع الرسول ﷺ أن يبادروا إلى التفكر، لعل ذلك يوقظ فطرهم بعد أن يطرحوا عنهم العصبيات الجاهلية وينظروا بعقول مجردة من الهوى.

قال تعالى: ﴿**قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنّة إنْ هو إلا نذير لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد**﴾ (سورةسبأ / الآية ٤٦).

ويشمل هذا التفكر كل نظر وبحث صادق لا تتحكم فيه الأهواء، ولا تؤثر فيه مؤثرات البيئة وعصبياتها، وإنما هو تأمل هادئ، مثنى وفرادى، من غير تأثر بالعقلية الجماعية التي تجرف الناس وتمنعهم من تدبر الحجة ومواجهة

---

(١) رواه الإمام أحمد في كتابه الزهد – ص/ ٢٠٢.

النفس في تمحيص عميق[1].

وقد ورد في هذه الآية الكريمة ذكر الأصول الثلاثة التي أنكرها المشركون، وهي التوحيد والإيمان بالرسول ﷺ واليوم الآخر، فقوله تعالى: ﴿**أن تقوموا لله**﴾ إشارة إلى التوحيد، وقوله: ﴿**ما بصاحبكم من جنة**﴾ إشارة إلى الرسالة، وقوله: ﴿**بين يدي عذاب شديد**﴾ إشارة إلى اليوم الآخر[2] والطريق الموصل إلى الإيمان بهذه الأصول هو التفكر وتحرير العقل من تسلط الهوى.

وكم من أناس تيقظت فطرتهم وأعلنوا إسلامهم وأصبحوا دعاة لهذا الدين، لأنهم أطلقوا عقولهم للتفكر في بدائع المخلوقات، من خلال اختصاصاتهم العلمية في الطّب والفلك وعلم الأحياء ومختلف العلوم والمعارف[3].

٢ ـ ترسيخ الإيمان:

الإيمان يزيد وينقص، ولابد له من غذاء مستمر حتى يقوى ويؤدي إلى تزكية النفس، وقد سبق الحديث عن دور العبادات من فرائض ونوافل في

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٥/٢٩١٤.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٥/٢٦٩.

(٣) يرجع إلى كتاب / الله يتجلى في عصر العلم، وكتاب / العلم يدعو إلى الإيمان، تأليف كرسي موريسون.

تقوية الإيمان، ولابد هنا من إبراز دور التفكر وأهميته في تحقيق ذلك.

فالمسلم عندما يفتح بصيرته للتفكر في خلق السموات والأرض وما فيهما من عجائب باهرة وآيات عظيمة، وينظر في ملكوت الله سبحانه ، وما حوى من مخلوقات بديعة ونظام محكم ، ويتأمل عجائب البحار وتقلب الليل والنهار ودوران الأفلاك، وما يصل إليه العلماء يوماً بعد يوم من اكتشافات تدهش العقل في كل جوانب العلوم، فإنه سيزداد يقيناً بعظمة الخالق عزَّ وجل وقدرته ويزداد إجلالاً ومحبة له سبحانه وخشوعاً بين يديه.

بل إن مجرد التفكير في خلق الإنسان وما يحوي هذا الكائن البشري من أجهزة معقدة لكل منها وظائف دقيقة، ومفاصل وأعضاء وأعصاب وأوعية دموية وغير ذلك مما يعمل في هذا الجسم ليل نهار ويؤدي دوره بكل إتقان[(١)] . فإن المرء يزداد إيماناً كلما أمعن النظر في ذلك، ويزداد إجلالاً للمولى سبحانه: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ (سورة طه / من الآية ٥٠).

وتطمئن النفس إلى طاعة ربها راضية مرضية.

---

(١) يرجع إلى كتاب: الطب محراب الإيمان للدكتور/ خالص جلبي، وما أصدرته هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة التابعة لرابطة العالم الإسلامي من كتب ونشرات وأفلام مصورة ونحو ذلك.

٣ ـ اعتراف الإنسان بضعفه وافتقاره إلى ربه:

من أخطر آفات النفس التكبر[١] والتعالي وإدعاء الاستغناء بما يملك الإنسان من قوة وصحة وأموال وأولاد، فينشغل بالنعم عن المنعم، وقد يصل به الأمر إلى جحود نعمة ربه ونسبة هذه النعم إلى نفسه تعالياً واستكباراً.

ولذلك نجد التركيز في آيات القرآن الكريم، في مواضع كثيرة على التفكر في ما سخرّ الله للإنسان من مخلوقات وما أغدق عليه من نعم والتأكيد على وجوب شكرها.

ففي سورة إبراهيم مثلاً توجيه إلى التفكر في خلق السموات والأرض والبحار والأنهار والشمس والقمر وتحذير من جحود هذه النعم والإعراض عن المنعم عزوجل.

يقول سبحانه: ﴿**الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره..**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار**﴾ (سورة إبراهيم / الآيات ٣٢-٣٤).

وفي سورة فاطر تذكير بخلق الإنسان من نطفة وعجائب الخلق في البحار والأنهار، وتقلب الليل والنهار، ثم يختم السياق ببيان ضعف الإنسان وافتقاره

---

(١) سبق الحديث عن هذه الآفة بالتفصيل في الكتاب السابق: (أمراض النفس).

لمولاه الغني القادر سبحانه، وذلك في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى ا لله وا لله هو الغني الحميد**﴾(سورة فاطر / آية ١٥)، ثم يعود السياق إلى بيان ما أودعه ا لله سبحانه في هذا الكون من مخلوقات ينبغي التفكر فيها وتأمل عجائبها التي تزيد المرء إيماناً بربه وخشية منه ومسارعة إلى طاعته.

يقول تعالى: ﴿**ألم تر أن ا لله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى ا لله من عباده العلماءُ، إن ا لله عزيز غفور**﴾ (سورة فاطر / الآيتان ٢٧-٢٨).

فالعلماء هم الذين يتدبرون صفحات هذا الكون العظيم، ويستشعرون عظمة الخالق سبحانه ويدركون افتقارهم إليه فيزدادون خشية له عزوجل وإقبالاً على عبادته.

وقد أرشد المولى سبحانه إلى ضرورة تفكر الإنسان في نفسه ليعرف قدرها ويمنعها من غرورها وطغيانها، فقال تعالى: ﴿**فلينظر الإنسان مم خُلق، خُلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب**﴾ (الطلاق / الآيات ٥-٧).

وقال سبحانه: ﴿**ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين**﴾ (سورة المرسلات / الآيات ٢٠-٢٤).

فالانسان مهما بلغ به الغنى والجاه والقوة فهو عبد ضعيف مفتقر إلى

مولاه مخلوق من ماء مهين، وهذا المعنى لا يترسخ في النفس إلا بالتفكر.

٤ ـ اقتباس الدروس والعبر:

المشاهد المتنوعة في الكون والأحياء على اختلاف أنواعها دروس ناطقة لمن تأملها بعين البصيرة ليستلهم منها العبر وتكون عوناً له على علاج النفس من آفاتها وترقيتها في مدارج التقوى والتحلي بالأخلاق الفاضلة.

فلو نظر مثلاً إلى الأشجار لاتّخَذَ منها دروساً لا تعد في ثباتها ورسوخ جذورها ومقاومتها للرياح، وهي عندما تُرمى بالأحجار تُلقي بالثمار، وتمد أغصانها لتمنح الظلال، فليكن المؤمن كذلك في قوة إيمانه وحسن خلقه وإحسانه إلى الآخرين.

والشجرة عندما كانت فسيلة صغيرة لا تقوى على مقاومة الرياح فإنها تحاط بسياج أو تُربط بعصا ثابتة تسندها وتساعد على استقامتها، وفي هذا المشهد درس بليغ لضرورة الصحبة الصالحة التي يرتبط بها المسلم لتساعده على الاستقامة، وتكون سياجاً واقياً له من تيارات الضلال.

وفي نبات الصبّار دروس وعبر، فهو مليء بالأشواك ، شديد المرارة، لكن ثمره حُلو المذاق لمن عرف كيف يجنيه ويأكله، وكذلك طريق الإيمان لابد فيه من معاناة وصبر لكن ثماره التي يحظى بها العبد في الدينا والآخرة تهون من أجلها الصعاب.

وفي مشهد النار وألسنة اللهب والشرر المتطاير عِبر لا تخفى، فإذا كان

الإنسان لا يصبر لحظة على حرها في الدنيا فكيف يصبر عليها في الآخرة !!.

والجمادات فيها أيضاً عبرة فهذه أحجار الطاحون يرمي لها الناس بالخشن وتعطيهم الناعم وكذلك المؤمن ينبغي له أن يقابل السيئة بالحسنة ويتحلى بالحلم والصفح.

وهكذا يتخذ العبد الموفق من كل مشهد عبرة، حتى إنه إذا نظر إلى الدنيا وزينتها ومباهجها، فإنه لا ينظر إليها بعين البصر فقط فتشغله عن طاعة ربه، وإنما ينظر بعين البصيرة، فيقول: إذا كان كل هذا النعيم في الدنيا الفانية التي لا تعدل عند الله جناح بعوضة، فكيف بالآخرة الباقية ؟ وكيف بنعيم الجنة التي فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر؟!.

روى الحافظ ابن أبي الدنيا عن أبي سليمان الداراني أنه قال: (إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء[1] إلا رأيت لله عليَّ فيه نعمة ولي فيه عبرة)[2].

وبذلك ندرك الثمرات العظيمة التي يجنيها العبد من التفكر في المخلوقات، والآثار التي يحظى بها المتفكر في مجال تزكية النفس وإصلاح السلوك.

---

(١) أي: مما أحل الله النظر إليه.

(٢) أورده الإمام ابن كثير في تفسيره ١/٤٤٧.

كما ندرك أهمية الدعوة إلى التفكر والحث عليه، وضرورة اغتنام الدعاة لهذا الجانب في دعوتهم وبخاصة ممن آتاهم الله العلم في مجالات الطب والفلك وغيرهما من مجالات العلوم الحديثة.

وصدق الله سبحانه القائل في كتابه العزيز: ﴿**وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادِ والذين آمنوا إلى صراط مستقيم**﴾ (سورة الحج / آية ٥٤).



أسبابُ انشراحِ الصدر

قال الإمام ابن القيم رحمه الله[1] :

أعظمُ أسبابِ انشراح الصدر:

أولاً – التوحيدُ ، وعلى حسبِ كماله ، وقوَّته ، وزيادَتِهِ يكــونُ انشراحُ صدرِ صاحبه . قال الله تعالى: **﴿أفمن شَرَحَ اللهُ صدرهُ للإسلامِ فهُوَ على نورٍ من رَّبه﴾** [الزمر: ٢٢] . وقال تعالى: **﴿فمَــن يُّــرِدِ اللهُ أن يَّهْدِيَهُ يشرح صدرَهُ للإسلام ومَن يُّرِدْ أن يُّضِلَّهُ يجعلْ صــدرهُ ضيِّقــاً حرَجاً كأنَّما يصَّعَّدُ في السماء﴾** [الأنعام: ١٢٥] .

فالهُدى والتوحيد من أعظم أسبابِ شرحِ الصدر، والشركُ والضَّلالُ من أعظمِ أسبابِ ضيقِ الصدر وانحراجه .

ثانياً– نورُ الإيمان: وَهُوَ النورُ الذي يقذِفُهُ الله في قلبِ العبد ، فإنَّــهُ يشرحُ الصدرَ ويوسِّعُهُ ، ويُفَرِّجُ القلب. فإذا فُقِدَ هذا النورُ مــن قلــبِ العبد ، ضاقَ وحَرِجَ ، وصارَ في أضيقِ سجنٍ وأضيعه.

وقد روى ابن مسعودٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، أنه قال:

"إذا دَخَلَ النُّورُ القلبَ ، انفسحَ وانشرح . قالوا: وما علامةُ ذلك يا رسولَ الله؟ قَالَ: الإنابةُ إلى دارِ الخلودِ ، والتَّجافي عــن دارِ الغــرور ، والاستعداد للمَوتِ قبلَ نزوله" "[1]"

---

(١) زاد المعاد ، ٢/٢٣-٢٨ بتصرف يسير.

فيصيبُ العبدُ من انشراحِ صدره بحسب نصيبه من هــذا النــور ، وكذلك النورُ الحِسِّيّ ، والظلمة الحسِّية ، هذه تشرح الصــدر ، وهــذه تضيِّقُهُ .

ثالثا – العلم ، فإنه يشرح الصدر ويوسعه حتى يكون أوسع مــن الدنيا ، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس ، فكلما اتسع علم العبـد ، انشرح صدره واتسع ، وليس هذا لكل علم ، بل للعلم المــوروث عــن الرسول ﷺ وهو العلم النافع ، فأهله أشرح الناس صدرا ، وأوســعهم قلوبا ، وأحسنهم أخلاقا ، وأطيبهم عيشا .

رابعا – الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى ، ومحبته بكــل القلــب ، والإقبال عليه ، والتنعم بعبادته ، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلـك . حتى إنه ليقول أحيانا: (إن كنت في الجنة في مثل هذه الحالة ، فـإني إذا في عيش طيب) . وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر ، وطيب النفس ، ونعيم القلب ، لا يعرفه إلا من له حس به ، وكلما كانت المحبة أقــوى وأشد ، كان الصدر أفسح وأشرح ، ولا يضيق إلا عند رؤية البطــالين الفارغين من هذا الشأن ، فرؤيتهم قذى عينه ، ومخالطتهم حمى روحه.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٧/٨ من حديث ابن مسعود وذكره الســيوطي في الــدر المنثور ٤٤/٣، وأورده الحافظ ابن كثير (١٧٤/٢) عن عبدالرزاق . وابن أبي حاتم وابن جرير ، ثم قال: فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشــد بعضها بعضا ، وانظر تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط لزاد المعاد – (٢٤/٢).

ومن أعظم أسبابِ ضيقِ الصدر: الإعراضُ عن الله تعالى ، وتعلُّقُ القلبِ بغيره ، والغفلةُ عن ذِكْرِهِ ، ومحبةُ سواه ، فإنَّ مَن أحبَّ شيئاً غيرَ الله عُذِّبَ به ، وسُجِنَ قلبهُ في محبة ذلك الغير ، فما في الأرض أشقى منه ، ولا أكسفَ بالاً ، ولا أنكدَ عيشاً ، ولا أتعبَ قلباً .

فَهُمَا محبتان: محبةٌ هي جنةُ الدنيا ، وسرور النفس ، ولذةُ القلب ، ونعيم الروح ، وغذاؤها ، ودواؤها ، بل حياتُها وقُرَّةُ عينها ، وهي محبةُ اللهِ وحده بكلِّ القلب ، وانجذابُ قُوى الميل ، والإرادة ، والمحبة كلِّها إليه.

ومحبةٌ هي عذابُ الروح ، وغمُّ النفس ، وسِجْنُ القلب ، وضِيقُ الصدر ، وهي سببُ الألم والنكد والعناء وهي محبةُ ما سواه سبحانه.

خامساً – دوامُ ذِكْرِهِ على كلِّ حال ، وفي كُلِّ موطن ، فللذِّكْرِ تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصدر ، ونعيم القلب ، وللغفلةِ تأثيرٌ عجيبٌ في ضيقه وحبسه وعذابه.

سادِساً – الإحْسَانُ إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال ، والجاه ، والنفع بالبدنِ ، وأنواعِ الإحسانِ ، فإنَّ الكريمَ المحسن أشرحُ الناسِ صدراً ، وأطيبهم نفساً ، وأنعمهم قلباً ، والبخيل الذي ليس فيه إحسانٌ أضيقُ الناسِ صدراً ، وأنكدهم عيشاً ، وأعظمهم همَّاً وغَمَّا .

سابعاً – الشجاعةُ: فإنَّ الشجاعَ منشرحُ الصدرِ ، متَّسِعُ القلب ، والجبان: أضيقُ الناسِ صدراً ، وأحصرُهُمْ قلباً ، لا فرحةَ له ولا سرور ، ولا لذَّةَ له ، ولا نعيم إلاَّ من جنس ما للحيوان البَهيمي ، وأما سرور

الروح ولذّتُها ، ونعيمها وابتهاجها ، فمحرَّمٌ على كلِّ جبانٍ ، كما هو محرَّمٌ على كل بخيلٍ ، وعلى كُلِّ معرضٍ عن الله سبحانه ، غافلٍ عن ذِكْرِه جاهلٍ به وبأسمائه تعالى وصِفاتِه ودينه ، متعلِّقُ القلبِ بغيره .

وإن هذا النعيم والسرور ، يصير في القبر رياضاً وجنةً ، وذلك الضيقُ والحصرُ ينقلبُ في القبرِ عذاباً وسجناً . **فحالُ العبدِ في القبرِ كحالِ القلب في الصدر ، نعيماً وعذاباً وسجناً وانطلاقاً ، ولا عبرةَ بانشراحِ صدرِ هذا لعارضٍ ، ولا بضيقِ صدرِ هذا لعارضٍ ، فإنَّ العوارضَ تزولُ بزوالِ أسبابها** ، وإنما المعوَّلُ على الصِّفَةِ التي قامت بالقلب توجبُ انشراحه وحبسه ، فهي الميزان .. والله المستعان.

ثامناً – إخراجُ دَغَلِ القلبِ من الصِّفاتِ المذمومةِ التي توجبُ ضيقه وعذابه ، وتحولُ بينه وبين حصولِ البُرءِ ، فإنَّ الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرحُ صدره ، ولم يُخرجْ تلك الأوصافَ المذمومةَ من قلبه ، لم يحظَ من انشراحِ صدره بطائلٍ ، وغايته أن يكون له مادّتانِ تعتَوِرانِ على قلبه ، وهو للمادة الغالبةِ عليه منهما.

تاسعاً – تركُ فضولِ النظر ، والكلام ، والاستماع ، والمخالطةِ ، والأكل ، والنوم ، فإنَّ هذه الفضولَ تستحيلُ آلاماً وغموماً ، وهموماً في القلب ، تحصُرُهُ وتحبسه ، وتضيِّقُهُ ويتعذَّبُ بها ، بل غالبُ عذابِ الدنيا والآخرةِ منها.

فلا إله إلا الله ما أضيقَ صدرَ مَن ضربَ في كلِّ آفةٍ من هذه الآفاتِ بسهم ، وما أنكَدَ عيشَهُ ، وما أسوأ حاله ، وما أشدَّ حصرَ قلبه!!

ولا إله إلا الله ، ما أنعمَ عيشَ مَن ضربَ في كلِّ خَصْلَةٍ من تلك الخصال المحمودةِ بسهمٍ ، وكانت هِمَّتُهُ دائرةً عليها ، حائمةً حولها!!.

فلهذا نصيبٌ وافرٌ من قوله تعالى: ﴿**إنَّ الأبرارَ لَفِي نَعيم**﴾ [الانفطار: ١٣] ولذلكَ نصيبٌ وافرٌ من قوله تعالى: ﴿**وإنَّ الفجَّارَ لَفِي جَحِيم**﴾ [الانفطار: ١٤]، وبينهما مراتبُ متفاوتةٌ لا يُحصيها إلا الله تعالى.

والمقصود: أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ أكملَ الخلقِ في كُلِّ صفةٍ يحصُلُ بها انشراحُ الصدر ، واتِّساعُ القلب ، وقُرَّةُ العين ، وحياةُ الروح ، فهو أكملُ الخلقِ في هذا الشرح والحياة ، وقُرَّةِ العين مع ما خُصَّ به من الشرح الحِسِّيّ ، وأكملُ الخلقِ متابعةً له ، أكملهُم انشراحاً ولذَّةً وقُرَّةَ عين ، **وعلى حسب متابعته ينالُ العبدُ من انشراح صدره ، وقُرَّةِ عينه ، ولذَّةِ روحه ما ينالُ** ، فهو ﷺ في ذُروةِ الكمالِ من شرحِ الصدر ، ورفعِ الذِّكْرِ ووضع الوِزْرِ.

وهكذا لأتباعه نصيبٌ من حفظ الله لهم ، وعصمتهِ إيَّاهم ، ودفاعه عنهم ، وإعزازِهِ لهم ، ونصرِهِ لهم ، بحسب نصيبهم من المتابعة ؛ فمستقلٌّ ، ومستكثرٌ. فمن وجد خيراً ، فليحمدِ الله . ومن وجد غير ذَلِك ، فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه.



فِي جهادِ النَّفْس

أبياتٌ مختارة من إحدى بدائع الشاعر عُمَرْ بهاء الدين الأميري في ديوانه (قلبٌ وربّ) يعاتب فيها نفسه ويوقظُها من غفلتها ويستحثُّها عَلَى المزيد من العمل في مرضاة الله سبحانه.

غُصَصٌ في ذَماء[1] قلبيَ تُغرَسْ ... كلّما العقلُ في حياتيَ تفرَّسْ[2]
يهدرُ اللغوُ جُلَّ عمري ضياعاً ... وأعانِي سُهدي إذا الليل عسعس[3]
ويحَ نفسي.. وويل إبليس كم.. ... أزجى لنفسي من مغرياتٍ ووسوس
ويلَ إبليسَ ، كادَ إذ كاد يودي ... بيَ ، لكنْ أخزاهُ ربِّي فأفلس
وإذا العبدُ لاذَ بالله نجّاهُ.. ... فولّى الشيطان عنه وأبلسْ
وتنادي إرادتي -وهي غَضبى ... غيرةً- قُمْ لقد كِدْتَ تَرْكَسُ[4]
أنتَ حُرٌّ ، مُذْ كنتَ لله عبداً ... فالتزِم واستعن بهِ وتكرَّس
سدِّدِ الرأيَ ، وانبعثْ لنشاطٍ ... مُثمِرٍ ، في غدٍ ، ولا تتبلَّسْ
النوايا أن أستمرَّ دؤوباً ... ليس سَعْيي لِمأْكَلٍ أو لملبس
بعثُ نفسي لبارئي مُستبيناً ... واعياً .. راضياً ، ولا أتملَّس[5]

---

(١) الذَّماء: بقية الروح والرمق.

(٢) تفرَّس: نظر وتثبَّت.

(٣) عسعس الليل: أقبلَ بظَلامه.

(٤) تُرْكَس: ارتكس في الأمر: وقع ولَم يَنْجُ.

(٥) أتمَلَّس: تملّسَ في الأمر: تخلَّصَ وأفلت.

الفهرس